صـــــــــداع
مـــــــــن
الــقــلــب

اسم الكتاب	:	صداع في القلب
التصنيف	:	رواية
المؤلف	:	خديجة مرعي
الطبعة	:	الأولى
مصمم الغلاف	:	يوسف السيد
التصحيح اللغوي	:	هاجر جابر
الإخراج الفني	:	هند محمود
رقم الإيداع	:	
الترقيم الدولي	:	

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

جمهورية مصر العربية

+20 1029303589

darerteqaa@gmail.com

خديجة مرعي

صداع من القلب

رواية

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

إهداء

إلى من قال لي ذات يوم: أنتِ تستطيعين فعلها، اكتبي لا تتوقفي، أنا بجانبك دائمًا، إلى نجمي المضيء في عتم أيامي، إلى شمسي المشرقة دائمًا وقمري المنير في جميع الليالي المُظلمة، إلى من آمن بي أولًا ودائمًا، وكان الداعم لي في كل خطواتي، لمن تحمَّل مزاجيتي المفرطة وشخصيتي القيادية، وكان سندي الدائم في عزِّ انكساراتي وخيباتي المُتكرِّرة.

إلى تلك الشمعة التي أفنت حياتها في سبيل وجودنا وكانت لنا الصديقة والأخت والأم، إلى من تحمَّلت ظُلم الأيام وقهر الليالي ومعاناة كل شيء لأجلنا؛ إلى أمّي الحنون.

إلى أخواتي وإخوتي وأبي الذين كانوا عونًا لي في كل لحظة من حياتي، وصديقاتي اللاتي كُنَّ حقّ أصدقاء لي، وابنة عمي التي أعطتني إلهامًا دائمًا في الاستمرار بالكتابة.

إلى كل من ساعدني في أن يكون لي بصمة، إلى أولئك المحبين لي دائمًا.

أُقدِّم لهم كتابي، وأرجو من الله ألّا يكون سببًا في حزن أحد، وإنّما عبرة وعظة لكل من يقتنيه، والله وليُّ التوفيق.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أعطاني نعمًا لا تُحصى، ولولا فضل الله عليّ لما أنهيت ما بدأت فيه منذ سنوات.

لقد ترددت كثيرًا قبل أن أبدأ باتخاذ خُطوة كهذه، أن أحمل على عاتقي كتابة هذا النوع من القضايا، خاصة وأنَّ هذا عملي الأدبي الأول، عانيت كثيرًا في ترجمة أفكاري الكثيرة على صُفيحات صغيرة، قضية يتكتَّم عليها المجتمع الشرقي خوفًا من الفضيحة من كلام الناس، قضية تُقتل فيها الضحية بدمٍ بارد ويُترك الجاني حرًّا طليقًا بلا حساب، كلّه تحت مُسمَّى جريمة الشرف! لذلك مولودتي الأولى، طفلتي التي سترى النور بعد أن ترعرعت في رَحِم الظلام، حتى وُلِدت في عالم الأدب والفكر سيكون أول عمل لي في عالم الكتابة للنساء اللواتي عانين من عتمة الظلم وقهر الليالي والصمت خوفًا من المجتمع وموت الروح والجسد، لهنَّ أولًا.

الفصل الأول
القرار

وفي القلب أحاديث صامتة غير قابلة للبوح، تنغلق على نفسها كلّ يوم وتنزف رويدًا رويدًا.

تقف بين الوعي واللاوعي، بين الحيرة والعزم، بين الأمل واليأس، بين شتات أحزانها، التي تأبى أن تجتمع كلها في زاوية واحدة من قلبها، تريد أن تتناثر وتتبعثرَ في جميع خلايا جسدها، لتُعلِن أنها الأقوى، أنها المالِكُ لقلبها.

عليها أن تُقرِّر الآن، ماذا تفعل؟؟ إنه قرار مصيري وحتمي، لا وقت للحيرة بعد الآن، جاء وقت القرار، لا مجال للفرار، إذَن هل هو الرحيل؟ أو أنه الثبات على موقفها وقضيتها؟ يجب عليها أن تُفكِّر جيدًا، فالقرار الذي ستأخذه قرارًا حاسمًا لا رجعة فيه، إن كانت ستبقى فعليها أن تعلم حجم المصائب التي ستواجهها، والطريق العاثر الذي ينتظرها، عليها أن تعلم حجم المغامرة التي ستُقدِمُ عليها، فالطريق أمامها ممتلئ بالرصاص، ليس مفروشًا بالحجارة حتى، وإن قررت الرحيل؛ فعليها أن تتخلى عن حلمها وعن جميع أمانيها وعن قلبها النابض بحب عبق ياسمين حارتها.

تقول لنفسها: الرحيل يعني الهروب! وأنا لست هاربة، أنا سأناضل وسأظل لأواجه مصيري الذي ينتظرني، فالرحيل لن يُجدي نفعًا.

ترفع صوتها بما يُفكِّر به عقلها:

— نعم سأبقى هنا، فالوطن يناديني، يريدني إلى جواره، كيف لا أسمع نداءه وهو الذي احتواني منذ كنت مضغة في بطن والدتي! كيف لي أن أتركه وهو بأمسِّ الحاجة لمن يمنع تدفق دماء أبنائه؟

— إذَن قررتِ وأخيرًا!!

تتنهد والدتها بوهن وتعب، ويعلو وجهها ابتسامة متعبة ومثقلة بما تحمله من أحزان في داخلها، لم تكن ابتسامة فرح، بل ابتسامة مودِّع لابنته الوحيدة.

تلتفت جولي إلى أمها وتضع عينيها بالأرض، فهي لا تستطيع أن ترى الانكسار الذي بدا واضحًا على وجه والدتها، والدتها التي ضحَّت بكل شيء لأجلها، التي تغرَّبت عن وطنها لتأتي بها إلى وطن والدها! تذكرت كل هذا قبل أن تجيبها:

— نعم يا أمي، لا أستطيع السفر معك، سأبقى هنا، لكن أعدك بالتواصل الدائم معك، وسأحاول جاهدةً أن آتيك زائرة في يوم ما.

كأن هذه الجملة كانت كافية لتصنع جدارًا من الصمت بينهما، لتنعزل كل واحدة في عالمها الخاص، العالم السرِّي المخبّأ داخلهنّ، العالم الذي يحتفظن فيه لأنفسهن، مفضّلة الصمت عن تلك الأسرار؛ خوفًا من خطر البوح، فالسرّ الذي تحتفظ به جولي ليس بالسر الكبير، أما السرّ الذي تحتفظ به والدتها سر مخيف لدرجة صعوبة البوح به، ويجب أن يبقى هذا السر بعيدًا عن جولي؛ لأنها لا تريد أن تتأذى.

تعود والدتها إلى غرفتها محمَّلة بكثير من الهموم والأحزان، تنظر إلى الحقيبة المركونة على طرف السرير، كأنها تقول لها: هيّا بنا لنذهب بعيدًا، دعينا نبدأ من الصفر، فابنتك لم تعد طفلة، عودي إلى حيث نشأتِ، وإلى حيث انتفض قلبُكِ أول مرة، إلى ذلك الحي الشعبي القديم، الحي الذي التقيت فيه بوالد جولي أول مرة.

رفعت بصرها ويديها إلى السماء داعية:

- يا رب أعطني الصبر ولا تحمِّلني ما لا طاقة لي به، ألهمني عقلًا حكيمًا، ولا تجعلني قاسية القلب، فأنت تعلم ما أُخفيه، فهب لي من لدنك قوَّة تجعلني أتحمَّل فراق ابنتي الوحيدة.

كادت تمشي باتجاه حقيبتها، عندما سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، علمت من وراءه، فقالت:

- ادخلي يا صغيرتي.

- ما زلت تنادينني صغيرتي، وقد أصبحت بهذا العمر!

تبسَّمت جولي بمحاولة منها لتُضفي على الجو شيئًا من المرح، ولتمنع سقوط دموعها المتعلقة بحبال رموشها..

ردت عليها ميرال:

- ستظلين صغيرة بعينيّ وإن أصبح لديكِ أحفادٌ.

أبت دمعات جولي أن تظل في مقلتيها، فهطلت على خديها، لتحرقهما بشدّة، ولتذكرها بالسنوات التي أمضتها مع والدتها، والدتها التي رافقتها منذ نعومة أظفارها، ها هي ستسافر وتتركها تكمل الطريق وحدها. ارتمت بحضنها وهي تنتحب بصمت يأنُّ له القلب

المتحجِّر، وتدمي له العين المتجمدة، كان وداعًا مُتعِبًا للمشاعر والقلوب، وأيضًا للجسد.

سحبت نفسها بصعوبة وراحت تجرُّ حقيبة والدتها، وكأنها تجرُّ قلبها معها، استقلتا سيارة أُجرة للمطار الذي يبعد عن بيتها مسافة لا بأس بها. كان الطريق قصيرًا عليهما، ودَّعت أمها بكثير من الدموع والدعاء، وهي ترجو من الله أن يوصل والدتها بسلامة، وأن يهوِّن فراقها وبُعدها عنها، بينما كانت ميرال تحاول متشبثة بآخر خيوط الأمل، بأن توافق جولي بالذهاب معها.

— ألن تُغيري رأيك؟ يمكننا الحجز من المطار، وتسافرين معي، دعينا نترك كل شيء وراءنا ونبدأ حياة جديدة هناك، حيث الأمن والأمان.

أجابتها جولي بمرارة:

— أمي ألم ننتهِ من هذا؟ لقد أعلنت عن رغبتي، وأتشكرك لعدم ضغطك عليّ، وتقبّلك لقراري.

عانقتها للمرة الأخيرة ولسانها يلهج بالدعاء لصغيرتها التي كبُرت قبل أوانها:

— يحميكِ ربي من كل أذى، يبعد عنك أولاد الحرام، انتبهي على نفسك جيدًا، لا تنسي وجبة الفطور، ولا بقية الوجبات، كوني حريصة على أن تكلميني دائمًا.

هزّت جولي رأسها والدموع تتساقط منها مجيبة:

— بالتأكيد يا أمي، كيف لي ألا أكلمك؟ وأنتِ كل ما لي في هذه الدنيا! عديني أن تأخذي دواءك بوقته، وأن تطمئنيني حين وصولكِ.

— سأحاول يا ابنتي، وبالتأكيد سوف أتصل بكِ حين وصولي.

ذهبت ميرال وهي تجرُّ حقيبتها وراءها، تحاول أن تلملم ذيول حزنها، ودَّعت ابنتها من بعيد بكفّها، وأكملت طريقها نحو بوابة المغادرين، لتختم جواز سفرها وتتنظر في قاعة المسافرين حتى يحين موعد طائرتها.

انتظرت جولي إلى أن رأت والدتها تُغادر بوابة المسافرين، كادت عواطفها تطغى على مشاعرها، وشعرت أنها ستستجيب لنداء والدتها، وتسافر معها، تاركة وراءها كل شيء، لكنها صممت على البقاء، لم تسمع لنداءات عواطفها الجياشة، وخرجت منطلقة إلى منزلها، حيث كان ينتظرها الكثير من المهام والأمور.

❀❀❀

"الطريقة الوحيدة لمواجهة الخيبات المتوالية، هي أن يعشق المرء فكرة الخيبة نفسها. إذا أفلح المرء في ذلك؛ لا يعود يفاجئه شيءٌ، يسمو فوق كل ما يحدث، يصبح الضحية التي لا تُقهر".

إميل سيوران

كان جالسًا يئنُّ ألمًا وتعبًا، قلبه يكاد يتوقف من النبض السريع، لا يعلم ما الذي حدث؟ ولا كيف حدث؟ كيف بدأ؟ ومن أين بدأ؟ لكنه يعلم من السبب بوضعه الحالي! إنّها السبب الرئيس لوضعه الحالي!

— إلى متى ستستمر بهذا الوضع وبهذه الحال يا فارس؟

التفت إلى صديقه شاردًا:

— ماذا؟

— إلى متى ستبقى هكذا هائمًا؟ ليلك نهار، ونهارك ليل.

— لا أعلم يا خالد فأنت الوحيد الذي يعلم ما مررت به من صعوبات ومتاهات، وتعلم مدى حجم الألم الذي أعيشه.

— لكن إلى متى يا فارس؟ ألم يحن الوقت لتستعيد نفسك القديمة؟ لماذا تصرُّ على أن تصارع خيبتك الكبيرة بها؟ ولماذا تصرُّ على أن تعيش منغلقًا داخل قوقعتك هذه؟

— لا أدري، لا أدري، هناك الكثير من الأسئلة التي لم أجد لها جواب! لقد مضى أربع سنوات على هذا الأمر، وإلى الآن أُفتِّش عنها، كي تجيبني على أسئلتي، لكن لم أجدها إلى الآن، فكيف لي أن أهدأ، وأن أستعيد نفسي القديمة؟

- لكنها كانت موجود قبل، لماذا لم تسألها؟ لماذا تركتها تذهب دون أن تأخذ منها كل الأجوبة التي أنت بحاجتها؟

- كأنك لا تعلم يا خالد! لو كنت مكاني لشعرت بي، ولعلمت ما الذي منعني، لقد ألجمتني الصدمة، لم أستطع يومها النطق بحرف، كأنَّ الصمتَ فرض عليّ نفسه. كأن الكلمات أصابتها البكم، فأصبحت خرساء، فلم تعد تقوى على الخروج من حنجرتي! في كل مرة تسألني لماذا لم أتكلم معها في ذلك الوقت؟ ولماذا تركتها تذهب؟ كان وقع كلامها عليّ كالسيف، وجعلني أصمت دهرًا بأكمله، جعلني في عالم اللاوعي، فكيف لي أن أستفسر منها عمّا أخبرتني به؟

- أعلم حجم معاناتك يا صديقي، لكن يكفي هذا، ابدأ حياتك من جديد، لا يجب أن تستمرَّ على نفس الوتيرة، يجب عليك أن تعيش حياتك، لقد قاربت الثلاثين، إلى متى ستبقى مهملًا صحتك؟ متى ستعود لدراستك؟ لقد انتهيت من امتحانات الجامعة منذ أربع سنوات، وقدمت على التخصص، وإلى الآن لم تُكمل، ولم تعد تهتم، ولم تدرس وتستعيد همتك الدراسية.. لقد كنت من أوائل الطلاب في جامعتك، متى ستعود إلى رُشدك؟ ألا ترى دموع والدتك؟ ألا ترى التجاعيد التي راحت تهاجم وجه والدك والشيب يغزو رأسه؟ ألم يحن الوقت لتفرحهم بك؟ وأنت ابنهم الوحيد بعد أن تُوفي أخوك، يكفي يا فارس، كفاك حزنًا وضياعًا لعمرك وشبابك، يجب عليك أن تأخذَ قرارك لأجل والدتك التي لم يبقَ لديها سواك، يكفيها حزنها على ابنها الشهيد، وابنتها المريضة، والداك يضعان كل أملهم بك، لا تجعلهما ينكسران بعد هذا العمر مثل الذي وضع

عسله في جرة واحدة، فوقعت من يديه ووقع معها جميع أحلامه وتخيلاته، فلترسم البسمة على وجهيهما بعد هذا العمر، ولتكن فارسًا بالاسم والفعل.

كأن كلام خالد جاء كالضربة القاضية عليه، كأنها صفعة جعلته يستيقظ من غيبوبته المميتة.

– نعم أنت محقٌّ يا خالد، لقد مرَّ وقت كبير، ويجب أن أتخذ خُطوة جديدة، يجب عليّ أن أضع حدًّا لكل ما حدث في الماضي.

اقترب منه خالد وعانقه بقوة، فهو يعلم أن هذا القرار الذي أخذه فارس كبيرًا، أخذه بعد صراع دام سنوات:

– هذا فارس الذي أعرفه، هذا صديقي وأخي.

كأن هذا العناق كان بمثابة البوابة التي فُتحت لتجعله يذرف دموعًا لم يذرفها من قبل، دموع مخبأة منذ زمان، وأي دموع هذه؟ دموع رجل.. وما أقساه الزمن حين يجعل رجل يبكي! يبكي على حب ضائع، وحلم هارب.

أي رجل أنت يا فارس لتبكي على فتاة؟ أيُّ عظمة تسكنك؟ وأنت الذي ما زلت تبحث عن أجوبة لامرأة هجرتك؟

بكى كثيرًا في ذلك اليوم كأنه لم يبكِ بعمره، بكى وهو يعد نفسه:

– سأتوقف عن البحث عنها يا خالد، سأتوقف عن البحث عن الأجوبة، سأنسى كل الكمِّ الهائل من الأسئلة المزدحمة داخلي، سأنساها يا خالد، سأنساها، لم يعد هناك من سيؤلم قلبي من بعد الآن، يكفي هذا، يكفي ما فعلته لأجلها، يكفي كل المحاولات التي باءت بالفشل لإيجادها.

تحدث كثيرًا وهو يبكي، أحاديث توجع القلب، ظل يتكلم ويتعهد وهو في حضن صديقه إلى أن غالبه النعاس، فنام كطفل صغير فقد والدته بعد تعلُّقه الشديد بها.

ما كان من خالد إلا أنه ظلَّ يسمع وهو يقاوم عبراته الواقفة على أهداب عينيه، وعندما شعر بثقل رفيق دربه، وعلم أنه راح في سُبات عميق، سمح لبعض الدمعات أن تتسرب من عينيه، هو يعلم أنه قسى عليه بكلامه منذ قليل، لكنّه يريد أن يستعيد صديقه، الذي خسره لأجل فتاة ولم تكن أي فتاة، لم تكن عابرة، كانت مدمرة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

❁❁❁

الفصل الثاني
العودة إلى الماضي

حين يتراكم على قلبك غبار الشوق، ويجفّ القلب من الانتظار، عليك أن تمنح نفسك القليل من الهدوء وتعيد ترتيب أنفاسك.

كنتُ غارقًا في التفكيرِ، عندما سمعتُ ليلًا صوتَ أنينٍ خفيفٍ، راحَ يُحطِّمُ قلبي، ويشغلُ بالي، كان هذا الأنينُ يصدرُ عن والدتي التي كانت تتألمُ كثيرًا، وتشكو من ألم مُبرّح في قلبها، لكن ماذا أفعل وأنا لا أملك من النقودِ ما يكفي لأخذها إلى الطّبيبِ، ومِن ثَمَّ شراء الأدويةِ؟ ماذا أفعلُ وأنا أرى والدتي بهذهِ الحال؟ إنّ فؤادي يكاد يطيرُ من بين جوانحي لِشدّة حزني عليها، وأنا أفكّرُ أيّ القرارين أختارُ، هل أتركُ والدتي تتألّمُ وتموتُ ببطءٍ أمامَ عينيّ، وأنا أقاومُ ما يُعرِّضُ وطني للخطرِ؟ أم أنقذُها بتقديم الوطن قُربانًا على مذبحِ شفائِها؟ لا أعلمُ، كل ما أعرفُهُ أنّني لا أستطيعُ تحمُّلَ رؤيةِ والدتي، وهي تتعذّبُ، وبنفسِ الوقتِ لا يُمكِنُني أن أعرِّضَ أمن وسلامة وطني للخطرِ، فهل تُسعِفُني يدُ الأقدارِ بنظرةٍ حنان، فتُنقِذُني من هذا الجحيم؟

إبراهيمُ، شابٌّ في مُقتبلِ العُمرِ، لم يتجاوزَ الثلاثين مِن عمرهِ، طيّبُ القلبِ، رقيقُ المشاعرِ، وحيدٌ لأهلهِ، يعملُ في المُخابراتِ السّرّيةِ، يُعَدّ مِن الطّبقةِ الفقيرةِ، توفي والدهُ وهو في العاشرةِ مِن عمرهِ، فعاشَ يتيمَ الأبِ،

لكنّ والدتَهُ لم تُشعِرهُ بذلكَ، فلقد كافحَت من أجلِهِ، وفعلت الكثيرَ لهُ، ومنذ فترةٍ بدأت رحلة الألمِ عند والدتِهِ.

ومِن عجائبِ القدرِ أنّهُ عندما بدأت والدتهُ تشكو من الآلامِ المُبرِّحةِ، عُرِضَ عليهِ أن يفشي بمعلوماتٍ خطيرةً، تمسُّ أمن واستقرارَ الدولة وتعرضه للخطرِ مُقابلَ الحصولِ على مبلغ ماديٍّ كبيرٍ.

إنّهُ لن يفعلَ هذا أبدا، ولو كان المقابلُ مالَ قارون. لكن ماذا يفعل، ووالدتهُ بأمسِّ الحاجةِ للعِلاجِ. كان مُشوّشَ الذّهنِ، كلّما أرادَ أن يُعرِضَ عن الخِيارِ الذي يُعرِّضُ عن الخيار المقدّم له يسمعُ أنين أُمّه يُناديهِ، يصُكُّ أذنيهِ كأنهُ مقامِعُ من حديدٍ، فيُعودُ تفكيرُهُ مِن جديدٍ إلى ضِرَامِ ذلكَ التّنُّورِ الجهنميِّ؛ لِيرتعَ في براثن الاحتراقِ الداخليِّ، حيثُ الضّلالة والخيانة تنهشان أمنَهُ وسعادتَهُ، يالَهَولِ الصِّرَاعِ العنيفِ الذي نشبَ مخالِبَهُ في جسدِ حُلمهِ الغضِّ الغريرِ، أيتها السّماءُ الحبيبة ماذا أفعلُ؟ يا ربّاهُ، ما العملُ؟ إنّ البطن التي حملتني، تفترسُها وحوشٌ لم تزُرها معاني الرّحمةِ السّاميةِ أبدًا، وفي الغدِ القريبِ جدًّا سترحلُ أيّها القلبُ الحنونُ، يا نبعَ الوفاءِ الخالدِ السرمديِّ إلى أين؟ إلى هناك... إلى ما وراء الأفقِ الذهبيِّ، نعم إلى هناك، ولكن هل سترحلُ وحدكَ؟ فداكَ الشوقُ والتّحنانُ، فداكَ الخافقُ الولهانُ، وقبّلَ طرفكَ الوسنان غرامُ الفُلِّ والرّيحان. وهكذا ظلّت صُورةُ أمّه تُطاردُ أحلامَهُ أيّامًا، إنّهُ لم يعُد يستطيعُ أن يتحمّلَ هذا العذابَ، وهذا الوجعَ الذي عشّعشَ في يقظتِهِ، وفي منامِهِ، فقرّرَ ما يجعلُ والدتهُ ترتاحُ، وانتصرَ أنينُ الأمِّ على هُتافِ الوطنِ، لقد قرّرَ العمل ضِدَ مصلحةِ الوطنِ، كان قرارًا صعبًا يرفضُهُ عقلهُ، لكن ماذا يفعلُ وقد ضجّ صوتُ قلبهِ بأعنفِ النّشيجِ وأعلى الاستغاثاتِ؟ إنّه يشعرُ أنّ والدتهُ ترى فراشهَا شوكًا، وليلهَا نهارًا

ونهارَها ليلًا مُرعِب الأحلامِ، لقد قرّرَ ذلكَ؛ لأنّهُ تذكّرَ، كيفَ كانت أمُّهُ ترعاهُ بعدَ موتِ أبيهِ، وكيفَ سعت في تعليمه.

وصلَ إبراهيمُ إلى المكانِ المُتّفقِ عليه، وكان على وَشك البَوحِ بما لديه مِن أسرارٍ ومعلوماتٍ تُهدِّدُ أمن بلاده بالخطرِ السَّاحقِ، لكنّ عين القدرِ لم تنم، وحدث ما لم يكُن في الحسبانِ، لقد عَرَفتِ الشّرطةُ بالذي قد قرّرهُ، وحاصرَتهُ مِن كلِّ طريقٍ، وأصبحَ المكانُ حولهُ يضيقُ، ولم يَعُد لهُ أيُّ صديقٍ، وجاءَ وقتُ التحقيقِ.

عِندَ وصولِه إلى المحكمة وصَلهُ خبرٌ صُعِق لهُ، وتبلّدتِ المشاعرُ عندهُ، وتفجّرت ينابيعُ الأحزانِ فيهِ، لقد تُوفّيَت والدتهُ بصدمةٍ قلبيّةٍ، وليسَ هُناكَ مَن يدفِنُهَا. ها قد خسِرَ الاثنين معًا، وطنه الأسمى ووالدتهُ المريضة، ولم يَعُد يُفيدُ الكلامُ، ونسألُ اللهَ حُسن الخِتامِ.

حين وضع سامح نقطة لنهاية قصته القصيرة، وراح يُفكّر في وضع عنوان يجسد فيها نهاية الخيانة، كان غارقًا في شروده العميق، لكنه انتبه إلى يد حانية وُضعت على كتفه تهزّه برفق خفيف، علم من صاحبة هذه اليد، دون الالتفات إليها، ومن سواها، تلك التي أحبها لسنوات، وتزوجها بعد صراع عنيف بين أهلها وأهله، فكلا الطرفين كانا مصرّين على رأيهم بالرفض الصارم وعدم تزويجهما، والتفريق بينهما، ليس لأن كل عائلة من بلد، ولكن بسبب اختلاف الديانة والمذاهب، ولكنهما لم يستسلما، ظلا يعاندان ويصرّان على رأيهما، حتى حنَّ القدرُ عليهما وجمع بينهما بحلال الله.. تذكر سامح هذه التفاصيل الصغيرة وهو يستمع إلى زوجته تقول:

— لم تنتهِ من الكتابة بعد؟ لقد مضى الليل ثلثه.. وأنت ما تزال منكبًّا على أوراقك التي خدشت حياءها بحبرك المتمرد.

أطلق ضحكته وهو يقول:

- يا لسعادتي تتحدثين كالكُتّب، متى تعلمتِ هذا يا فاتنتي؟
- ألم تسمع بالمثل الذي يقول: "من عاشر قومًا أربعين يومًا صار منهم"؟
- نعم سمعت ذلك، لهذا أريد أن تعطيني رأيك بما كتبته، لعلّك تساعدينني بوضع عنوان مناسب لهذه القصة القصيرة التي كتبتها.

تناولتها بخفة وهي تشعر بالسعادة، وراحت تلتهم الكلمات بمتعة كبيرة، وبعد فترة من الصمت الذي ظلَّ بينهما، أطلقت صرختها وكأنها وجدت ما وجد أرخميدس:

- وجدتها، وجدتها، "القضية الخاسرة"، ما رأيك بهذا الاسم؟

يبتسم بإعجاب لها:

- ما أجملك شكلًا ومضمونًا! نعم رأيك في مكانه، فلنسمها "القضية الخاسرة".

تردّ له الابتسامة بحب كبير وشغف عاشقة، حاربت الجميع لأجله، ولا زالت غير نادمة على ذلك؛ لأنها وجدت كلّ ما كانت تفتقده فيه، وجدت فيه الأب الذي فقدته في صغرها، والأم التي تخلّت عنها وتزوجت عشيقها، والإخوة الذين لم يكونوا إلا مجموعة من القُساة، تهمهم أمورهم فقط، والصداقة التي لم تجدها، والحبيب الذي أخذ بيديها من النار إلى جنة العشق، وأخيرًا الزوج الذي صانها وسترها، وحفظ عرضها، ورافقها إلى هذا الوقت، تلتفت إليه وهي تمسك بكفّه:

- أتعلم أنّي أسعد مخلوقة في هذه الأرض، وأكثر الناس حظًّا في هذه الدنيا؟

- لماذا يا ميرال؟

- لأنني القدر جمعني بك، وخطفتك من بين جميع نساء العالم، لأنني تزوجت الكاتب الكبير، وائل شرف.. يا له من اسم عظيم، ويا لحظي العظيم الذي جعلني ألتقي بك.

- بل أنا المحظوظ يا جميلتي، لأنه كان النصيب الأكبر في هذه الحياة، لأن السماء ابتسمت لي وأرسلت أجمل ملائكتها لتكون زوجة وحبيبة لي، أتذكرين كم عانينا وكم كافحنا حتى أصبحت بهذا الوسط الكبير، لقد كنت قبل هذا مجرد فقير لا يملك شيئًا سوى كلماته التي ما كان يتجرأ أن يراها أحد لخوفه الكبير أن تكون مجرد حبر يتناثر فوق البياض، ولا يعطيها أي مكانة، لكن الله في ليلة استجاب لي ووهبني أجمل هدية في هذه الدنيا، وأصبحت الغني فيكِ.

- ما زال كلامك كعادته يمتلئ حنانًا وهيامًا، لا أعلم يا سامح ما الأمر الذي فعلته في حياتي ليكافئني الله بك ويهبني إياك، دُمت لي نعمة لا تزول.

- بل أنتِ النعمة يا ميرال، فلولاكِ ما أبصرَت كلماتي النور، ولا أصبحت ذاك الروائي الكبير، أنتِ التي شجعتني على أن أتعاقد مع دار النشر، التي من أول قصة قصيرة أرسلتها لهم جاءني الرد بالموافقة منهم، مُدينٌ لك بالكثير يا جميلتي، لا أعلم كيف أشكر الله أولًا ثم أشكرك على كل ما أنا فيه بفضل دعمك الدائم لي.

سادت لحظات من الصمت بينهما، مما جعل سامح يرفع رأسه إليها مستغربًا عدم ردها!! فإذا به يراها مقطبة الجبين، ترسم على وجهها نظرة زعل.

– لمَ هكذا تعابير وجهك؟ ماذا حدث؟

– لقد تجاوزنا ثلاث سنوات سويًّا، وما زلت تعتذر وتتشكر! ماذا قلت لك من قبل؟

يأتي إليها ويحتضنها من الخلف ضاحكًا:

– في قاموس الحب والصداقة لا يوجد كلمتان (الأسف، الشكر).

– إذَن ما زلت تتذكر ذلك، ومع هذا تعود وتقول شكرًا!

يقبِّل خدها بكمية من الحب إذا توزع على العالم يكفي لإنهاء حروبه.

– سأحاول أن أتخلص من هاتين الكلمتين، أعدك أنني سأتخلص منهما، الأهم من ذلك ألا أرى إلا جمال ضحكتك، أنتِ تعلمين أنها تفتنني، خاصة عند ظهور تلك الغمازة على طرفك الأيسر، تكاد تقتلني يومًا ما من شدة جمالها.

تلتفت إليه بسرعة وهي غاضبة وواضعة كف يدها على فمه:

– هلّا تكفّ عن فتح سيرة الموت! منذ أيام وأنت تفتأ تذكره، أبعده الله عنّا، ولا أبعدك الله عنّي.

– حسنًا حسنًا، ولكن لا تغضبي هكذا، فلتبتسمي من جديد؛ لتبتسم لي الحياة من جديد.

تنظر إليه بنظرة يكاد يقسم الحب إنها أعلى مرحلة في كتبه:

– إلى هذا الحد تعشقني؟

- عشق! يا لها من كلمة بسيطة لا تتجاوز ثلاثة حروف، كيف لها أن تصف ما في داخلي من مشاعر لكِ.

استفاقت من ذكرياتها على صوت المضيفة وهي تقول لها:

- الرجاء ربط الأحزمة سنصل بعد قليل.

❀❀❀

لم يكن حزينًا مثلما يُقال، ولا بائسًا مثلما تظهر ملامح وجهه، لم يكن كئيبًا حتى ولو أخفى ابتسامته، لقد كان يعيش صراعًا داخليًّا، كانت خيباته أكبر من أن تُشرح أو توصف ببضع كلمات.

في بقعة أخرى من الجانب الآخر من العالم الذي لا يعترف فيه أحد، في المكان الأكثر وحشية والأكثر تعبًا وهمومًا، في المكان الذي تتلاصق فيه بيوت من القماش المتهالك كأصحابه الذي يعيشون في داخله، في المكان الذي دُفنت فيه أحلام الصغار قبل الكبار، قتلت فيه قلوب كثيرة، وعاش فيه المرض والوباء، كانت هي هناك.

— إلى أين يا ابنتي؟

— إلى مكان أجمل من هذا، إلى العالم والحياة، إلى الأكسجين والهواء.

— أي مكان هذا؟ وأي عالم؟ ألا يوجد هنا هواء وحياة؟
تطلق ضحكة متهكمة وساخرة:

— إذَن هذه هي الحياة؟ وهذا الهواء الخانق هو الأكسجين؟ وهذه الخيم المتجاورة تعتبرينها بيوتًا؟ أي حياة هذه؟ وأي عيشة تتكلمين عنها!

— هكذا أراد الله يا رتيل، ولا اعتراض على حكمه!

— لا يا أمي، الله لا يريدنا أن نشقى، البشر الذين أصبحت قلوبهم أقسى من الحجر هم من فعلوا ذلك، الله يا أمي ما خلق الإنسان ليجعله تعيسًا، الله كريم ورحيم يا أمي، لا تنسبوا كل قذارة وأمر فاحش لله، حاشا أن يكون الله كاسرًا للقلوب، مهدّمًا للبيوت، إنما

هي أفعال خلق الله، الخلق الذين ما أخذوا عبرة وموعظة من الأمم التي خلت.

— ولكن يا ابنتي ما باليد حيلة، أنا لا أفقه من كلامك الكثير، سأل أبي مرة أحد الشيوخ وقد أعطاه فتوة بتحريم تدريس البنات، لأن ذلك من الكبائر، لكن أنتِ درستِ، وإن كان بضع سنوات فقط، ورأيتِ من الدنيا الكثير، لا تجعلي قلبي يتألم أكثر، لقد أتيت بكِ إلى هنا لنتخلص من كلام الناس، لا أريدك أن تسمعي كلمة تجرحك.

— تجرحني؟؟ وهل بقيَ في هذا القلب مكان للجرح، أو الأصح هل بقي قلب؟ أنا بقايا جسدٌ يا أمي، وأي دراسة هذه؟ أتعتبرين وصولي إلى صف التاسع دراسة؟ لا أستطيع لومك، إنّما ألوم المجتمع الذي جعلني في هذا الوضع، الذي حكم عليّ أن أكون...

تضع فرح يدها على فم رتيل وتمنعها من الكلام:

— لا تكملي أرجوكِ، فإذا سمع أحد هذا الكلام، سيكون علينا الرحيل من جديد.

— إذَن لا تمنعيني من الخروج من هذا المكان والذهاب لحياة أفضل.

أجهشت أمها ببكاء يرّق له قلب العدو قبل الصديق:

— أنتِ لا تعلمين يا رتيل ما ستواجهين من مشاكل وصعوبات، فالعالم الخارجي ليس كما تتصورين، الحياة التي ترسمينها في مخيلتك ليست إلا أحلام واهمٍ، هناك لا يوجد إلا الذئاب البشرية، وما أنتِ إلا نعجة صغيرة، لديكِ جميع المواصفات التي تجعل أعين البشر تلتفت إليكِ بقصدٍ أو دون قصد، سينهشون لحمكِ ويرمون

عظامك لكلابهم، ستتألمين كثيرًا، وستعانين من قسوة الحياة وظلمها.

— لا يا أمي، أنتِ لا تعلمين كم من القوة أملك، ولا كم من الصبر أحمل، سأقاتل لأجل نفسي، لأجل أن أعيد فرحتي المسروقة، وسأكون الأقوى، ثم سأعود إليكِ، لتعلمين أنني أخذت بثأري من الجميع، لقد كسرت قلب أحدهم، ولكن ما هذه إلا البداية، كان يجب أن يكون الكسر أكبر.

— لا يا ابنتي أنتِ لم تكسري قلبه، لقد انسحبتِ من حياته فقد لأنك بدأتِ تحبينه، لقد خفتِ أن تنسي جميع خططك وأن تكوني أسيرة عشقه، لا تحاولي النكران، قلبك ينتفض كل ما ذُكر اسمه، أرى كيف تتغير ملامحك وتصبحين في عالم أخرى، أنتِ ابنتي وأعلم ما في قلبك وفكرك لمجرد أن أسمع أنفاسك، أو أرى نظرة عينيكِ، الأم لديها الحاسة السابعة، حاسة الأمومة لا يمكن أن تكذب أبدًا.

- كفى كفى، لا أريد أن أسمع شيئًا، لقد أخذت قراري ولا رجعة فيه، لا تحاولي منعي، سأعود، أعدك بهذا، سأعود حالما يحين الوقت وحين أشعر أنني اكتفيت وحين أشعر أن قلبي عادت له نبضاته من جديد.

❁❁❁

"لا أمقت شيئًا في هذه الدنيا بقدر ما أمقت فكرة البيوت المستأجرة، بيوتنا هي أوطاننا الصغيرة، فكيف تكون أوطاننا مستأجرة؟! كيف نطرح أنفاسنا وضحكاتنا ودموعنا ولحظات حياتنا كلها في مكان يجب أن ندفع إيجاره في نهاية الشهر وإلا طُرِدنا منه؟ كيف نكون بشرًا على هذه الأرض ونحن لا نملك ما تملكه النملة والنحلة ودودة الأرض؟ تقول آسية زوجة فرعون، رب ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة، حتى في جنة الخلد، نحتاج كبشر إلى أربعة جدران تؤوينا، وسقف يظللنا، وحيز نسميه البيت، الوطن!!".

ديك الجن

إذَن ماذا الآن؟ ماذا يجب أن أفعل، البيت كبير جدًّا وأنا لا أستطيع بالتأكيد البقاء هنا، ماذا عساي أن أفعل؟ وكيف سأقنع والدتي باستئجار بيت أصغر وبيع هذا البيت!! البيت الذي في كل زاوية به لي ذكريات وقصص، على هذه الدرجات كانت أول وقعة لي، وهناك في تلك الغرفة أولى خطواتي حسب كلام أمي، وعلى هذه الطاولة كنا نجتمع ونتناول الطعام، الكثير من الذكريات لا يسعها كتاب، وستجف أقلام إذا أردت كتاباتها، لكن لا أستطيع البقاء هنا بمفردي، من الصعب أن أعيش مع هذا الكمِّ الهائل من الذكريات، فتلك الغرفة المغلقة مات فيها والدي، والغرفة المجاورة توفيت جدتي من طرف أبي بعد صراع طويل مع المرض، وهنا ودعت أمي. لا يمكنني أن أبقى هنا؛ فأشباح الموت ما زالت مركونة في أنحاء المنزل، سأحاول الاتصال مع أمي لعل الخطوط تعود من جديد، وأستطيع التحدث إليها.

وكأن القدر استجاب لنداءاتي، الحمد لله ها هو يرّن، لقد طال الرنين!! لماذا لا تجيب؟؟ يا إلهي كيف نسيت؟ بالتأكيد نائمة الآن، سأغلق قبل أن تستيقظ.

– ألو.. جولي، ابنتي ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟

أتاها صوت أمها من الطرف الآخر متعبًا، مثقلًا بالخوف والقلق عليها، تجيبها بصوت تحاول قدر الإمكان أن يكون مطمئنًا:

– أمــــــي! الحمد لله على سلامتك، هل كانت الرحلة متعبة؟ هل تأخذين دواءك بموعده؟ الطقس ليس باردًا أليس كذلك؟

تقاطعها أمها بضحكة ممزوجة بالفرح والحنين:

– واحدة واحدة يا ابنتي لقد تأكدت أنك بخير دون أن تقولي لي؛ وذلك من أسئلتك الكثيرة التي لا تنتهي، سأجيبك عنها ولكن أولًا أجيبيني، كيف حالك؟ وكيف تسير الأمور بعد سفري؟ أعلم أنكِ تشعرين بالوحشة والفقد، ولكن كان من الضروري العودة فأنتِ تعلمين جدتك لا أحد لديها الآن سواي، ولا أحد سيراعها مثلي.

– أنا بخير يا أمي، والأمور جيدة إلى الآن والحمد لله كل شيء يسير على ما أريد، أخبريني عن أحوالك وعن جدتي وجميع الأمور التي لديكِ.

ماذا سأحدثك يا ابنتي؟ وعن ماذا؟ أأحدثك عن لحظة دخولي إلى المنزل، عن الذكريات التي كانت موجودة أيام والدك، أم عن الرائحة التي لا تزال عالقة في قميص والدك المفضل؟ القميص الذي كان يرتديه في ليلة تتويج حبنا، والزواج بعد العناء الذي واجهنه، أم أحدثك عن

الدموع التي سكبتها عيوني على وسادته، أم على الكره الذي وجدته في أعين أخوالك.

— أمي، إلى أين ذهبتِ؟ يا ألله هل انقطع الاتصال مجددًا؟

كان صوت جولي كفيل أن يجعلها تعود إلى الواقع من جديد:

— لا لا يا ابنتي إنني ها هنا، ولكن كنت أرى جدتك إذا كانت تحتاج شيئًا.

— إذَن كيف أصبحت جدتي؟ هل من تحسُّن ملحوظ؟

— لا تقلقي يا ابنتي، الأمور على ما يرام، نحمد الله بالسراء والضراء، لا تشغلي بالك بنا، أريدكِ أن تنتبهي لنفسك، وأن تكوني قوية بما يكفي لمواجهة حياتك والصعوبات الموجودة في البلد، كوني ابنة الكاتب سامح شرف، ولا تسمحي لأحد أن يشوِّه هذا الاسم.

— حسنًا يا أمي حسنًا، لكن هناك أمرٌ ما أريد محادثتك بشأنه وأعلم ما رأيك به.

— ماذا هناك يا فتاتي؟

— أنتِ تعلمين يا أمي أن المنزل كبير وخاصة بعد سفرك، وأنه موحش وكئيب بدون أشخاص فيه، كنت أفكر...

لحظات صمت كانت جولي تسترد أنفاسها المتوترة، وتحاول أن تجد تعابير مناسبة لتُلقي هذا الخبر على والدتها، فهي تعلم ماذا يعني هذا البيت لها، وكم يجمع في طياته من الصور المحفوظة في الذاكرة، لكن كان يجب عليها أن تستجمع قوتها وتخبرها، فلا سبيل لديها ولا خيار غير ذلك، لقد تعودت أن تأخذ رأيها بأي أمر ستقوم به.

— جولي إلى أين ذهبتِ؟ قولي لي ماذا تفكرين؟

- أمي.. أعرف.. أعني..
- ما بكِ يا صغيرتي؟ لمَ تتلعثمين؟ ولمَ أنتِ مترددة؟ هيا لا تقلقي وأخبريني، لا تجعلي فكري ينشغل عليكِ.
- أمي، أريد أن أبيع هذا المنزل.

هذه المرة كان للصمت الآمر الناهي، وكأن هذه الجملة كانت كفيلة بأن تلجمهما كلتاهما، وتجبرهما على السكوت، بيع البيت يعني بيع الذكريات، يعني نسيان الخفقات والنبضات الأولى، يعني أن تمحى الذاكرة، ألا تبقى هناك صور من الماضي.

- جولي هل أنتِ بحاجة إلى مال؟ تعلمين أنه باستطاعتي تحويل المبلغ الذي تريده، وأنا أساسًا تركت لكِ مبلغًا كبيرًا بالمصرف، لماذا تريدين بيعه؟
- لا لا يا أمي، ليس لأجل المال، إنما أنني أشعر أنه كبير عليّ كثيرًا، ولا أستطيع البقاء به، خاصة أنه يحمل لي ذكريات مؤلمة.
- لكن يا ابنتي إنه منزل العائلة، كيف لكِ أن تفكري بذلك وكيف ستستطيعين محو تاريخ عائلة جدك كلها وتبيعين هذا المنزل!
- يا أمي، أنتِ تعلمين أن جدتي سجلت هذا المنزل باسم والدي، وبدوره سجله باسمي، هذا يعني أنه يحق لي التصرف فيه، لكن أريد رأيك الحكيم، فأنا لا أعرف إذا كان هذا التصرف صحيحًا.
- لا يا جولي، ليس بتصرف صحيح، إن كان ولا بد من أن تخرجي من المنزل، فالأفضل أن تسكني به أحدًا، وتأخذين آجارًا عليه.
- لكن لست بحاجة إلى مال، لمَ الآجار؟

- لكي يبقى هذا المنزل، لنحتفظ بالذكريات الموجودة فيه، لا تعلمين ماذا يخبئ لك القدر، قد تتزوجين مستقبلًا، وتنجبين قبيلة بأكملها، وتعودين إلى المنزل محاطة بجميع أولادك.
- أمي أرجوكِ، أنتِ تعلمين رأيي بهذا الموضوع، لا أريد الزواج، ولا أريد أن أدخل بأي علاقة مع رجل.
- لكن يا جولي...
- لا أريد أن أُفكر بهذا الأمر وتعلمين رأيي بهذا الموضوع.
- أعلم يا صغيرتي أعلم، لكن أريدك منك أن تعيدي التفكير بهذا الأمر من جديد.
- سأغلق يا أمي، بدأ الصوت ينقطع، ولم أعد أسمعك بوضوح، انتبهي لنفسك، وسلمي لي على جدتي.
- وأنتِ أيضًا يا قلبي، أستودعك الله.

أغلقت الخط وهي تعلم أن أمها لم تُصدِّق كذبتها، وأنها كانت تسمع بوضوح، لكن قدرت وضعها، ولم ترِد أن تزيد عليها، لكن ما لا تعلمه أمها أنها ما زالت إلى الآن تصارع حزنها، حزنها الكبير، وألمها الأكبر، فما حدث معها من الصعب أن تتجاوزه ببساطة وسهولة.

❀❀❀

لله در قلوبنا، تتعلق بالمستحيل، تضعنا في منتصف الطريق، لا نستطيع التقدُّم ولا نستطيع الرجوع.

- حبيبتي إلى متى ستظلين تحبينني؟
- إلى أن نلتقي في الجنة، وأتوج بك هناك زوجًا، فتصبح زوجي في الدنيا والآخرة.
- لا أعلم ماذا فعلت في دنيتي لأستحق هذه الهدية الإلهية، أنتِ أجمل عطايا الله تعالى لي.

نظرت إليه بابتسامة غامضة، قائلة:

- أتمنى أن أظل هكذا طوال حياتك.
- ستظلين كذلك للأبد، ستظلين الحبيبة الأولى والأخيرة، وستظلين هِبة ربي العظمى في حياتي.
- إذَن هل لي أن أطلب منك شيئًا وتعدني أن تفعله؟

بأجمل ابتسامة حب يجيبها:

- أنتِ لا طلبات لكِ، أنتِ تأمرين وهذا الذي في يسار صدري ينفِّذ.
- عدني مهما حصل ألا تتوقف عن أحلامك وأن تُكمل دراستك لتصبح جراحًا عظيمًا في العالم.
- أعدك أنني سأكون كذلك، كيف لا أكون وأنتِ إلى جانبي؟

بنظرات شاردة تتكلم:

- حتى إن لم أكن يومًا ما إلى جانبك، أريدك أن تكمل لنحقق حلمنا المشترك.

- لا تتفوهي بمثل هذه الحماقات، لا تكسريني بغيابك، تعلمين يا غاليتي أنني أستطيع النجاح بمادة الكيمياء السريرية في الجامعة، ولا أستطيع الاستمرار بدونك.

- لقد قلت لي: إنّ كلامي أوامر، وهذا طلبي الوحيد منك، فعدني بذلك.

وكأنه يريد أن يسايرها لتنهي الحديث: حسنًا حسنًا، أعدك يا سيدتي. ينهي جملته بضحكة قصيرة تزيد جمال الكون جمالًا.

- مرحبًا، هل أنت الطالب الجديد الذي وصلت أخباره قبل قدومه؟

يستيقظ من ذكرياته المتمردة عليه، على صوت أنثوي، بنظرة خاطفة رأى فتاة محجبة ولها هالة نور تزينها، وتزيد ملامحها الخالية من المساحيق التجميلية جمالًا.

- أما عن الشطر الأول من سؤالك، فنعم أنا هو الطالب الجديد، أما عن أخباري فلا أعلم ما إذا كنت المقصود أو لا.

بنظرة اندمج فيها الحياء والجراءة، تجيب:

- لقد سمعنا أنك تحتل الترتيب الثاني في الجامعة على مستوى الدولة.

- نعم.. لكل مجتهد نصيب.

- زين، اسمي زين.

بلهجة تدل على إنهاء الحديث:

- وأنا فارس، تشرفت بلقائك.

جمع أوراقه وغادر القاعة وهو يحدث نفسه: لقد قطعت عليّ تفكيري، يا لها من فضولية.

❀❀❀

معزوفتي الأجمل، قصيدتي الأطول، نغمتي المفضلة،
لؤلؤتي المدفونة، جميلة الجميلات، لها عينان يسكن البحرُ
فيهما، معشوقتي الأولى، كل عام وحبنا السرمدي بخير.
عاشقك الأبدي

أنزلت الورقة الصغيرة بحجمها، والكبيرة بكلامها، وسمحت لأفكارها أن تبحر إلى ذلك اليوم، حين كان ذكرى زواجهما الثالث، لقد كانت تُجهِّز لحفلة صغيرة ومنهمكة بالتحضيرات، حين راح جرس المنزل يصدح رنيناً، تفاجأت كثيرًا بالورود الحمراء مع عامل التوصيل، لم تكن المرة الأولى التي يصلها الورود منه، لكنه عادة في مثل هذه المناسبة يقبِّلها قبل خروجه ويقدم لها هدية، وهو يعبر عن حبه له، ويجدد عهده بالحب لها إلى ما بعد الموت، أما اليوم فقد خرج حتى دون أن يتكلم بكلمة واحدة، تركها نائمة وخرج، لقد اعتقدت أنه نسي ذكرى زواجهما، لكنه ما زال يفاجئها كعادته، تسلمت الورود وقرأت الورقة وهي تكاد تطير من فرحها، كلماته رقيقة مثل قلبه، قوية مثل مواقفه، التهمت الكلمات بسرعة، وراحت تضرب أرقامًا على الهاتف، لم تكد تنتهي الرنة الأولى حتى جاء صوته على الطرف الآخر، وهو يقول:

- جميلتي هل تظنين أنه من الممكن نسيان هذا التاريخ المميز؟

أجابته وهي تحاول أن تتكلم بجدية:

- لكنك ذهبت اليوم صباحًا دون أن تتكلم أو توقظني.

كان يعلم أنها تحاول أن تكتم فرحتها، لكنه أراد أن يجعلها ملكة في هذا اليوم، فقال:

- لقد عشقتِ شرقيًّا يا فتاتي، ولن تجدي في هذه الدنيا من هو أكثر رومانسية من الشرقي، وإن حاول إخفاء ذلك، والشرقي يا فتنة القلب إذا عشقَ هام على وجهه، لذلك فلتكوني على استعداد دائم للمفاجآت.

لم تستطع أن تخفي فرحتها أكثر، وهي تقول:

- أعشقك كثيرًا يا وائل.

- وأنا أحيا بكِ يا ميرال.

استفاقت من ذكرياتها على دمعاتها وهي تنزل على الكتاب الذي أهداها إياه في ذلك اليوم حين عاد من مكتبه، حملته في يدها وهي تقرأ العنوان (قواعد العشق الأربعون) للكاتبة الكبيرة أليف شافاك، كانت عربيتها في ذلك ضعيفة جدًّا، حزنت كثيرًا وقتها لأنها لن تستطيع قرأته، لكنها تفاجأت كثيرًا حين فتحت الكتاب ووجدته مترجمًا إلى الفرنسية، تتذكر جيدًا حين عاد وأهداها إياه مع مجموعة هدايا أخرى، وحين أخبرها كيف تعاقد مع كاتب فرنسي لأجل أن يُترجم له عدة كتب إلى الفرنسية، لقد كان الكتاب باللغتين العربية والفرنسية، لأجل أن تتعلم العربية بإتقان، وتستمتع بالقراءة وتفهم الكتاب جعله لغتين.

أعادت الورقة وجلست تتصفح الكتاب وكأنها لأول مرة تُمسكه، أمعنت النظر في جملة لم تكن منتبهة إليها من قبل "الناي.. وصوته.. ليس سوى تنهيدة عاشق يتحسّر على محبوبه". تنهدت بحسرة ذاك الناي وهي تتذكر ماذا تحملت لأجل معشوقها الأول والأخير، وكيف استطاعت أن تحتفظ بسرهما الكبير إلى هذا الوقت، ومتعهدة له بالوقت الذي بقي من عمرها أن تفي بوعدها الذي قطعته له، وكأن هذه الجملة أعادتها إلى الواقع وتذكرت أنه يجب عليها أن تعيد البحث من جديد..

أغلقت الكتاب وراحت تدور في أرجاء الغرفة، كيف ستجدها؟ وأين؟ وهي لا تملك إلا ورقة فيها رقم وجملة واحدة "يجب أن يأتي يومًا ما وتجدي أهل الفتاة". لم تعد تتذكر أين وضعت الورقة، راحت تبحث بصندوق الذكريات، وأخيرًا وجدتها بين الأوراق، أمسكت هاتفها وراحت تضغط الأرقام بيد ترتعش، وقلب يرتجف، رن الهاتف عدة مرات.

❁❁❁

الفصل الثالث
غربة روح

وفي القلب أحاديث محزنة لا البوح يعالجها ولا الصمت
يدفنها، أمّا العقل فيا حرّ قلباه ما فعلت به الأيام وقُتلت
به الأحلام.

إذَن ماذا سأفعل الآن وقد خرجت من ذاك المخيم اللعين، إلى أين سأذهب الآن، المدينة مخيفة جدًّا وكبيرة أيضًا، لقد جنيت على نفسي بهذا القرار، لكن يجب عليّ الاستمرار بذلك، لا مجال للتراجع، يجب أن أستمر بانتقامي.

- هل تريدين الذهاب إلى مكان؟

تلفتت بطريقة تهجمية وبنظرة مشمئزة أجابت:

- اذهب بطريقك فلست بحاجة لذكر.

بابتسامة استغراب:

- لقد أردت فقط المساعدة!

باندفاعية كبيرة:

- قلت لك أكمل طريقك.

بنظرة تعجُّب يُحرِّك سيارته ويكمل طريقه دون أي كلمة، بعد أن تحركت السيارة بمسافة قصيرة تداركت الوضع الذي أنا فيه، لماذا لم

أصعد معه؟ كان صيدًا سهلًا يا لي من حمقاء، كان بالإمكان أن أفعل معه مثلما خططت، لا بأس سأنتظر هنا لعلّ أحدًا ما يعرض خدماته وأستطيع أن أحقق مبتغاي.

تمضي الساعات ويهجم الليل بردائه الأسود القاتم ولا أحد يأتي.

ماذا سأفعل ها قد اقترب منتصف الليل، ولا أحد التفت إلي. ماذا سأفعل وعيون الذئاب تتربص بي من كل جانب، يا إلهي يكاد البرد يقتلع جلدي، سأمشي إلى تلك البناية لعلي أجد فيها مأوى للصباح، وبعد ذلك يحدث ما يحدث.

الحمد لله لا أبواب لها وإلا كان مصيري الشارع. انكمش جسدي على بعضه والتفّ. ومن شدة تعبي لم أستيقظ إلا على يد تهزني بهدوء، قبل أن أفتح عيني غزا رأسي صوت يقول:

— يبدو أن لا بيت لها.

اعتقدت بالبداية أنه رجل يحدث نفسه، لكن حين هممت أن أفتح عيني.. سمعت صوتًا أنثويًّا يقول:

— هل تشحذ وتبيت في الأبنية المتهدمة؟؟

وقبل أن يجيبها الصوت الآخر نظرت لهم بعين تكاد تُغلق من شدة التعب والنعس:

— أنا لا أشحذ لكن كان لي بعض الأقارب هنا وحين وصولي تمت سرقتي.

لم يكن مظهري سيئًا، لكن أيضًا ليس بجيد، المهم لدي أن يقتنعا بكلامي وإلا وقعت في ورطة كبيرة.

قطع عليّ تفكيري صوت الرجل، وهو يقول:

- ما رأيك أن تدخلي لمنزلنا وتكلمي أقاربك لعلهم يأتون إليك.

وتكلم عنه الفتاة التي معه وهي ترفع يديها بأكياس تخرج منها رائحة جعلت بطني يصدر صوتًا من شدة الجوع:

- نعم، وتفطرين معنا.

قطعت جملتها بابتسامة جميلة.

لم يكن للرفض من سبيل وأنا منذ يومين لم يدخل في جوفي غير الماء.

نظرت بخجل وأنا أنهض من مكاني، قائلة:

- لا أريد أن أثقل عليكما، سأجري اتصالًا وأغادر.

ساعدتني الفتاة على النهوض وصعدنا إلى المنزل معًا.

- إذَن ما اسمك؟

سألتني الفتاة.

- لانا.

أجبتها بسرعة، لا أعلم لمَ كذبت عليها، لكن يجب ألا يعرف أحد اسمي.

- يا له من اسم مميز وجميل! وأنا راما، وهذا زوجي.

- تشرفت بكما.

- ملامحك ليست بعربية، ولكن تتكلمين العربية بطلاقة!

أطلقت ضحكة قصيرة أخفي فيها ألمي، مجيبة:

- لقد سمعتُ هذه الجملة من كثيرين.

- إذَن عربية أنت؟

تساءلت راما.

– نعم إنني كذلك.

أجبتها باختصار بمحاولة مني لإنهاء الحديث. ذهبت راما إلى المطبخ لتعدّ بعض الأمور، في حين أعطاني خالد الهاتف حتى أُجري اتصالاتي.

رُحت أضع أرقامًا عشوائية محاولة مني لإخفاء حقيقة أمري، ثم وضعت السماعة في مكانها، وقلت بصوت مسموع:

– كأنهم خارج المنزل لا أحد يجيب.

– دعي الأمر بعد الطعام، وعاودي الاتصال بهم في وقت آخر.

قالت راما وهي تضع الفطائر على الطاولة، وغابت عن نظري قليلًا.

ماذا سأفعل في هذه الورطة؟ وكيف سأخرج دون أن ينتبهوا إلى أمري؟ قطع تفكيري صوت راما وهي تضع أكواب الشاي على الطاولة، وهي تقول:

– هيا نفطر.

من شدة جوعي لم أنتبه إلى نفسي، أكلت كثيرًا، ثم ذهبت إلى الهاتف باستحياء شديد، وضربت أرقامًا عشوائية أخرى، ولحسن حظي لم يجِب أحد.

– نعم أنا أصبحت في المدينة، هل تأتون إليّ بسرعة؟ نعم سأنتظركم في الشارع العام عند الإشارة.

أغلقت السماعة وأنا أدعو أن تكون كذبتي قد مضت على خير، لم أكن أعلم إلى أين سأذهب، لكن كان يجب عليّ المغادرة؛ لذلك ادعيت أنني أكلم أحدًا ما. بنظرة دافئة قالت راما:

- هل ستذهبين الآن إذَن؟
- نعم، يجب عليّ الذّهاب، فلقد وعدتهم بعد قليل.
- أشعر وكأنّني أعرفك منذ زمن، هلا تبادلنا الأرقام لنتقابل بين فترة وفترة؟
- ما هذه الورطة التي وقعت فيها، لا رقم ولا هاتف لدي، فما الحل؟

أعطيتها أرقامًا وهميّة وأنا أحاول ألّا أظهر على وجهي أيّ توتّر أو ارتباك، وبعد ما تبادلنا الأرقام، وخرجت مسرعةً وأنا أقول كلمات الشكر باستحياء، لم أستطع أن أظلّ أكثر من ذلك خوفًا من المشاكل، ذهبت مسرعة بدون عنوان ولا وجهة معينة، فقط أحاول أن أبتعد، لا أعلم لماذا كانت نظرات زوجها إليّ غريبة، بدا وكأنه يعرفني، كان لا بدّ من خروجي بسرعة.

في ذات الوقت كان زوج راما ينظر من النافذة، وهو يقول:

- ألم تقل إنّها ستنتظرهم عند الإشارة؟

أجابته راما وهي منهمكة بتنظيف المطبخ:

- نعم أتذكر هكذا تكلمت.
- لكنّها لم تنتظر أحدًا، لقد ذهبت في الطريق المعاكس للإشارة.
- حقًّا؟ إذَن ما الذي دعاها إلى الكذب؟

– لا أعلم، لكنني أعتقد أنني رأيتها ذات مرة، لم تعد ذاكرتي تسعفني.

بضحكة تجيبه:

– هل تقابل النساء بدون علمي؟

التفت إليها وهو يغمز بعينه مبتسمًا:

– هل تغارين عليّ؟

– وكيف لا أغار على من ملك الفؤاد وتملّك العقل؟

بابتسامة حب:

– من لديه امرأة مثلك يجب أن تغار النساء منها.

تبسمت راما بخجل، بينما خالد أبحر في خياله، إنّه متأكّد لقد رآها قبل الآن، لكنّه لا يتذكر أين؟ نظرتها الحزينة تذكّره بشخص ما، من هذه يا ترى؟ ولماذا كذبت علينا؟ ولماذا كانت تنام هنا؟

أمّا الأمر عند رتيل فقد جلست على الرّصيف بعد أن نال منها التعب ما نال، لم تعلم إلى أين ستذهب، منذ خمس ساعات وهي تسير، ترتاح لبعض الوقت، ثمّ تعاود السير، تحمل على ظهرها حقيبة صغيرة تجمع فيها بعض الملابس، وتحمل في قلبها حقيبة أخرى أكبر حجمًا بكثير، تجمع فيها قصصها المؤلمة، كانت ترى النظرات منصبّة عليها من كلّ اتجاه، لم تُعرهم أيّ انتباه، لقد تعودّت على ذلك منذ صغرها، فشكلها ملفت للانتباه دون أن تضع أي إضافات تجميليّة، لا تعلم ممن ورثت هذه الملامح، فأمّها سمراء بعينين بنيتين، وليست بذاك الطول، جذابة رغم سمارها وملامحها توحي بالطيبة والطمأنينة، أما رتيل فكانت شديدة البياض، وعيناها كأنهن أوراق زيتون، ولها قامة ممشوقة،

وخصر نُحت بشكل يدلّ على قدرة الخالق، وشعرها لم يجعل قصره يقلّل من جمال لونه، فقد سرق من الشّمس لونها ولمعتها، لم يخفِ الفقر جمالها، بل زادت لمعة الحزن جمال عينيها الواسعتين.

تساءلت في نفسها: ماذا الآن! هذا ثالث يوم لها منذ خروجها من ذلك المخيم اللعين. توقفت سيارة أمامها، لم تشأ أن ترفع عينيها عن موضع قدميها، لكن صوتًا ساخرًا خرج من السيارة، يقول:

— ما زلتِ تجولين الشوارع؟ ليس لديك منزل تقيمين فيه أو أب يلتفت إليكِ؟

كانت تهمُّ أن تكمل طريقها، لكن كلمة أب أوقفتها، جعلتها تتسمّر في مكانها. ظلّت كلمة أب تُعزف في رأسها كنغمةٍ، لكنّها ليست كأيّ نغمة، كأنّها ناي حزين يبكي فراقه على تلك الشجرة التي قُطع من جذورها، أب.. أب.. أب.. كلمة لا تتجاوز الحرفين، كلمة خفيفة في نطقها، ثقيلة في معناها، لم تستطع أن تمضي دون أن تقول ما كان يجول في خاطرها منذ صغرها:

— يمكن لجميع الذكور أن يكونوا آباءً، لكن لا يمكن أن يشعروا جميعهم بهذه الكلمة.

مضت في طريقها دون أن تلتفت له أو أن تعطيه أهمية، مضت مكسورة محطّمةً، بائسة يائسة، تكاد أمطار عينها تصبُّ على أرض وجهها، لكنّها لم تكن ترضى أن تكون بهذه الهشاشة، رفعت رأسها وهي تملأ صدرها بأكسجين يعيد تلك الأمطار إلى غيوم رأسها، منذ قرارها بالخروج من ذلك المستنقع الذي يسمى مخيّم، والذي يحوي آلاف المشرّدين من الأطفال والنساء والمسنين، لم تعد تسمح لشيء يكسرها.

أمّا هو فقد أصبحت الكلمات في فمه بكماء، لا تخرج من بين شفتيه، ما هذه الفتاة؟ وكيف لها أن تكون بهذه الصلابة؟ كأنّها خُلقت من فولاذ حديدي لا ينكسر، لا يعلم أن هذا الحديد من شدة الطرق عليه وحرقه أصبح بهذا الشكل.

فضوله منعه من السير، ترجّل من سيارته ولحق بها، أمسك بذراعها ليجعلها تنظر بعينيه، وقد تحقق مبتغاه، توجهت بنظرات مستغربة غاضبة من تصرفه:

— ماذا تظن نفسك فاعلًا؟

حاولت أن تفلت يديه منها، لكنه محكم الإمساك عليها.

نظرات غاضبة حزينة متحدية، تقابل نظرات حادة مستفسرة حانية، حاول جون أن يدخل إلى تفاصيل تلكما العينين، لكنَّ هناك حاجزًا كبيرًا يمنعه من رؤية ما بداخل هذه الفتاة، فقط رأى لمعة الحزن المتمردة في عينيها، من ذا الذي يمكنه أن يحزن هذه العيون؟ بينما هو غارق في جمالها وتأمله، سحبت يدها بقوّة من يده ورفعتها لتجعله يستفيق من تأمله على صوت ارتطام يدها على وجهه.

بنظرات تجهم وغضب واستغراب وضع يده على خده:

— من أين لك هذه الجرأة؟ هل تعلمين من أنا؟

— من تكون؟ لا يهمني، لم يُخلق من يلمسني، هذه المرة قضيتها بتحية بسيطة على خدك، لكن لا تفكر أن تعيدها لأنّك ستكون في عدد الضحايا.

وقف مصدومًا ينظر بالفراغ ممّا حدث الآن وهو الذي لم يقع في مثل هذا الأمر من قبل، فتاة عابرة تفعل به هكذا؟ لا تزال عيناه مفتوحة بقوة مندهشًا. نظر حوله وهو غاضب مما حدث، كيف لها أن تفعل

هذا؟ ومن تكون هذه الفتاة؟ كيف لها أن تكون بهذه القوة وهذا الجبروت؟ كيف لها أن تختفي بهذه الدقائق! لا يمكن أن تفلت من فعلتها، تلفت حوله باحثًا عنها، لكن كأنها لم تكن موجودة، كيف اختفت بهذه السرعة؟ صعد إلى سيارته وهو يحاول أن يبحث عنها، التفت بكل أنحاء الشارع ولم يجد لها أثرًا.

❁❁❁

جعلت السماء والأرض والنجوم والقمر والشمس يكونوا شهودًا على ميلاد عشقي، ورحت أكتب عن متاهاتي، حتى نفد الحبر مني، يحسبوني أني مجنون، وأنا أقسم بجميع الأديان أنّي مجرد عاشق.

دخلت إلى القاعة وأنا أحاول أن أستجمع قواي وأطرد كلّ الأفكار الأخرى من ذهني، لقد بدأ يومي بها، لم أرتوِ منها، جاءت لثوان معدودة وذهبت، كأنها مُصرَّة على أن تظلّ حلمًا هاربًا، آه منك يا غاليتي، أحاول أن أستمر، لكن ما زلتِ تصرّين على الظهور بحياتي وأحلامي، أين أنتِ يا قمري؟ لقد ازداد ليلي ظلامًا وأصبح نهاري باهتًا، وبردت أيامي وجفت أقلامي من بعدك، أحتاجك أكثر من أيّ وقت آخر.

— فارس.

عاد إلى الواقع ويد تحجب الرؤية عن عينيه، وهي تلوح يمين يسار، استعاد بنات أفكاره في لحظات قليلة..

— منذ دقائق وأنا وأتكلم معك، ألم تسمعني؟ كأنك في عالم آخر!

نعم في عالم آخر، يا لك من طفيلية في كلّ مرّة تأتين وتقطعيني عن عالمي، وكأن الكلام لا يحلو لك إلا حين أفكر فيها!

— ماذا تريدين؟

أجابها بلهجة جافة..

عقدت حاجبيها باستغراب وضيق:

— هل أزعجتك؟

— لقد سألتك إذا كنت تريدين شيئًا.

- نسيت هذا الدفتر بمحاضرة أمس.

وضَعَته على المدرج بهدوء كهدوء نبرتها، وعادت أدراجها إلى حيث تجلس صديقتها.

قفزت نظرة الاندهاش من عينيه وهو في قمة الاستغراب، ليس من موقفه المستفز، لكن من طريقة كلامها، توقع أنّها ستثور وتغضب من طريقة كلامه، لكنها كانت هادئة تمامًا، نظر إلى الدفتر أمامه، وأنساه الطالبة الفضولية التي أعطته الدفتر وكلامها، لقد كان هذا الدفتر من محبوبته، يتذكر جيدًا متى أعطته، كتب التاريخ في قلبه قبل أن يكتبه في أول صفحاته.

❀❀❀

الفصل الرابع
أنياب الماضي

نحن التائهون الذين لا حول لنا ولا قوة، نسير على خُطى المجهول، لا الماضي معروف ولا الحاضر، تعبث بنا الأيام، وتضيع بنا الطرق، ثم تصبح أكبر أمانينا حضنٌ وكتف.. يحنو ويسند...

لا بدّ أن يحدث تغيير أو معجزة كونيّة كي تعود الأمور إلى مجراها، ولكن كيف؟

عادت إلى واقعها بعد بُرهة من الزمن، ولكنّها لم تعد إلى الحياة، ما زالت تقف في المنتصف، لا تستطيع أن تعود إلى الماضي فتعيش ما كانت تعيشه، ولا أن تكمل ما بدأته وما قررت فعله، إنّها في المنتصف تمامًا.

هبَّت نسمات باردة داعبت خصلات شعرها الغجريّ، كانت تملك جاذبيّة حزينة، إنّ عينيها تملكان من الجمال ولمعة الحزن ما يجعل القلب يتساءل: أيّ قلبٍ يملك القدرة على إبعاد النظر عن تلكما العينين؟

وقفت بفستانها الأسود الحريري على شرفة الفندق تنظر إلى جمال هذه المدينة وسحرها وقد زادها جمالًا سواد الليل وبريق النجمات وضوء القمر، وصوت أمّ كلثوم يتراقص في حنايا الأزقة "إن كنت أسامح وأنسى الأسيّة، ما أخلص عمري من لوم عيني، دبل جفونها كتر النواح فاضت شجونها ونومها راح".

أسندت رأسها على راحة كفّها، وأطلقت العنان لنفسها، سمحت لمجرى عينيها أن يتدفق منه ماء مالح كملح الأيام، ذرفت آهات حارة ودعت دموعها تجري مشكّلة تضاريس على خدها، ويسقون نحرها، كان الليل يريد منها أن تسامره بحزنها، أن يكون الذكر الأول الذي يشاركها نحيبها وشجنها.

من قال الليل وُجد للعاشقين فقط؟ الليل وما أدراك ما الليل! يختزن الكثير من الأسرار، يخبئها جيدًا بين طياته، ويسجن جميع الذكريات داخل جوفه.

أجهدها البكاء حتّى نامت دون وعي، لم يكن النّوم أرحم من الليل، فقد بدأ يروي قصصه على شكل أحلام، فتارة ترى نفسها في باحة منزلها وهي ما زالت في التاسعة من عمرها، وتارة أخرى ترى أحد أفراد عائلتها يلاحقها بسكين زاعمًا أنه سيغسل عاره الذي يظنّ أنّها ألحقته بهم، والكثير من الكوابيس الأخرى التي طاردتها طوال الليل، إلا أنّ هناك صوتًا غريبًا يأتي من بعيد وكأنّه في أحد الجبال، يقول لها: لا تنظري إلى الخلف يا جمان، لقد فعلتِ الصواب، كيف لفتاة ما زالت في رحاب الطفولة أن تكون ضحية تفكير الأهل، اذهبي يا ابنتي ولا تلتفتي أبدًا.

لم تعلم من صاحب هذا الصوت ولا من أين يأتي، لكنّها شعرت براحة كبيرة حين سماعه، وانتظمت أنفاسها، وبدأت تهنأ بنومها قليلًا.

❁❁❁

ما بال هذا القلب، لا يعرف الدرب، مغمض العينين، يرى
الحق ويتجاهله، يسير متخبّطًا محدّبًا، ويترنح يمينًا يسارًا،
يرى النور، ولكنّه يستمر بطريق العتم.

عادت بها الذاكرة إلى قبل خمسة وعشرين سنة.

— ندى، هل ما زلتِ لا تريدين الذهاب معنا؟

— نعم يا أمّي لا أريد، فلدي صداع شديد، والمناسبة التي أنتم ذاهبون إليها صاخبة لا أريد أن أعكّر عليكم.

— إذَن انتبهي لنفسك جيدًا، قد تطول سهرتنا قليلًا ووالدك كما تعلمين مسافر، أغلقي الأبواب جيدًا.

جلست ندى تشاهد التلفاز وقد غافلها النعاس، وحاصرتها الوساوس من كل جهة، لقد كانت تشعر بأنّ هناك يدًا تداعب شعرها وأنفاسًا قريبة من وجهها، ظنّت أنّ الأمر مجرد أضغاث أحلام، ولم تعلم ما يحدث لها، وما ينتظرها من سنين عجاف.

لقد وسوس الشيطان الذي أخرج والدينا من الجنة لقرينه الأنسي وجعله يتبع شهواته ليخرج هذه الفتاة من جنة أهلها، وينزلها إلى جحيم الشوارع والتشرُّد، عندما بدأت يد أخرى تتلمس جسدها وتستكشف أجزاء جسمها، بدأت ندى تشعر بالغرابة، لا يمكن أن يكون حلمًا، خاصّة بعد أن لمست تلك اليد أجزاء حساسة في جسدها، هنا علمت أنها في كابوس واقعي، ومن شدة الصدمة ألجمت لسانها ولم تستطع أن تفتح عينيها، لكنّ قلبها بدأ يقرع طبول الحرب في صدرها، وأصبحت ترجف، أي لعنة هذه؟ وأي دناسة بدأت تقترب منها؟ ما الحل وكيف ستنجو من هذه المصيبة؟

الشيطان شعر وانتبه إلى خوفها ورجفة جسدها، ولكنّه لم يتوقف، كان جلّ همّه رغباته الجنسيّة، وشهواته التي أعمت بصيرته، اقترب منها أكثر وثبّت يديها، وهمس بصوتٍ فحيحٍ:

— لقد طال انتظاري لهذه اللحظة كثيرًا، كنت أراقبك منذ بدأت ملامح الأنوثة تظهر عليكِ، حاولت جاهدًا أن أختلي بكِ ولم تكتمل أيّ فرصة لأنتهزها واستولي عليكِ، لكن اليوم أصبحت لي، ستصبحين عروسي ولكن سرًّا، لا قوة تمنعني من التهام جسدك المفعم بالحياة.. بعد هذه اللحظة ستصبحين امرأتي.. لا مهرب لكِ من قدركِ، وأنا القدر الذي سيكون في طريقك.

بدأت معركة الاغتصاب لروحي قبل جسدي، لم أكن أدري ماذا أفعل، يداي مثبتتان، أحاول أن أقاوم بجسدي ولكن كلّ محاولاتي باءت بالفشل، كنت فريسة بين يدي حيوان بشري وليس أيّ حيوان.

راحت الأنياب تُغرس في جسدي وتنهش لحمي، لقد كان ثعلبًا على هيئة بشر، التهم كلّ ما فيّ، كنت أشعر بشفتيه على جسدي تمزقه وتؤلمه، وتفتت أوردة قلبي، لم يكن الألم في جسدي، لقد كانت روحي تتصعد إلى السماء، توقعت أن ينتهي الأمر عند هذا الحد.. لكن الشيطان قد أقسم أن يخرجني من هذه الحياة، فهتك عذريتي وأنهى معه كل آمالي بأن يكون ذلك كابوسًا، حين شعرت بثقل الجسد الذي كان فوقي، لم يكن جسدًا، بل كان جبلًا يقبع على قلبي. كل هذا وأنا ما زلت مغمضة العينين، وكأني أصرُّ أنّه كابوس وسأفيق منه عاجلًا، بعد أن شعرت بذهاب إبليس، قررت أن أصحى لعلّ ما كان لم يكن.

وياحسرتاه على ما رأيت، كان شرفي قد رُمي ببضع قطرات على الأريكة، شرف! يا لها من كلمة كبيرة، موقف مثل هذا بدون أيّ ذنبٍ منها تصبح الفتاة وصمة عار يجب على الأهل أن يطّهروها.

نظرت مطولًا إلى تلك البقع التي جعلت منّي خالية الرّوح، لم أكن أستطيع الحراك من مكاني، كانت هول الصدمة أكبر من قدرتي على الاستيعاب، الآن أصبحت بلا شرف، حاولت أن ألملم جراح قلبي قبل جسدي وأنهض، كانت خطواتي متثاقلة وكأنّها تُجرّ لجهنم زمرًا، نظفت المكان بدون حول لي ولا قوة، ودخلت سريري وأنا أرتجف، لم أكن أعلم أي مصير سيلاحقني، كنت أشعر بحرارة دموعي على وجنتيّ، أعتقد أنّ الوسادة كانت خير شاهد على هذا الألم، كيف سأخبر أهلي ومن سيصدق؟ من سيقتنع أنّ الأمر ليس لي به لا ناقة ولا جمل، كيف سيقتنعون أن الفاعل......

عادت إلى الواقع وهي تشعر بيد تربت على كتفها وتمسح دمعات تساقطت من وجنتيها، نظرت إلى صديقتها وهي تقول لها:

— لا بدّ أن يأتي اليوم الذي تُعاد لك بسمتك، لا بدَّ من عوضٍ جميل لما قاسيته من أحزان، فاصبري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرًا.

— أيّ عوض هذا الذي سيعيدني إلى الجنة التي سقطتُ منها؟

— لا بدّ من مجيء يوم تظهر فيه الحقيقة، لا بدّ من ذلك، فقط فوِّضي أمرك لله.

غطّت عينيها بكفها وذهبت في نحيب يئن له قلب من يراها، كيف لا وقد عانت ما لم يعانيه أحد!

❀❀❀

إذا أخبرتك بثقل حزني، وكمية خيباتي، وتعبي من الطرق
والبشر، وقلة حظي، وصعوبة الكلمات التي تقف في
حنجرتي من شدة الألم، وإرهاقي من كثرة التفكير، وأنّ
الليلَ نام تحت عيني، والتشتت بسبب كل ما يحدث،
وبالشوق الذي أكل قلبي، وأنّني لست على ما يرام، ستظنّ
بأنّي أبالغ! لذلك سأكتفي بقول: أنا بخير.

لقد مرت على علاقتهما الكثير من المصاعب قبل أن يُتوّج حبّهما بالزواج، ولكن مشيئة الله كانت ألا يُكلل هذا الزواج بالثمار، فقد كانت ميرال عقيمة، وذلك ما أثبته كلام الأطباء، لا أمل بالحمل عند ميرال كلّ من ذهبا إليه من مشافي وأخصائيين، مع أنّ الطب قد تطور، لكن نسبة الحمل عند ميرال لم تكن حتّى 1%، عاشت أيامًا حزينة وتألمت بصمت حسب ما تظن، لكن وائل لم يكن مجرد زوج، كان عاشقًا، وليس كأيّ عاشق، لقد كان يشهد في كلّ ليلة دموع حبيبته، ويعلم مدى توقها لأن تكون أمًّا، لم يخفَ عليه توسلاتها في كل صلاة، مع أنّها لم تكن في عهدة الإسلام إلا حديثًا، لكنّ الدين تأصّل في قلبها، وكلّ ذلك يعود إلى تعليم وائل لها أُسس الإسلام ومن ثمّ إلى تعمقها في الدين من القرآن الكريم وكتب التفسير والفقه الحنيف، وهكذا نبت الإسلام وشبّ في قلب ميرال، فكانت خير طالبة تسمع كلّ حرف وتعمل به، فهمت الدّين وعملت به، وخير دليل أنّها دائمة التفكير بأن عدمَ إنجابها خير لها، يقينها أنّ لهذا الأمر حكمة إلهية لم تعلمها بعد.

جاء ذلك اليوم الذي قرر فيه وائل أن يجعل من أمنيتها حقيقة، عاد إلى موطنه، وعمل جاهدًا ليحصل على ما تتمناه زوجته، توقف أمام دار الأيتام شاردًا:

- لماذا لا تفكر بالزواج من امرأة أخرى؟ ألا تشتهي أن تكون أبًا؟ ألا تتوق نفسك لهذا الشعور؟
- ما لي وللأطفال بدون حبيبتي ميرال؟؟
- لكن أنت تعلم أنّه لا يمكنني أن أجعلك أبًا، فلماذا تحرم نفسك من هذه المشاعر؟ ليس بك أيّ مانع للإنجاب.
- أوَ لو كنتِ مكاني، هل كنتِ ستتخلين عني؟ لنفترض أنني تزوجت بامرأة أخرى وأنجبت منها قبيلة بأكملها، ماذا ينفعني ذلك حين أهرم وكلّ واحد منهم يمضي في سبيله، أأعيش مع امرأة لا تعلم من الزواج غير الأبناء وعمل المنزل؟ ما لي بزوجة لا يريدها قلبي.
- لكنك ستُحرم من هذه النعمة، ستُقطع شجرتك ولن يكون لك أثر من بعدك.

يتبسم ضاحكًا معجبًا:

- أستغرب عقلك وأنت امرأة لا تمتّ للشرق بصِلة، تصرّين على هذا الموضوع وكأنّك ريفيّة من إحدى دول العرب، كيف لكِ أن تكوني بكل هذا الجمال!
- يبدو أنّه لا فرق بين عربية وأجنبية بهذا الأمر، فشعور الأمومة والأبوة موجود عند الجميع.
- ما رأيك بأنّني لا أريد أطفالًا ولا أن أكون أبًا؟ أريدك فقط أنتِ، الزواج من امرأة سواكِ لا يجوز في دين العشق.

عاد إلى الواقع على صوت زمور سيارة أجرة، فسار متجهًا إلى الميتم وهو مصرّ أكثر فأكثر على قراره، سيتبنى ولدًا ويعيش معه مشاعر

الأبوة، وبذلك لا يحرم زوجته من أمومتها، من قال إنّك لا تكون أبًا إلا بولد من صلبك؟

خرج من الميتم بعد أن أتمَّ أوراق التبني، حاملًا بين ذراعيه قطعة من اللحم صغيرة لا يتجاوز عمرها بضعة أشهر قليلة، وقد كان من قبل مجّهزًا أوراق السّفر، لم يكن ينقص إلّا موافقة دار الأيتام ليكمل أمور سفره، أنهى باقي الإجراءات، خرج من منزله زوجًا، وعاد أبًا.

دخل المنزل يحمل طفلة تشبه القمر بوجهها الأبيض الصغير، وتنسال على وجهها خيوطًا من أشعة الشمس، وينبت الورد من خديها، ويقطف الكرز من شفتيها، لقد كانت تنظر بعينين بريئتين، نظرت ميرال إلى اللفة بصدمة كبيرة، تساءلت مشيرة بعينيها إلى اللفة البيضاء:

— من هذا الطفل؟

— ابنتنا، ألا تريدين أن تعيشي مشاعر الأمومة؟ لنكن أهلًا لمن حُرم من الأهل، ألا تتوقين إلى أن تصبحين أمًّا، ها قد أصبحتِ أمًّا.

كان يتكلّم بفرح، وكأنّ الطفلة الصغيرة ابنته بالفعل، اقترب منها وأعطاها الطفلة لتراها، لتشتمَّ رائحتها المميّزة، سرعان ما شعرت بعاطفة جارفة تجاهها، حملتها بين ذراعيها والعيون دامعة، تنظر إلى زوجها وهي ممتنة لما أهداها إياه.

❀❀❀

ومن سواه قد علم أنّك في هذا الكون أخفيت ألماً، ومضيت تائهًا، وتقطّعت في متاهات قلبك، ولكنّك مددت يديك تلتمس من نوره، وتلوت في أعماقك أسمى آياته، موقنًا، متقينًا {إنّ مع العسر يسرًا، إنّ مع العسر يسرًا} [سورة الانشراح: 5-6].

لا أعلم كيف ارتفعت يدي وطبعت بقوة على رقعة وجه ذلك الفتى الذي عرض خدماته عليّ، ولكن صرير كلمة أب ترنّ في عقلي كمطرقة حديد، تهشّم قلبي وتفتّت روحي. من قال إنّ الأب يصبح أبًا فقط حين ينجب من صلبه غلامًا؟ هل الأبوة تقتصر على الإنجاب فقط؟ من أعطاهم الحقّ في إنجابنا إن لم يكونوا على قدرٍ من المسؤوليّة؟ نسمع فقط عن حقوق الآباء والأمهات، ماذا عن حقّنا؟ ماذا عن واجباتهم تجاهنا؟ أليس هناك عقوق الآباء مثلما هناك عقوق الأبناء؟

لماذا نتحدث دائمًا عن عقوق الأبناء؟ نسمع دائمًا: لا تقل لهما أفٍّ. ماذا عن قلوبنا؟ ماذا عن كسرة الخاطر التي تنتج منهم تجاهنا كسهما يخترق الفؤاد؟ أتساءل حقًّا ما هو العقاب الذي سُيفرض على ذاك الذي أنجبني؟ كيف سيعيش من مآسي تجبره على الشعور بما أشعرني به في كل لحظة مضت من حياتي؟ أي عقاب سيجبر كسر قلبي؟ من هو أبي؟ وأين هو؟ ولماذا عبث بحياتي هكذا؟ من أعطاه الحق أن يحرمني لذة الحياة؟ أشعر أنّني عالقة بين السماء والأرض، لا أعيش مع الناس ولا أموت مثل من مات.

قُطعت أفكاري عند هذا الحد مثلما قُطعت عني الحياة ملذاتها، حين وُضعت على فمي كمامة وعلى عينيّ عصبة فلم أعد أرى إلا السواد الذي كان في داخلي قبل عينيّ، حاولت المقاومة والصّراخ:

- من أنت؟ ماذا تريد مني؟ أبعد يديك عني.

والكثير من الكلمات الأخرى التي ذهبت مع الرّيح ولم تكن مجرد تمتمات غير مفهومة بسبب الكمامة التي وُضعت على فمي. كانت اليد التي على فمي يد رجل، وهذا ما شعرت به من ملمس يده الخشنة.

أدخلني عنوة داخل السيارة، وقد اقترب مني لدرجة أنّي شعرت بتيّار يسري في كامل جسدي، وهمس في أذني بصوت مخيف:

- أيّ صوت أو مقاومة يصد منكِ ستشتهين الموت، لذلك لا أريد منك أيّ همس، ولا حتى تلفتي انتباه أحد، ستكونين قطة وديعة، ولا تفتعلين أيّ مشاكل، هل فهمتِ؟!

لم أستطع أن أصدر صوتًا، كان الصمت مخيّمًا علينا داخل السيارة، في البداية ظننته شخصًا واحدًا فقط، وذهبت مخيلتي إلى أنّه ذات الشخص الذي صفعته منذ قليل عند لحاقه بي، لينتقم مني، ولكن صوت من كلمني أخشن بقليل، هل يمكن بسبب عصبيته وغضبه؟ سمعت صوتًا آخر:

- هل نذهب إلى المقرّ نفسه؟ أم إلى الشقة؟

قال الكلمة الأخيرة بلهجة غريبة، وكأنّ الأمر أكبر من مجرد اختطاف، سمعت نفس الصّوت الذي قام بتهديدي:

- شقة ماذا أيّها الأبله؟ إذا علم المدير بهكذا أمر سنذهب جميعًا بداهية، هيّا إلى المقر، نضعها هناك مؤقتًا لحين صدور الأوامر الجديدة.

تنفست الصعداء، غالبًا إنّه ذات الشّخص، يريد أن يردّ الكفّ بطريقة أكبر، وقد أرسل من يعملون تحت إمرته ليأخذوني إليه ظنًّا

منه أنّه سيهينني بهذا الأمر، لا يعلم ما أخطّط له منذ البداية، لا بأس الأمر بمصلحتي إذَن، عاد صوت ثالث يقول:

— هل تتوقعون أنّ صيدًا بهذا الجمال لا أحد وراءه، لعل الأمر أكبر منًّا.

إذَن في السيارة ثلاثة أشخاص، إنّهم يتبعون أمر ذاك الذي يُسمى بالمدير، هكذا الأمر قد توضّح، لم يعد هذا ذات الخوف الذي اعتراني بالبداية موجودًا الآن.

❀❀❀

الفصل الخامس
طيات النسيان

وقد سُئِلَ ما الحب؟
فأُجابَ: أن تخلع قلبك حين تغار، ولا تظهر على طيات
وجهك سوى الاتزان، أن تُقدم المشاعر والاهتمام وأنت
كجائع يطرق الأبواب في جنح الليل ليُقدم لك كلمة،
وتعطي الابتسامة وأنت كالأبتر الذي يحتاج من يمسح
دمعته اليتيمة، وتوهب العشق وأنت الذي سُلبت منك
الحياة بأكملها.

حين التقى خالد بفارس تذكّر أمر الفتاة التي كانت تنام قرب بيته، إنّها ذات الفتاة التي كان فارس على صلة بها، لا ليس مجرد صلة، إنها الفتاة التي أوصلته إلى هذه الحالة، حار في أمره كثيرًا، هل يخبره أم لا؟ ماذا إن عاد إلى عزلته القديمة؟ لكن من حقه أن يعلم، رباه ما هذه الحيرة التي تحتويني!

— خالد، هل سمعت ما قلته لك؟

كان فارس واقفًا بطوله الفارع وكتفيه العريضين وسواد العينين وسماره الذي صنعته الشمس به، في ساحة الجامعة التي أحاطتها الخضرة من كل جانب، واكتظت بالطلاب في ساحتها، كان الطقس بدأ يميل إلى البرودة، فها هو أيلول شهر الحب والكآبة قد مضى منه أكثر

من نصفه، نظر إلى خالد وهو ينتظر منه الإجابة فقد لاحظ شروده وعدم تركيزه بالموضوع الذي يحدثه به.

— المعذرة، ولكن هناك أمر قد حدث، ولا أعلم إن كان يجب أن أُخبرك به أم لا؟

أجابه خالد وهو في غمٍّ قد ظهر على طيات وجهه.

استغرب فارس من ملامح وجهه، فقد لاحظ منذ التقى به أن ثمّة أمر قد حدث، ولكنّه يعلم أن صديقه إذا كان يريد أن يخبره شيئًا فإنّه يتكلم من دون توجيه الأسئلة:

— لقد شغلت فكري، هل الأمر متعلق بعائلتك، أم أنّه أمر خاص؟

— الأمر متعلق بماضيك، لقد وجدت من أفقدتك توازنك في هذه الحياة، بل كانت عندي بمنزلي، ولم أقدر أن أتذكرها إلا منذ التقيت بك ورأيت صورتها بمحفظتك، مذ ذلك اليوم وأنا في حيرة من أمري هل أخبرك أم لا؟ واليوم شعرت أنّه من حقك معرفة هذ الأمر.

بوجه واجم وشفاه راجفة يتساءل فارس:

— هل أنت متأكد من هذا الأمر؟ هل هي ذات الفتاة؟

— نعم يا فارس هي ذاتها مع بعض التغيير في شعرها، فقد طال عن قبل، ولمعة الحزن التي سكنت عينيها، وكأنّ العالم بأكمله قد تخلّى عنها، والغريب بالأمر الذي جعلني لا أتذكرها جيدًا شكلها المبعثر وملابسها القديمة وجسدها الذي أكل منه الزّمان.

كان فارس يستمع لكل حرف بنهم وألم قد بان على وجهه:

— وأين ذهبت؟ وهل هناك أيّ معلومة تفيدني بالوصول إليها؟

— ماذا تقول يا صديق العمر؟ بعد كل ما حدث تريدها مرة أخرى؟

— لا تطِل الأمر يا خالد، أخبرني بكل صدق هل تعلم كيف يمكنني أن أجدها؟

— لقد كانت تنام في مدخل منزلي، وبان كأنها متسولة، وحين سؤالنا إياها ماذا تفعل هنا. أجابت بأنّ حقيبتها سُرقت وأنّها لم تجد مأوى، لذلك نامت هنا.

صمت خالد قليلًا، وقد بان على وجه التردّد، وأنّ للكلام بقية. فحثّه فارس ليُكمل:

— ثمّ ماذا حدث؟ وإلى أين ذهبت؟ لمَ كلّ هذا التردد في كلامك؟

— لقد تركت رقم هاتفها عند زوجتي، وقالت بأنها ذاهبة إلى أحد أقاربها في المدينة، لكن أمرها مريب جدًّا، فالرقم الذي تركته حاولت زوجتي الاتصال عليه لكنّه ليس بالخدمة.

عندما رأى خالد غياب عقل صديقه تمنّى لو أنّه صمت ولم يتكلم، فعاد للحديث معه مرّة أخرى:

— يجب عليك أن تستمر بما بدأت به وتُكمل اختصاصك، التفت إلى مستقبلك، لقد أصبحت في طيات النسيان، خاصّة بعد ما كذبت بموضوع اسمها ولم تقل إنّها رتيل.

عند نهاية هذا الكلام استأذن فارس من صديقه وهو يقول "سأكلمك فيما بعد"، وقد فهم خالد حالته النفسيةَ، فقد كان صديقه بحاجة للانفراد بنفسه، يعلم بأنّه بحاجة بأن يختلي بنفسه بعيدًا عن هول هذه الصدمة.

سار فارس وهو يحاول أن يتوازن بداخله، وكأن السماء شعرت بحزنه فأرسلت غيومها تغطي عنه حزنه، جلس على العشب بعيدًا عن

أعين الجميع، وبدأ بالنحيب دون دموع، كان نياط قلبه يتمزق، أرخى رأسه على جذع الشجرة وهو يضع سماعات هاتفه في أذنه مستمعًا لقصيدة شاعر الحب والمرأة:

الشعر يأتي دائمًا مع المطر
ووجهك الجميل يأتي دائمًا مع المطر
والحب لا يبدأ إلا عندما تبدأ موسيقى المطر

إذا أتى أيلول يا حبيبتي أسأل عن عينيك كل غيمة
كأن حبي لك مربوط بتوقيت المطر

مشاهد الخريف تستفزني، شحوبك الجميل يستفزني
والشفة المشقوقة الزرقاء.. تستفزني
والحلق الفضي في الأذنين.. يستفزني
وكنزة الكشمير
والمظلة الصفراء والخضراء.. تستفزني
جريدة الصباح مثل امرأة كثيرة الكلام تستفزني
رائحة القهوة فوق الورق اليابس تستفزني
فما الذي أفعله؟
بين اشتعال البرق في أصابعي
وبين أقوال المسيح المنتظر؟

ينتابني في أول الخريف
إحساس غريب بالأمان والخطر

أخاف أن تقتربي.. أخاف أن تبتعدي
أخشى على حضارة الرخام من أظافري
أخشى على منمنمات الصدف الشامي من مشاعري
أخاف أن يجرفني موج القضاء والقدر

هل شهر أيلول الذي يكتبني؟
أم أن من يكتبني هو المطر؟؟

أنت جنون شتوي نادر
يا ليتني أعرف يا سيدتي
علاقة الجنون بالمطر!!

سيدتي
التي تمر كالدهشة في أرض البشر
حاملة في يدها قصيدة
وفي اليد الأخرى قمر

يا امرأة أحبها
تفجر الشعر إذا داست على أي حجر
يا امرأة تحمل في شحوبها
جميع أحزان الشجر
ما أجمل المنفى إذا كنا معًا

يا امرأة تُوجز تاريخي
وتاريخ المطر.

ما أقسى الأيام! هي ذهبت في مثل هذه الأيام منذ سنوات، وها قد عاد ذكراها في نفس الوقت. غرق فارس في تفكيره وهو يحاول أن يمنع انجراف عقله وقلبه وراء مشاعره، وراء الحنين واللهفة والشوق، وحين اندمج مع الطبيعة وعاد إلى أصله، تلحف التراب وسمح للأمطار أن تغسله، ليستطيع أن يتخذ قراره، قراره المصيري الذي سيقلب حياته.

❀❀❀

"ضع قائمة بالأفكار والأشياء التي يحتاج عملها سرعة في الوقت وسرعة في اتخاذ القرار، ثم اقفز فورًا من النافذة لتعملها وتبدأ بها".

ستيف جوبز

بعد أن سافرَت والدتها وأخذت قرارها النهائي، جلست بجوار حقيبتها تعيد حساباتها مع الماضي، ذاك الفتى الذي أحبّته وتعلّقت به وخطّطت معه لبدء حياتها، حطّم قلبها حين رأت خيانته أمام عينيها تحت مسمّى الحريّة الشخصيّة في دول أوروبا، فقد أقام علاقة مع امرأة أخرى، ولم يكتفِ بذلك؛ بل كان يستمد منها المال لينفقه على عشيقته، التي تكبره بأعوام.. إذَن الآن وقد حان خروجها من هذا المنزل الكبير وذهابها للخدمة الإنسانية، لقد اتخذت خطوتها لتصنع من نفسها أداة لخدمة الناس، وتساعد من يحتاج، وخاصة أنّ مجالها كبير ولديها شخصية عاطفية جدًّا مليئة بالتفاؤل والخير. أمسكت بهاتفها وراحت تضغط على الأرقام بثبات ظاهري لا يعكس تموجات قلبها وتفاوت مشاعرها.. بعد أول رنة أتاها صوت خشن:

— أهلًا يا ابنتي، هل أكملتِ تجهيز حقائبك؟

— أهلًا بك، نعم لقد انتهيت، من فضلك هل يمكنك مساعدتي بحملها؟

— بالطبع، دقائق وأكون عندكِ.

أغلقت السماعة منتظرة مجيء علي، السائق الذي تتعامل معه منذ سنوات، ولم تجد مثله أمينًا ذا خلق طيب، وهو ذات الشخص الذي كان

يتعامل معه والدها قبل وفاته، سمعت دقات خفيفة على الباب، فذهب وفتحت له الباب مُرحّبة به بابتسامة:

— لقد أتعبتك معي، ولكن ما باليد حيلة، ولا أستطيع أن أطلب سواك لمساعدتي.

— أنا بخدمتك يا ابنتي أيّ وقت تحتاجيني، ولكن أين بقية حقائبك، لا أرى سوى حقيبة واحدة وليست بكبيرة؟

— تكفي هذه يا عم، أنا لن أبيع المنزل، سأذهب بأمرٍ ما وبالتأكيد لنا عودة أنا ووالدتي من جديد.

— رحم الله والدكِ، كان رجلًا صالحًا وقد فعل خيرًا حين اختارك بنتًا له دون سواكِ.

توقَّف عن الكلام وقد أدرك للتو ما تفوّه به من أمر كبير، وخاصة حين رأى تعابير جوليا مستغربة، وكأنها منتظرة تبريرًا لكلامه:

— ماذا تقول؟ كيف اختارني؟

تلعثم علي، ولم يعلم ماذا يقول ولكنّ الأمانة أمانة لا يستطيع أن يخلف بوعده لوالدها، وقد حافظ على هذا الوعد سنوات ولا يمكن الآن البوح ما لم تكن ترغب ميرال بذلك، فحاول أن يظهر ثابتًا ويتكلم بكلام مقنع:

— أقصد أنّه اختار طرق تربيتك تربية صالحة، والنبتة الصالحة تضع ثمرة مباركة.

اقترب من الحقيبة وهو يحملها متّجهًا إلى الباب وهو يعضّ شفتيه بقوة ويشدّ قبضته بقوة أكبر، ويحاول أن يظهر وكأن الأمر صحيح تمامًا، وحين وصل إلى الباب ولم يسمع من جوليا أيّ كلمة ولم يسمع

خطواتها التفت إليها بثبات وثقة ظهرت على وجهه ولم يبد أيّ تزعزع من الذي كان في داخله:

— هيا يا ابنتي لنذهب حيث وجهتك المرادة.

تثاقلت خطواتها، ولم تكن قد صدّقت الكلام الذي سمعته، وأدركت أنّ هناك أمرًا ما وراء كلام هذا الرجل، خاصة أنّه منذ أن بدأت تأتي إلى بلدها كان يخدم والدها ويقضي حاجته ومشاويره، لكنّها الآن لا تريد أن تسمح للأفكار بأن تؤثر عليها، هناك ما ينتظرها ويجب أن تعمله.

— هيا بنا يا عم لنذهب.

انطلقت السيارة بهما إلى المنزل الذي استأجرته قبل أيام وقد تحدثت مع زميلة في الجامعة لتسكن معها، غرقت ببحر أفكارها وقد اتكأت على النافذة تنظر إلى الشوارع بنظرات تائهة، ما أجمل حبات المطر التي تتساقط من السماء لتروي عطش الأرض، ما أجمل أيلول وتساقط ورقيات الشجر واصفرار ألوانها! كانت السماء مُلبَّدة بالسحاب، تزخّ قطرات صغيرة، فتحت النافذة وهي تمدّ أصابعها وتسمح للمطر بأن يعانقها ويروي لها قصص الغيمة التي أسقطته بعد أن حملته طيلة فصل الصيف كأمّ تحمل جنينها وحين عطشت الأرض واشتاقت، تثاقلت الغيمة بحملها وقررت أن تسقط هذه الحبات لتخلق حياة جديدة لكل حبة، كانت تشعر أنّ المطر يلامس قلبها قبل يدها، تنظر إلى المطر وكآبة الجو ونسمات الهواء والشوارع التي رغم المطر يوجد الكثير من الناس فيها، الشعب في هذا البلد يعشقون أرضهم حتى رغم اختناق الجو بالموت والدم، ما زال الحب في قلوبهم والانتماء في عروقهم، لم تستيقظ من أفكارها إلّا على صوت السائق علي يخبرها بأنّهم قد وصلوا:

— أي طابق المنزل يا ابنتي؟

— الطابق الثالث يا عم، لا أريدك أن تحمل الحقيبة سيؤلمك ظهرك، سأخبر السمّان وهو شاب صغير العمر ليساعدني بها.
ظهرت بعض الانزعاجات على وجهه، فأجابها مقتضبًا:

— سأصعد بها إلى منزلك.

— ولكن يا عم!

قطع كلامها وهو يحمل الحقيبة ولم يلتفت إليها، فوضعت له المال على الكرسي المجاور لكرسيّه ونزلت تسحب رجليها وهي تفكر بالوضع الجديد لديها، وخاصّة أنّه من الغد ستبدأ عملها الجديد متطوعة بالهلال الأحمر لنقل العلاج إلى المخيّمات، ذلك العمل الذي حلمت به منذ تبرعمت وكبرت، تعشق هذه المهنة، وقد درست الطب النفسي لمعالجة من هم متعبون نفسيًّا، تعبت لأيام وسهرت لليالٍ لأجل حلمها، ولم تفتتح عيادة خاصة لأنّها قررت السير في هذه الرحلة التطوعية لتستمر جهودها وتسمع بوح قلوب المساكين في ذلك المكان اللعين. وصلت مع أفكارها إلى آخر درجة في السلم وهي تنظر إلى العم علي وقد ظهر على وجهه بعض الإرهاق من حمل الحقيبة، فتبسمت في وجهه ممازحة:

— لقد أخبرتك أنّك أصبحت في عمر لا يسمح لك بصعود الدرجات، فكيف بحمل الحقيبة إلى الطابق الثالث!

نظر إلى ملامح وجهها وهو يستغرب، تمتلك هذه الفتاة ملامح شبيهة بوالدتها إلى هذا الحدّ، فلو لم يكن شاهدًا على تبنيها منذ البداية

لما استطاع أن يفرّقها عن والدتها، كانت تشبهها وكأنّها ابنتها الحقيقية، ثمّ استدرك نفسه وهو يبتسم:

– إنّني بكامل قوتي وصحتي والحمد لله، المهم أنّكِ أصبحتِ في منزلك بخير وسلامة.

ودعته بالشكر والدعاء له وهي تدخل إلى منزلها وترمي بنفسها على أقرب أريكة تراها وهي تفكر بالغد المُنتظر وتفكّر إلى أن غالبها النّعاس فنامت دون أن تشعر بنفسها.

❀❀❀

الله يعلم ما عشته من معارك في داخلك، وكيف كنت تُربت على قلبك، وتهون عليه الصعاب، كيف كنت تمسح عن على عينيك وتمنع انهيار دموعك، وأنت تمتم لها: {لعلَّ الله بعد ذلك يُحدث أمرًا} [سورة الطلاق: 1].

كانت تسير دون وجهة مُعينة، تضع سماعات الهاتف الجوال في أذنيها، مندمجة مع الأغاني، لقد أصبح لديها عملها الخاص وصاحبة رأي، منذ قررت أن تنهي حياتها السابقة وتبدأ حياة جديدة في المهنة التي كانت قد تعلمتها في صغرها، وبدأت تمارسها بعد أن تركت العادات والتقاليد والأفكار الجاهلية، كيف لفتاة بعمر الثالثة عشر ليس هذا فقط أن تكون مسؤولة عن زوج وبيت وأسرة؟ ليس فقط هذا إنّما زواج مصلحة لإنهاء الثأر الذي بدأ بين العائلتين، لم يكن سهلًا، لكنّها استطاعت أخذه ونفذته بمساعدة الله ومن ثمّ إحدى النساء التي لم تكن تريد هذا الزواج من الأساس أن يتم، خاصة أنّ المقتول زوجها. لقد عاشت الكثير من المصاعب وعملت في أماكن كثيرة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. واليوم هي تملك أكبر مصنع للخياطة، بل تصدر إلى بعض الدول، خلال مدة عشر سنوات عجاف استطاعت أن تحصد ثمر تعبها وجهدها الدائم، وها هي الآن ذاهبة إلى المؤتمر الخاص بها. وفي هذه الأثناء سمعت رنين هاتفها فنظرت إلى الشاشة بتعجب، فالرقم غير مسجل لديها، تجاهلته وأكملت المسير، لكنّ المتصل كان مُصرًّا، فبعد أن تجاهلت أول مرة وفصلت المرة الثانية عاد إلى الرنين مرة ثالثة، فأجابت:

— نعم، مَن المتصل؟

فسمعت صوتًا بدا مألوفًا بالنسبة إليها:

– لقد مرّ الكثير من الوقت يا جمان على فراقك لنا، ولكن لم أيأس يومًا واحدًا بأنني سوف أجدك، بحثت طويلًا وسألت كثيرًا حتى وجدت رقمك، قريبًا سأجد مكانك، وحينها لن يكون هناك مكان للفرار.

أخافها الكلام وإن كانت لم تعلم من المتصل بعد، ولكن تأكدت أنّ الماضي بدأ يعود إليها من جديد، حاولت أن تخفي نبرة الخوف من صوتها، متسائلة:

– مَن المتصل؟

– ستعلمين عمّا قريب يا عزيزتي، وبعدها لن تستطيعي أن تتنفسي أبدًا، انتظريني يا وصمة العار.

– من أنت؟ وماذا تريد؟

وتوقفت عن السؤال حين سمعت قطع الهاتف، وكان الطرف الآخر قد أنهى المكالمة.

مَن الذي اتصل لا تعلم، ولكنّها فهمت من سياق الحديث أنّه من أقاربها، وأنّه يسعى بكلّ قوتّه لإيجادها، ومن ثمّ قتلها، لم تكمل خطوتين حتى عاد الهاتف يرنّ من جديد، وحينها وقع قلبها، أهو ذات الشخص أم من؟ نظرت، فإذا برقم آخر يظهر على شاشتها من جديد، ما هذا اليوم العصيب! ترددت ثوان قبل الإجابة، ولكنّها قررت أن تجيب وترى من الذي يتكلم.

– ألو جمان، هل تسمعيني؟

كان الصوت هذه المرة أنثويًّا وقد توضّح الخوف على نبراته، ولم تكن بحاجة أن تستغرق وقتًا كبيرًا قبل أن تعرف من المتصلة، فأجابت بصوت يملؤه الحنين:

— أمّي، هل هذه أنتِ؟

وهنا بدأ يعلو نحيب والدتها، وكانت تنتحب بشكل يُقطّع نياط القلب، كيف لا، وهذه فلذة كبدها وابنتها الوحيدة التي كانت ستذهب ضحيّة الثأر، وقد غابت عنها لسنوات. أخذت نفسًا عميقًا وهي تحاول أن تكبت دموعها، فليس لديها وقت كبير، يجب أن تخبرها بما يحدث، وما قد تدبّر لها من مكيدة:

— بُنيتي الغالية، أخبريني هل أنتِ بخير؟ كيف مضت عليكِ هذه السنوات؟ أين كنتِ؟ وماذا فعلت بكِ الأيام؟

لم يكن الأمر أقل عاصفة عند جمان، فها هي أمها وجنّتها تكلمها بلهفتها المعهودة وخوفها الدائم، انسالت الدمعات على مجرى خدها، حاولت أن تُجيب، لكن كلماتها سُرقت ولم تعد هناك حروف تتجمع لتخرج من فمها، ففضلت الصمت، وكانت أنفاسها متسارعة.

— نظر عيني وكلّ ما أُحبّ، أعلم أنّ الأمر لم يكن سهلًا عليكِ، وأعلم أنّكِ قد مررت بالصعوبات الكبيرة، المهمّ أنّكِ بخير، لقد وجدت رقمك بالمصادفة بعد أن سمعت المؤامرة التي كانت تُحاك من وراءك، اعلمي يا صغيرتي أنّ الأمر هنا كبير، وأنّ إخوتك وأولاد أعمامك يبحثون عنكِ في كلّ مكان، خذي حذركِ، وكوني على يقين أنّ الله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

استجمعت نفسها ولملمت شتات أمرها وهي تجيب والدتها:

- لو تعلمين كم اشتقت إليكِ وكيف مرّت سنواتٌ بدونك، وبدون كلماتك ودعواتك، لكنّني لم أستطع أن أكون ضحيّة هذا الأمر، ولذلك فعلت ما فعلت، وذهبت دون عودة، أشتاقكِ يا أمي كثيرًا، ولكن لا أستطيع أن أعود، أمّا عن المكيدة فقد اتصل بي منذ قليل أحدهم وهو يهدّد، لا عليكِ سأكون بحذر دائم.

- هل أنتِ بخير؟

تساءلت والدتها بصوت حزينٍ باكٍ.

- بخير يا أمي ولكن أودّ رؤيتك أشتاق حضنك ورائحتك. ليت القدر يجمعنا.

- وأنا لست أقل شوقًا يا طفلتي، ولكن هكذا كان الأمر، وهذا ما حدث، والآن لا أريد سوى أن أعلم أنكِ بخير، وها قد علمتُ ذلك، لن أستطيع أن أتكلم معك بعد الآن، تعلمين النار التي أشعلتِها بهروبك. أستودعك الله بكل خطوة.

وانتهت المكالمة بينهما، نظرت جمان إلى شاشة الهاتف كثيرًا والدمع يُغرق عينيها، ولكن هذه هي الحياة التي اختارتها وعليها أن تتحمل.

❀❀❀

بين الحقيقة والزيف، بين الصدق والكذب، بين هذا وذاك
تمضي بنا الحياة إلى المستقبل دون معرفة ما هو آت.

أنزلت سماعة الهاتف وهي تنظر بخيبة أمل، لم يجيبها أحد، يالبؤسها وحزنها الكبير، كيف لها الآن أن تعلم من هذا الذي أرسل تلك الرسالة اللعينة التي بين يديها، ولماذا يهددها؟ وفجأة توقعت من وراء هذه القصة. إنّه أحد أقارب زوجها، والذي يطمع بإرث زوجها الكبير الذي تركه راحلًا إلى السماء منذ سنوات، لكن لا أحد يعلم أن جولي متبناة سوى أهلي، قد يكون حصل على هذه المعلومة من وائل دون قصد، إذا كيف ستُخفي هذا الأمر عن ابنتها!

بعد لحظات من الصمت الذي طال، فكرت لماذا سأُخفي هذا السر عنها؟ من حقها أن تعلم بهذا الأمر الكبير، وهي الآن لم تعد صغيرة، لكن يا رب كيف لي أن أخبرها بهكذا موضوع؟ وكيف ستكون ردة فعلها؟ الكثير من الأسئلة انهمرت على رأسها ولم تستطع أن تجد إجابة واحدة.

أمعنت النظر في الرقم المجهول إنّه من دولتها هي وليس من دولة وائل، إذا هل الرجل يوجد هنا؟ وبسبب ذلك قد علم بهذا الأمر؟ لم يطل تفكيرها أكثر من ذلك حتى رنّ الهاتف الذي بين يديها، وبالصدفة القدر ذات الرقم الذي اتصلت به منذ قليل، يُعاود الاتصال من جديد، بأصابع باردة وقلب يرتجف وصوت مبحوح أجابت على الهاتف:

— نعم من المتصل؟

سمعت صوتًا غليظًا:

– إذَن لقد عدتما من جديد، لقد اتصلت كثيرًا حتى علمت من أحدهم أنكم قد سافرتما، هل تظنين أنّه بإمكانك الهروب بالفتاة وإبعادها عن حقيقة أمرها؟

لم يكن لديها أيّ إجابة ولم تستطع التكلم، كانت تريد فقط أن تعرف ماذا يريد، وما هي غايته من هذا الاتصال والتهديد.

أكمل المتصل ابتزازَه:

– هل تعلمين أنك أعدتِ الفتاة إلى حيث تنتمي؟ وبالقريب العاجل سأعيدها إلى أهلها، بقي القليل من الوقت، انتظري هذا الأمر بنار تحرق قلبك.

تجرأت ميرال أخيرًا:

– من أنت؟ وماذا تريد؟ ولماذا تُهدد هكذا؟

– أريد إرث أخي الذي ذهب إلى فتاة لقيطة لا أهل لها، سوى أنّ أخي أراد أن يفرح قلبك بها لتشعري بالأمومة لا أكثر، يالغبائه! كيف سمح بأن يجعل من فتاة بنت زنى أن تحمل اسمه مدى الحياة؟

– إذَن همّك المال فقط؟ إذا كان كذلك سأتنازل عن حصتي بالكامل لك، ولكن أريدك أن تنتظر حتى أخبر جولي بهذا الأمر من فضلك.

أجاب بصوت ماكر:

– ليس حصتك فقط، أريد نصف حصة تلك اللقيطة التي تقولون إنّها ابنتكما.

– لكن كيف؟ ليس من حقك أن تأخذ من حصتها، إنّ وائل كتب جميع أملاكه باسمها وهو بكامل قواه العقلية، وهو الذي تبناها منذ البداية.

– هذا شَرطي، ولديكِ 48 ساعة لتقرري، وإلا سأخبر تلك اللقيطة بكل ما أعلم، بل وسأعطيها اسم الدار التي جاءت منها، وبتلك الحال لا أعتقد أنّها ستعاود النظر في وجهك مرة أُخرى.

وقبل أن تُجيبه أغلق الخط بوجهها.

أنزلت الهاتف من يدها وهي تتساءل في نفسها: ما هذه المصيبة التي وقعت فيها بعد كلّ هذه السنوات؟ وكيف ستحل هذا الأمر الآن؟ نظرت بالصندوق الذي أمامها، بالذكريات التي داخله، وكان فيه الملف الذي يخصّ كل أمور جولي، وعنوان الدار التي كانت فيه جولي ومعلومات أخرى، خطرت في بالها فكرة رهيبة وهي تنظر إلى هذه الأوراق، وقررت أن تقوم بها على الفور، بعد أن تزور والدتها وتطمئن عليها، ثمّ بعد ذلك ستسافر مرة أخرى من حيث أتت، ولكن دون أن تُخبر جولي بمجيئها، وعلى الفور أعادت الاتصال على الرقم وهي أكثر قوة وصلابة.

ردّ عليها:

– هل بهذه السرعة قررتِ؟

– نعم، ودون مقدمات سيكون ما طلبت، لكن بشرط.

أجابها بسرعة:

– ماذا؟

– ستُعطيني القليل من الوقت حتى أُعيد بعض حساباتي هنا، وأطمئن على وضع أهلي، ثم أذهب وأخبر جولي وتحصل حضرتك على ما تريد.

– لكِ ذلك، ولكن ليس أكثر من أسبوعين فقط.

أغلقت الهاتف هي دون أن تتحدث بشيء أخر، ولملمت شتات أمرها وبعثرة أفكارها، وهي مصممة على ما قررت عليه، ولكن ليس ذلك القرار الذي كذبت بشأنه الآن، قرار أكبر وأشد صعوبة من الذي تحدثت به، أجرت اتصالًا آخر وحجزت على متن أول طائرة، ولحسن الحظ كانت في الغد.

ارتدت ملابسها من جديد، وخرجت إلى العيادة التي تتواجد فيها والدتها، يجب عليها أن تودِّعها، وسيكون الوداع الأخير، وداعًا دون عودة.

❀❀❀

الفصل السادس
نظرة إلى الحاضر

لا أهمية للماضي، عليك أن تنظر أمامك وتسعى لحاضرك،
لأن ما فات لن يعود، وما هو آت آت.

جلست ندى تفكر في رتيل وما تفعله هذه الأيام، وقد زادتها الشمس سمارة، وأكل الدهر من جسدها النحيل، ورغم ذلك كانت ما تزال تحتفظ بجاذبيتها وجمالها حتى وإن كانت أتت عليها الأيام وجار عليها الزمان، ولكنَّ نظرة الكسر التي سكنت عينيها قد بانت كثيرًا مع الوقت، أطلقت ندى آهات حزينة وأدمعت عيناها مجيبة:

— وهل أستطيع أن أمنعها وقد ورثت من والدها كلّ هذا العناد؟

— والدها؟ هل هذا الشيطان يمكن أن يكون أبًا؟ معاذ الله أن يكون ذلك.

— ولكن يظلّ هذا الشيطان هو سبب وجودهما.

أطالت الجارة النظر في ندى وهي مستغربة وتنتظر منها أن تكمل من تقصد بكلمة وجودهما؟

وفهمت ندى تساؤلها، ولم تكن قد أكملت لها قصتها مع إبليس، كانت قد أخبرتها عن قصة الاغتصاب فقط، ولم تتطرق إلى بقية التفاصيل وما حدث بعد تلك الليلة المشؤومة، وقد شعرت الآن أنّه يجب أن تتكلم لجارتها التي عرفتها من سنين، وكانت لها نِعمَ الأخت

وحافظة أسرارها، وقد صدّقتها بكل حرف تكلمت عنه من قبل، وكانت خير صديقة ومؤنسة لها بعد ما تركت الجميع، تنحنحت قليلًا قبل أن تبدأ بسؤالها:

— أنتِ لم تعلمي بقية الأحداث ولا التفاصيل، هل تستطيعين كتم هذا الأمر لحين وقته، ولبعد وفاتي؟

— أبعد الله عنك المنية.

أجابتها الجارة بحزن:

— هل تستطيعين ذلك؟ فأُخبرك بما حدث وتكتمين ذلك حتى إن راودتك نفسك فلن تفكري مجرد التفكير بالبوح.

— كنت وما زلت لا أُخبر أحدًا وعدًا قطعته من قبل، وها أنا ذا أُجدد العهد أمامكِ وأمام الله، على ما قلته لكِ والله خير شاهدًا على ذلك.

— إذَن اسمعي، بعد أن حدث ما حدث في تلك الليلة، نمت طريحة الفراش ليال وأيام، أشكو الحمى والمرض، كانت روحي في مخاض دائم، وكأنها لا تريد الولادة أبدًا، بل كانت روحي تتصعد السماء، فأشعر أنني لست على هذه الأرض، وتارة أخرى أشعر بحريق وكأنني في قعر جهنم، لم أعِ ما يحدث حولي، تختلط الأصوات وأسمع همسات ولمزات، ولكن لم أفهم منها شيئًا، وبعد مدة لم أعلم كيف، صحوت على صوت أمي وهي تردّد آيات القرآن على رأسي وتكفكف الدمعات من عينيها كان كل شيء أمامي ضبابي، ولم أفهم ما تقرأ، لكن حين وصلت إلى قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ

وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)} [سورة البقرة]. وكأن الله علم ما في داخلي من حزن وألم وجزع وخوف، يا رب العالمين يا عالم الغيب، كيف لي أن أصبر على هذه المصيبة؟ ولم تكن مجرد مصيبة، إنّه عار كبير، ألم جسدي يقابله أضعاف من الألم النفسي، يا رب ما حكمتك من هذا الأمر؟ وكيف لي أن أواجه هذا الخوف كلّه؟ كيف سيصدقني المجتمع؟ أهلي كيف سيصدقون؟ يا إله السماوات والأرض ما العمل؟ نزلت دمعات ساخنة أحرقت قلبها قبل وجنتيها، وفتحت عينيها أخيرًا وقد طال إغلاقهما قرابة الشهر، كانت أمامها والدتها مرتدية جلباب الصلاة الأبيض وبين راحتيها كتاب الله، تقرأ فيه بصوت هادئ وخاشع، تأملت أمها بحزن لو اجتمع على جبل لخرَّ الجبل، ونشفت ماء البحر، كيف لهذا القلب الصغير أن يحمل كلَّ هذا الألم؟

توقفت ندى عن الكلام وقد تزاحمت العبرات بعينيها، أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تُكمل، بمحاولة منها أن تختزن ما بقي من دموع داخلها، وضعت جارتها يدها على كتف ندى مواسية لها:

– إن لم تستطيعي أن تُكملي فلا تضغطي على نفسك أكثر غاليتي، أتفهم مقدار ألمك وحزنك الذي أكل من عمرك ما تبقى منه.

هزّت ندى رأسها بمحاولة منها أن تكتم شهقاتها، ولكنّ الألم أبى أن يظل مكبوتًا داخلها، بل تناثر على شكل حبات من الدمع الصغيرة، وما لبث أن تحول لشرارة من الشهقات وشلال من الدموع. احتضنتها جارتها مهدئة إياها وقد كان الموقف في غاية الصعوبة، وسمحت لنفسها أن تذرف تلك الجارة الدموع أيضًا، ولكن بصمت، فالألم أيضًا

مثل الفرح مُعدٍ، طبطبت على ظهرها، ولكن من الذي يطبطب على قلبها الباهت، الذي يعتصر ألمًا وخوفًا من ذنبٍ لم يكن ذنبها أبدًا!

بعد لحظات من المشاعر الأليمة والمتعبة للروح هدأت ندى قليلًا، وبدأت تستعيد القليل من اتزانها، وتعيد التقاط أنفاسها، ابتعدت عن جارتها بهدوء وهي تكفكف ما نزل من دموع، وهمّت أن تُكمل سرد ما حدث لولا أن أوقفتها جارتها بكأس الماء، قائلة:

- لا تُكملي، فأنتِ بحاجة للقليل من الراحة بعد هذا الألم، اسمحي لأنفاسك أن تعيد اتزانها ويهدأ ضجيج قلبك.

- هذا الضجيج يا صديقة العمر أكبر من أن يهدأ، فهو ضجيج الروح، دعيني أُكمل ما بدأت بسرده.

هزت الجارة رأسها وهي صامتة منتظرة بقية الحزن الذي سيُحكى ويُسرد عليها من هذه المرأة المتعبة روحها، عادت ندى للكلام ولم تعد للحياة بعد:

- بعد أن رأيت أُمّي بهذه الحال وقد التهم الحزن قلبها، تحركت قليلًا فقد كنت عطشى كأرض جفَّت المياه في عروقها، فتنبّهت والدتي على حركتي، وتوقفت عن القراءة وقد اعترتها الدهشة والفرح، نظرت إليّ غير مُصدقة أنّني استيقظت بعد كل هذه المدة، أغلقت القرآن وهي تسألني بخوف ممتزجٍ بالفرح: صغيرتي هل تحتاجين شيئًا؟ هل تشعرين بألم؟ لا تتحركي، فقط أخبريني ماذا تريدين، وبماذا تشعرين؟

أريد ماء. أجبتها:

- على الفور يا ابنتي، على الفور.

ذهبت أُمي من جانبي فشعرت بالخوف وتلفت حولي بحذر وكأنّي في بيت غير بيتي، انكمشت على نفسي وأنا احتضن بعضي وكأنني أحمي نفسي، وانتظرت عودة أمي بتيقظ، ولكن ما تزال الآلام بجسدي، أشعر بتفتت روحي وثقل رأسي والكثير من الأوجاع التي لا تُشرح، عادت أمي ومعها أبي وأخواتي واثنين من إخواني الشباب، كان الجميع قلقًا من وضعي ومستغربًا كيف مرضت، دون أيّ أعراض عضوية أو نفسية، بدأ الجميع يتحمد لي بالسلامة ويطمئن عليّ، شربت الكثير من الماء وأنا أريد أن تنطفئ النار التي في داخلي، ولكن عبثًا باءت محاولاتي بالفشل، وضعت الكأس بجواري وأنا أفكر ماذا أقول وكيف أخبرهم عمّا حدث، كيف ستكون ردة فعلهم؟ نظرت إليهم واحدًا تلو الآخر، والكلام واقف في حنجرتي يأبى الخروج، ولكن ما حدث بعد ذلك شلَّ لساني وأخرسني بتاتًا، فقد أتى الشيطان إليّ، يا إله السماوات، هل أتى قاتل روحي ليطمئن عليّ بعد ما فعل فعلته وتركني بحال لا يعلمها إلّا الله وحده! وقف بالقرب من السرير مستفسرًا: ما بال حالي هذا؟ نظرت إليه باحتقار وكره، كأن فرعون بذاته يقف أمامي فرحًا بأنني أصبحت بحال أفضل، أيَّ حقارة وصلت به؟ عاد شريط ذكرياتي إلى الوراء في تلك الليلة، صحيح أنّني لم أراه، ولكن سمعت صوته جيدًا، علمت من هو دون أن أراه، يا ويلتاه كيف له أن يكون حامي العرض هاتكه؟ أغمضت عيني بقوة بمحاولة مني ألا أراه، صرخت بقوة اهتز لها كل من كان بتلك الغرفة حت خُيّل إليّ أنّ الجدران أيضًا تحركت من شدة ألم الصرخة: لا أريد أحدًا هنا، الجميع يخرج، أريد البقاء وحدي.

خرج الجميع وسط دهشة واستغراب مما يحدث لي، لم يكن أنا من صرخ، كانت روحي المتألمة تصرخ، شعرت معها بأنّ أحبالي

الصوتية تقطعت، مثلما كان يتقطع كل ما فيّ من أجزاء جسدي. بعد أن خرجوا شعرت بيد تمسح على رأسي، فتحت عينيّ بحذر وكأنّني أخاف من أن تكون يد الشيطان، لكنّها كانت يد الملائكة، كانت يد أمي تمسح عليّ بخوف وهي تقرأ المعوذات وآية الكرسي، والدموع تنهمر منها، لم أكن أحتاج أكثر من هذا، ارتميت بحضن أمي وبكيت بكاءً مريرًا، بكيت وكأنّي لم أبكِ أبدًا قبل ذلك، كل ما فيّ بكى، حتى شعرت بثقل أجفاني وهي ترتخي معلنة استسلامها للنوم، ولم تفارقني أمي بتلك الليلة، ظلّت بجواري حتى استيقظت، لم تستفسر مني عن أيّ شيء، ذهبت بضع دقائق وعادت وهي تحمل الطعام، لقد فقدت شهوة الطعام، بل فقدت شهوة الحياة، فروحي متعبة جدًّا، بعد ذلك اليوم تغيرت حياتي رأسًا على عقب، أصبحت منعزلة، ولم أعد تلك الفتاة التي يصل صدى ضحكتها إلى آخر المنزل، قطعت كلّ تواصل يربطني مع العالم الآخر، لم تفهم أمي ما حدث لي، ولكن كانت صبورة جدًّا، رغم محاولتها لتفهم ما بي، لكنني كنت أشد صبرًا على ما حلّ بي، فكان الصمت بوحي الدائم، كان أبي يطمئن عليّ بين الفينة والأخرى، وإخوتي كذلك، ولم أرَ الشيطان منذ ذلك اليوم إلى أن حدث ما لم أتوقعه، حين كنت بغرفتي كالمعتاد، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، فتجاهلته ولم تمضِ لحظات حتى انفتح الباب بهدوء، وأطلّ الشيطان برأسه من جديد، لكن هذه المرة صرخت أول ما رأيته، نظر إليّ وبدأ يقهقه، وبالفعل بضحكته هذه تحول إلى شيطان، اقترب مني وهو يقول: لا داعي للصراخ، فليس هناك أحد سوانا، لا تتعبي نفسك، وتستنفذين طاقتك، لقد قلت لكِ منذ تلك الليلة أنتِ اِمرأتي، ولم تصدقي ذلك.

هجم عليّ من جديد، ولكن هذه المرة قاومته بشدة، أطلقتُ صرخاتي الكبيرة، ولكن ما من مُجيب خُيّل إليّ أنَّ صوتي لا يصل وأنّ ما يحدث مجرد إعادة للشريط السابق، والفارق فقط هو أنّني لم أكن بذاتِ الصدمة، وأنّني أصرخ بشدة، استغربت بالبداية أنّ لا أحد يأتي لنجدتي، لكن عبارته أفهمتني ما سبب ذلك، فقد كان وهو يجردني روحي قبل ملابسي يقول:

لا تصرخي بدون فائدة، فلن يسمعك أحد، لقد ذهب أهلك من جديد وقد طال انتظاري كثيرًا لأفرّغ شوقي إليكِ يا حبيبتي، وها قد أتى الوقت المناسب، وأنا أنال ثمرة انتظاري.

كان يثرثر كثيرًا وهو يقبّلني ويقطّع روحي، لقد كنت متقززة منه لدرجة أنّ أظافري كانت تُغرس في جسده، كنت أضربه بقوة، بمحاولة مني أن أبعده عني، ولكن محاولاتي ذهبت أدراج الريح، حين فتك بي مرة أخرى، لكن هذه المرة أنهت روحي وجسدي على آخر رمق، كنت أشعر بلمساته على جسدي كالسكاكين التي تنغرز بي، بعد أن أفرغ ما جاء به من خباثة وفجور وعهر ودناسة، ابتعد عنّي وهو يقول "لنا لقاء آخر يا امرأتي"، رنّت برأسي هذه الكلمة امرأة؟ كيف أكون امرأة ولم أتزوج؟ لا ما زلت عذراء، لن أقبل أن أكون امرأة مُكرهة، لن أرضى بأن أكون زوجة هذا الشيطان، ذهب إبليس بعد ذلك وجررت نفسي إلى الحمام لأغسل روحي من هذا الألم الذي يفتتها، لقد بعثر كلّ ما في داخلي، حطّمني بفعلته القذرة، بعد أن أنهيت حمامي توضأت وارتديت جلباب الصلاة وتوجّهت بكل ما بي إلى الله، وبعد أن سلمت منتهية من صلاتي رفعت يديّ وقلبي معًا وأن أدعو ربّ هذا الكون، يا ألله جئتك وكلي خراب، جئتك بكل ذنوبي وبكل أوجاعي، يا ألله من حزني تكاد

روحي تخرج منّي إليك، إلهي أيُّ لعنة حلّت عليّ! رباه، أنا التي لم أكن مصدر أذى لأحد ولم أظلم عبدًا من عبادك، أخذوا روحي، واحر قلباه من هذا الشّعور، حبيبي يا ألله أنت الملجأ لمن لا ملجأ له، وأنت الغاية لمن تاه، أعلم أنّ ما بي بلاء منك، فيا لطيف ساعدني في محنتي هذه.

دعوت كثيرًا لدرجة أنّني لم أشعر بهذا العالم كلّه، وكأنّني التقيت بالله فعلًا، بُحت له حزني، وشكوت له وجعي، كنت أُكلم الله لدرجة أنّني شعرت بأنّ الله قد أرسل لي ملائكة تُربت على قلبي، بعد هذه الجلسة بيني وبين المنتقم، شعرت براحة كاملة، وقررت أن أبدأ بحفظ كتاب الله، وبالفعل بدأت ولكن من قال إنّ مصيبتي توقفت ها هنا؟ فبعد أيام شعرت بوعكة صحية، وبدأت أستفرغ وأشعر بدوار، بداية لم أعلم ما بي، ولكن حين جلست وفكرت اتضح لي الأمر، خاصة وأنّه من بعد تلك الليلة إلى اليوم قد حدث بعض التغيرات في هرمونات جسدي، وأصبحت أكثر عصبية وتوترًا، جلست وقد جلس على قلبي الهمّ وأصابني الوجوم، هل من المعقول أن يكون في أحشائي قطعة من جمر إبليس؟ يا ربّاه ما هذا الامتحان الذي أنا فيه، ومن فوري ذهبت إلى الصيدلية واشتريت جهاز اختبار الحمل، واتبعت التعليمات التي فيه حتى ظهرت النتيجة، وياللصدمة كانت إيجابية، وقعت على الأرض وقد غشيني من الهمّ ما غشيني، كيف لم أنتبه كلّ هذه الفترة؟ ما العمل الآن وكيف سأتخلص من هذه الورطة؟ لم يكن لدي أدنى فكرة عمّا سيحدث، ولكن أعلم أن عواقب هذا الأمر وخيمة وكبيرة، وكعادتي توجّهت للصلاة والدعاء، فلم يكن لديّ سوى الله لأشكو له ما أنا به، ولعلّه يُلهمني الصواب، لم أجد الحل وخاصة أنّه لا يمكنني الخروج من المنزل والذهاب بمفردي، وأتغيب كلّ هذه الفترة لأجهض الجنين،

جلست أيامًا وليال أفكر ماذا أفعل، وكيف أتخلص ممّا أنا فيه. لم أجد سوى الهروب، يجب أن أهرب مع المصيبة التي في بطني والعار الذي وُضعِتُ فيه رغمًا عني، بالبداية كان الأمر أسهل ولكن الآن ستبان أعراض الحمل ويكبر بطني، وبالفعل قررت ذلك وبدأت أُحضر نفسي لهذا الأمر، وأنتظر الفرصة المناسبة لأخرج من هذه الحياة بأكملها، ولكن إلى أين؟ ومن سيحميني؟ وإلى من ألجأ؟ لم يكن لدي أيّ فكرة، فقط كان يجب أن أخرج من هنا ثمّ أرى ما قد يمكن أن أفعله، بعد أن تجهّزت وحملت ما أستطيع من ملابس وذهب ومال، جاءت اللحظة الحاسمة، وخرجت في تلك الليلة وأنا أتلفّت حولي خائفة من أن يراني أحد.

بهذه اللحظة صمتت ندى ولم تعد تستطيع أن تُكمل، فقد أنهكها التذكُّر، أتعبتها الذاكرة وهي تحمل كلّ هذا الكمّ من الألم والأوجاع، شعرت بها جارتها فلم تحثّها على الكلام، كانت تمسح على رأسها، والدمع ينزل منهما، كان الصمت سيد الموقف، وانتهى الكلام عند هذه النقطة، ولكن ندى وعدت جارتها أن تُكمل لها في يوم آخر.

❁❁❁

"أن يكون عندك أطفال لا يجعل منك أبًا، تماما كأن يكون عندك بيانو لا يجعل منك موسيقارًا".

مايكل لوفين

بعد صمت طويل، والشعور بالسيارة تسير دون توقف قرابة الربع ساعة، توقفت السيارة أخيرًا ونزل من فيها ونزلت رتيل محاطة برجلين من كل جانب واحد، لم تقاوم أبدًا، فهي تعلم أنّه لا أحد لها ولن يسأل عنها أحد، مشت معهم دون أيّ كلمة أو أسئلة، حتّى توقفا في مكان ما، وسمعت طرق الباب بنغمة معينة، تيك تيك تاك تاك، فعلمت أنّه الشفرة المتبادلة بين أفراد العصابة، توضّح من صوت صرير الباب وهو يُفتح أنّه باب قديم متهالك، دفعوها بعنف إلى الداخل، وهم يقولون لها:

— ستبقين هنا حتى نرى ماذا سنفعل بكِ، وهل هناك من يدفع الفدية لكِ أو أنّه لا قيمة لكِ ولا أهمية لحياتك.

اقترب أحدهم وبحث في ثيابها عن الهاتف ليستطيع التواصل مع أهلها، ولكن الغريب أنّها لم تكن تحمل هاتفًا ولا أيّ إثبات شخصي لها، أزال العصبة عن عينيها، وهو ينظر إليها باستغراب كبير متسائلًا:

— ألا تملكين هاتفًا؟

لحظات من الصمت، وأنا أفكر ماذا يريد من الهاتف، وما قصة الفدية التي اشترطوها عليّ. إذَن ليس ذلك الغريب من قام بإرسالهم؟ ما الأمر؟ وما الذي يحدث؟ هل أخبرهم أنّني لا أملك هاتفًا؟

— ماذا تريدون منّي؟ ولماذا تريد هاتفي؟ من أنتم؟

لم أسمح لعقلي بالتفكير أكثر، فبدأتُ أنهال عليه بالأسئلة مباشرة حتى أستطيع التفكير بحيلة ما، إلى الآن لا أعلم من هم وماذا يريدون منّي، يجب أن أكون حذرة، فالأمر أكبر من صفعة تلقاها شاب غريب، وقد سمعته يتكلم منذ قليل عن فدية.

وأنا أفكر رأيته يقترب منّي وينظر إليّ نظرة المحروم، راح ينظر إلى جسدي ويدقق به، وكأنّه يفحصني بعينيه، لقد كنت أتعرض لهذه النظرات دائمًا، خاصة أنّني غير محجبة ولدي جسد متناسق يلفت انتباه أي شخص، وأملك من الطول ما يميزني عن سواي من الفتيات، حين اقترب منّي إلى هذه الدرجة شعرت بالخوف وعدم الاطمئنان، وخاصة حين وضع يده على كتفي واليد الأخرى على قميصي، كان الأمر مخيفًا، وحين همّ بالاقتراب أكثر، فجأة أتى أحد رجال العصابة، ويبدو أنّه أكبرهم، صاح مزمجرًا:

– ما الذي تفعله أيّه الغبي؟ لقد أفهمتك من قبل أنّ عملنا فوق أيّ رغبات أخرى، هل تريد أن تُفسد الأمر وتجعل منّا جثثًا عند المدير؟

ابتعد الرّجل مباشرة، ولكنّه لم يزل ينظر إليّ بنفس النظرات، وجّه حديثه إلى الرجل، قائلًا:

– ألا ترى فتنة هذه الفتاة؟ وكيف تملك جمالًا لم يسبق أن رأيناه عند أحد؟ يكفي خضار عينها وكأنه حبتا زيتون يلمعان تحت الشمس.

أطلق صديقه ضحكة ساخرة، وهو يقول:

– لقد أصبحت شاعرًا منذ رأيتها! (ثم أكمل بجدية كبيرة) تحكّم برغباتك وغرائزك، لا نريد أيّ خطأ، أنت تعلم أنّ هذه العملية

ستقلب حياتنا بأكملها، بعد إتمامها لك الفتاة، ولكن الآن لن تقترب منها، أفهمت؟

- حسنًا حسنًا، لن أقترب، ولكن ستبقى على وعدك، الفتاة لي حين ننتهي من هذه العملية اللعينة، ولكنّها لا تحمل هاتفًا ولا تخبرني أيّ معلومة عن أهلها، كيف سنتمكن من الوصول إليهم؟ وهل سنستطيع أن نجد منها فائدة؟

اقترب الرجل الآخر منّي وتكلم معي بشكل غريب، وكأنّه يتحدث عن فتاة أُخرى:

- نحن نعلم من أنتِ، ومن هو والدك الكاتب الكبير، لا داعي لأن تخفي الأمر، صحيح أنّه توفي منذ فترة طويلة، ولكن والدتك ما تزال على قيد الحياة وتملك ثروة كبيرة، لذلك ستدفع الكثير لأجلك لتعودي إليها سالمة حيّة.

وقفت مدهوشة من كلامه، أبي كاتب كبير وأمي ستدفع؟ من أين لها المال لتدفع لهم ما يريدون، وهي لا تملك ثمن الطعام! هل قد أخطؤوا بيني وبين فتاة أخرى؟ وكيف سأفهمهم أنّني لست بفتاة تملك الثروات كما يظنون؟ ما هذه المشكلة التي تورطت فيها وكيف سأخرج منها؟ تجرأت أخيرًا وقلت لهم:

- لكن أنا لا أب لي!

التفت الاثنان بغرابة، وبعد ذلك أطلقا ضحكة مجلجلة، وقال الكبير منهما:

- هل أتيت من السماء؟ أم أنّك أصبحتِ مثل المسيح لا أب له؟ يبدو أنّك تريدين أن تخرجي من هنا دون أن نأخذ شيئًا، ولكن إن لم

نأخذ من أهلك المال، سنأخذه من جسدك الجميل الذي يشبه عارضات الأزياء.

— لكن لقد وعدتني أنّها ستكون لي حين ننتهي من العملية.

أجاب الآخر بعصبية واضحة.

— ستكون لك وبعدها سنأخذ أعضاءها ونبيعهم، كما فعلنا بالآخرين.

كان كلامهم قاسيًا ومخيفًا لدرجة أنني انتفضت من الداخل، وأصابتني قشعريرة كبيرة في جسدي، ولم أدرِ ما العمل وماذا أفعل، ومن هذه الفتاة التي يعتقدوني هي، يبدو أنّها إحدى الثريات اللواتي يملك أهلها المال الكثير، آه من هذه المصيبة التي وقعت فيها، ولا أرى لها مخرجًا سوى معجزة من الرب.

❀❀❀

وجّه لنفسك كلّ يوم هذا السؤال: هل أنا إنسان؟ لتعرف الإجابة عليك أن تتذكر هل ساعدت شخصًا اليوم؟ هل جبرت خاطر مكسور بكلمة؟ هل كنت جسرَ أمل لأحدهم؟ بعد ذلك ستعلم جيدًا هل أنت إنسان فضلة في هذا المجتمع.

بعد آخر لقاء بين فارس وخالد، فكّر فارس جيدًا، وقرّر أن يكون له بصمة في هذه الحياة، لعلّه يشفي جرح أحدهم، أو يكون علاجًا لإحداهنّ، وبالفعل قرر وبدأ بالتنفيذ، ذهب إلى الهلال الأحمر وبدأ بتقديم طلب تطويع للخروج إلى المخيمات والناس التي تحتاج العلاج الطبي، وبعد أن أنهى الإجراءات المطلوبة، اتصل برفيق المواقف والأيام، وبعد أول رنة أتاه صوت خالد وبعد السلام والسؤال عن الأحوال، بدأ خالد بالكلام:

— أين أنت يا رجل، مذ آخر مرّة رأيتك بالجامعة وأخبرتك عمّا رأيته ذهبت وتركتني حائرًا، وشعرت أنّ قراري لم يكن بمحله، قد لا تكون هي ذاتها فتاتك، وربما شُبّهت عليها، خاصة وأنّني رأيت فتاة رثة الحال والشكل.

— دعنا من سيرتها يا خالد، فقد أغلقت صفحتها إلى الأبد ولا أريد أن أسمع عن أخبارها بعد اليوم، اتصلت بك لأخبرك بأمر آخر.

صمت الاثنان، فمن غير المعقول أن يكون كلام فارس صحيحًا، لو تكلّم هذا الكلام لغير خالد كان من الممكن أن يُصدّقه، ولكن خالد أدرى الناس بفارس وعقله وحرارة الحب لديه، كيف أغلق صفحتها وهي كانت الكتاب بأكمله؟ هذا الكلام ليس صحيحًا، هكذا كان يحدث خالد نفسه، أمّا على الخط الآخر فقد كان فارس يتكلم من وراء قلبه، هو

يعلم جيدًا أن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون مجرد صفحة وطُويت، لقد عاش سنوات من الحزن والألم بعد فراقها، فتاة مثلها وبشخصها لا تُنسى ولا تُعاش فترة من العمر، هي العمر بأكمله، عاد فارس إلى الواقع حين أتاه سؤال خالد:

- ما الذي ستُخبرني به يا صديقي؟

- لقد قدمت طلبًا للتطويع بالهلال الأحمر، أريد الذهاب لعلاج الناس وأكون تلك اليد الإنسانية التي تمسح الأوجاع، لعلّ جرحي يُشفى، وإن ترك ندبة في القلب، لكن يكفي أن يلتئم ولا ينزف بين الفينة والأخرى.

- وجامعتك يا فارس؟ هل ستتركها بعد كل هذا التعب لسنوات؟

تساءل خالد بدهشة عارمة.

- دراستي سأكملها بجانب عملي، ولكن لا بدّ لي من هذا العمل يا صديقي.

سكت خالد قليلًا قبل أن يتكلم، فهو يعلم أنّ صديقه عنيد ولا يفعل إلّا ما يحلو له، واتصل به فقط لإخباره، وليس ليأخذ برأيه، ثم خطرت له فكرة فسأله:

- أين هذا المخيم وكيف سيكون نظام العمل؟ هل هناك وقت طويل أو العمل بشكل يومي؟

- لا، نظام العمل أنت تختاره بما يتناسب وقدراتك ووقتك، لا مشكلة عندهم، فكرة العمل قائمة على الدافع الإنساني فقط، إذ لا مردود مادي، وقد اخترته لهذا السبب، أنا متأكد أنّ هذا العمل سيجعلني

بحال أفضل وخاصة أنّ تخصصي يتبع لقسم الأطفال، سأكون سعيدًا جدًّا وحولي هذه الملائكة.

- إذَن سأتقدم بطلب لي أيضًا، لقد أعطيتني جرعة حماس لأجل هذا العمل، ما أجمل أن نستطيع خدمة الناس، ونقضي حوائجهم، ولكن ماذا يُناسبني من العمل؟

أطلق فارس ضحكة صغيرة وهو يقول متعجبًا:

- ترددت كثيرًا قبل أن أخبرك عن الأمر مخافة أن تردعني عنه وتمنعني من هذه الخطوة، ولكن أراك اقتنعت بالفكرة وتريد منافستي فيها!

- ولمَ لا يا رفيق الدرب؟ هل هناك منزلة أعظم من هذا العمل؟ لم تجبني ماذا يمكن أن أعمل وبأي تخصص يمكنني أن أتطوع؟

- أراك تحط من قدر نفسك كثيرًا! أنت أعظم طبيب نفسي رأيته، ما أكثر الناس التي تحتاج يدًا تربت على قلبها وتمسح عنها وجع الأيام والمصاعب! عملك نفسي وعملي جسدي، سنفعل ما بوسعنا لنمسح الوجعين.

- إذَن لنفعلها يا رفيق الدرب، ولنكن سويًّا في هذا الأمر.

أغلقا الاثنان الهاتف وقد اتفقا على موعد قريب للذهاب في أول جولة إنسانية، ولتبدأ حياتهما الجديدة، ولكن ماذا يدور في خلدك يا فارس؟ ولماذا قررت أن تبدأ هذا العمل؟ وما هدفك الرئيس من التطوع؟

❀❀❀

بماذا نبدأ يا قلب؟ كل ليلة تبدأ الندب، وتفتح أوراقك
وتبعثر ما نخفيه بالنهار، تتماسك في الضوء وتنهار بالعتم،
تمثّل الفرح وداخلك مهزوز مهزوم، يا لجبروتك وعظمتك
أيّها التَّامُور.

حاولت أن تنام قدر المستطاع لتبدأ يومها بنشاط كبير، لم يكن سهل عليها أن تستيقظ مبكرًا وهي التي اعتادت على الترف والحياة المخملية، استيقظت جولي وتسحَّبت من سريرها بهدوء ملكي، بعظمة الأميرات التي نسمع عنهم في الروايات والمسلسلات، كانت ترتدي فستانًا وردي اللون، فيه بعض الفراشات والورود، شعرها الحريري ينساب بفوضويته على ظهرها، لم يكن يحتاج إلى أن يُسرّح فقد كان جميلًا بطبيعته، يغفى على ظهرها بأريحية تامة، مسحت عينيها بهدوء بمحاولة منها أن تمسح آثار النوم وتبعد النعاس قليلًا، كانت الشمس تستمد ضياءها من جمال عينيها، كانت تبدو بهذه الثياب فتاة صغيرة لم تتجاوز أعوامها التسعة، ولكن جسدها كان جسد امرأة لعوب يضاهي بجماله أجمل نساء الأرض، أمّا وجهها فقد سرق من القمر نوره، تقف أمامه اللغة بحروفها صامتة عاجزة عن وصفه، يجب أن تراه العين لتطرب به وتفهم ما يملكه من جمال، جمال يُطلق عليه الفتنة.

بعد معركة من المحاولات لإعادة النوم إلى عينيها وقفت خاسرة، فقد هرب النعاس وحلّ محلّه الحماس لهذا اليوم المنتظر، وبدأت يومها كالمعتاد، فتحت ستائر النوافذ ونظرت إلى السماء كان المطر يعزف سمفونية جميلة، نظرت إليه وهي التي لا تقاوم المطر، ولا رائحته التي يعجز أكبر صانع عطور أن يخلق مثلها. لم تستطع أن تبدأ يومها دون فنجان قهوتها، وخاصة مع عبق رائحة المطر، كانت تملك طريقة

مميزة بصنع القهوة، فهي لا تشربها كيفما كان، بعد أن وضعت الماء على النار أضفت له حبًّا من الهيل، وتركته يغلي جيدًا ثمّ أفرغت البن في الماء وجعلت النار هادئة جدًّا حتى شعرت برائحة القهوة تعانق رائحة الشتاء، كانت عاشقة للقهوة وللمطر وللشتاء، عاشقة للحياة بأكملها رغم كل ما حدث، لم تسمح لأيّ أمر يمنعها من أن تكون ملونة.

بعد أن ارتدت ملابسها، جلست على شرفتها وهي تسمع صوت فيروز يرتّل أنغام الحياة، كانت ترتشف القهوة وكأنّها تقبّلها، سمحت لنفسها أن تستمتع بيومها رغم أنّه اليوم الأول في عملها التطوعي، كانت فيروز هي صباح العاشقين، صباح الأمل والحياة، من لم يسمع فيروز صباحًا مع قهوته وحبات المطر والكثير من الياسمين لم يعش بعد.

لم يكن صوت الصباح يخرج من أحبالها الشوكية، كانت فيروز تغني بقلبها، تمتلك جوهرة حقيقية تكمُن في تلك الحنجرة التي أطربت الجميع لسنوات، وما تزال تعيد للصباح توازنه اليومي، لم يكن يكتمل يومها دون أن تسمع جارة القمر، التي كانت وما زالت وستبقى على مرّ الزمان تمتلك قدرة فائقة لتعديل المزاج وتحسين النفسية، تساءلت في نفسها لو لم تكن فيروز تُغني كيف سنبدأ صباحنا؟ لم تفكر كثيرًا وأرادت لنفسها بعض الهدوء والطمأنينة، فأرخت جسدها الغض وسمحت لأنفاسها أن تهدأ وهي تستمع لفيروز تغني:

"من زمان أنا وزغيرة
كان في صبي
ييجي من الحراش
ألعب أنا وياه
كان اسمو شادي"

أطفأت المذياع مع آخر كلمات جارة القمر، وآخر رشفة من القهوة، وهي تفكر بهذه الأغنية التي رغم بساطتها تُحاكي الواقع المرير الذي نعايشه، لم تكن مجرد أنغام تُعزف، كانت تُرسل هذه الكلمات مع الصوت لتعبث بأوتار القلوب، كان مضمون هذه الأغنية أكبرَ من مجرد كلمات تُسمع، نعم تمثل بأغنيتها هذه قصة حدثت وما زالت تحدث، تجسد مأساة كبيرة، تتحدث عن هذه الحروب التي لا يذهب ضحيتها إلا الأطفال.

كانت تتحدث عن حركة الزمان والمكان، بتمثيلها براءة الطفولة، وكيف كانت تلعب مع طفل آخر بمقتبل العمر في الأحراش، حيث الهواء النقي والطبيعة، ناقشت قضيتها بغنائها، كانت فيروز تسرد حكاية طفولة في لوعة واصطبار توضّح أنّ الاقتتال والعنف يذهب ضحيته الصغار، فعادة الصبيان الصغار أنهم يذهبون ليشاهدوا ما يحدث من اقتتال، يقتربون دون حذر، وهي التي استولى عليها خوف الطفلة مما سيحدث، فتبدأ بالصراخ، لكي يعود ولا يقترب من الخطر، ولكن صوتها يذهب أدراج الرياح، ويموت شادي، ذلك الطفل الذي لم يعلم ما ذنبه ليُقتل، ويأتي موسم الثلج ويذهب مرات عديدة، ولا يعود شادي، ذلك الطفل الصغير، يبقى صغيرًا، وهي فقط التي تكبر، تتخيله بكل شتاء أنّه ما زال هنا يلعب الثلج.

لقد تطوعت جولي في هذا الأمر بسبب تعلقها بالأطفال، كانت كل يوم تشاهد الأخبار وماذا يحدث لأولئك الصغار، كيف كانت الأنقاض تقضي عليهم وعلى أحلامهم، فتدفن آمالهم بالغد الجميل تحت الركام مع أجسادهم، لم تكن تعلم ما حجم المخاطر التي تحيط بها من كل جانب.

نهضت وهي تذهب إلى غرفتها وتحمل ما قد جهّزته من ألعاب ودمى لأولئك الذي نزحوا عن أوطانهم الصغيرة، عن أحلامهم الكبيرة، وكانت السيارة التي طلبتها قد وصلت، حملت ما تستطيع حمله ونزلت لتملأ السيارة بكل ما اشترته من قبل لأولئك الأطفال، وبعد ذلك أعطت العنوان للسائق لينطلق بها تحت أجواء البرد والمطر إلى ذلك المخيم اللعين الذي أصبح مأوى من أُخرج من منزله قسرًا.

❁❁❁

إياكَ أن تبرح قبل أن تصل، حطّم القيود، واكسر القوانين
والقواعد، قاتل، ناضل، حارب، استشهد؛ ولكن لا تتوقف
قبل أن تنال ما تُريد.

بعد تلك المكالمة التي أجرتها مع والدتها أرادت أن تفهم ما يجري حولها، هي تعلم أنّ هذا ما سيحدث، ولكن شعرت أنّ الوقت لم يئن بعد، عادت إلى منزلها، كعادتها حين تشعر بالضيق تذهب وتتسوق، ولا تعود قبل أن تشعر أنّها بدأت تستطيع التفكير، كان صرف المال هو الطريقة الوحيدة لإعادة الهدوء إليها، وكأنّها تنتقم من كل ما حولها، وضعت الأكياس على الأرض وهي تفكر ماذا ستفعل بكل هذه الأغراض، وهي التي لا تحتاج لشيء، لم يثمر تفكيرها بشيء، رمت نفسها على السرير دون أن تنزع عنها ملابسها وهي تفكّر بما يجب أن تفعله الآن، وكيف يجب أن تحمي نفسها؟ تذكرت صوت والدتها وهي تبكي والشوق ظاهر بنبراتها، فتجمعت سحابات عينها وسمحت لهما بالهطول، سنوات طويلة لم تعتمد بطريقها أيّ صداقات ولا علاقات روح، فقط كان لديها علاقات العمل، ولولا صعوبة عملها لم تكن تسمح لنفسها أن تنشئ أيّ علاقة، وذلك يعود لما قاسته من آلام وهي صغيرة، لقد تعقدت من فكرة العائلة، تتذكر جيدًا كيف الرجال يتعاملون مع نسائهم في قريتها البعيدة، رغم جمال القرية ولكن يا بشاعة أفعال أهلها! لقد كانت تحكمهم العادات والتقاليد القديمة، لم تكن الفتاة عندهم تُكمل الرابعة عشر إلا وقد تزوجت، كان الأمر أشبه بكارثة بشرية، فترى طفلة تحمل بطفلة، وترى الحرمان في أعينهن، لكن جمان لم تقبل بهذه القيود والقواعد منذ كانت صغيرة، فبعد أن سمعت ورأت ما يحدث لفتيات قريتها اتخذت قرارها ألّا تكون رهينة

هذه العادات، خاصة وأن الثأر عجّل من أمر زواجها، ففي الحادية عشر من عمرها أخبرها أبوها أنّه أعطى كلمة لعائلة المقتول.

كيف هذا الأمر يتم هكذا؟ هل هي سلعة تباع وتشترى! بسبب خلافات لا علاقة لها بها يتم وضعها في زنزانة الزواج، نعم زنزانة طالما ستدخلها دون موافقتها وبالإجبار، لقد بلغت جمان قبل سنّها وذلك بسبب حرارة الجو والعوامل المحيطة بها، وتقرر زواجها بعد بلوغها بعام، ولكنّها كانت أقوى ممّا يظهر على جسدها النحيل وبشرتها السمراء، كانت تشّع جاذبية وتملك عيني بدوية، جمالها كان رغم بساطته ملفتًا، مريحًا.

حزمت جمان حقيبتها وخرجت دون أن تلتفت رأيها ذهبت دون أن تلتفت وراءها، أو تنظر ماذا سيحدث لها، قررت أن تبدأ حياتها بنفسها، ومنذ ذلك الوقت عانت ما عانته من جوع وعطش وذلّ وإهانات، لكنّها كانت تملك يدين من حرير، فقد تعلمت وأتقنت فن صناعة الملابس، لذلك بدأت من هذه النقطة وذهبت بعيدًا عن منطقتها وأهلها، وكانت تبحث مرارًا وتكرارًا عن أي مكان يأويها أو يطعمها مقابل العمل لديهم، عملت لدى دار للخياطة عدة سنوات وكانت تبدع وتتقن عملها لدرجة أنّه لا أحد يصدّق أن هذا العمل لفتاة من عمرها، كان ينقصها فقط من ينتبه لموهبتها الفذة، وفي أحد الأيام زار الدار مالكها، وانتبه لخفة يدها وإتقان عملها، ومنذ الوهلة الأولى قرر أن ينمّي مهارتها، فهي كنز بحد ذاته، بعد فترة وجيزة أصبحت هي من ترأس العاملات الأخريات وقد بلغ عددهن أكثر من عشر فتيات يتعلمن منها الخياطة، وكانت تجمع خلال الوقت المال وكان المدير سخيًّا معها ويعطيها أكثر من غيرها، فقررت بعد عدة سنوات من جمع المال أن

تفتتح ورشة أو مشغلًا خاصًّا بها، وتبدأ بالعمل بمفردها، دون نكران فضل مديرها الذي كان شابًّا في مقتبل العمر، وورث عن والده الملايين، بداية شعر بالأسى لتركها العمل في داره، ولكن بعد ذلك دعمها وكان خير شخص لها، فقد ساعدها من خلال نشر اسمها المستعار بين معارفه، فقد اختارت لنفسها اسم ملك.

في هذه اللحظة وهي مستلقية على سريرها المخملي خطر لها أن تتصل بمديرها السابق وتأخذ بنصيحته وترى ما يمكنه أن يساعدها به، ولكن كان لا بدّ قبل ذلك أن تعترف له بحقيقة اسمها وهويتها، فكرت عدة مرات، اتصلت به، بعد عدة رنات أتاها صوته على الطرف الآخر:

- أهلًا ملك، كيف حالك؟
- الحمد لله، وأنت؟
- بخير بسماع هذا الصوت، وسأكون أفضل إذا رأيتك.

تبسمت وهي تسمع تلميحاته الدائمة بعاطفته تجاهها، ولكنّه لم يبادر إلى الآن ويخبرها بأي تصريح، دائمًا ترى في عينيه نظرة الإعجاب والحب، وتتلقى كلماته اللطيفة بصدر رحب، كيف لا وهو أول من سندها وكان لها الدرع الحامي دائمًا! عادت لوعيها وهي تسمعه يناديها، فأجابته وهي ما تزال على ذات الابتسامة:

- سأتفرغ اليوم لتصبح بحال أفضل ما رأيك؟

أطلق ضحكة قصيرة وهو يجيبها:

- هل من المعقول أن تتفرغي لأجلي؟ ما هذا الشرف العظيم لي!

— يا لك من متواضع، أنت ما تزال رئيسي في العمل، وإن أصبح لدي اسمي الخاص، تبقى في البال.

ابتسم بشوق وهو يسمع كلماتها التي أشعرته وكأنّه يملك العالم بأسره، وأجابها:

— إذَن هل نلتقي في ذات المقهى، أم تريدين مكانًا آخر!

— أود مكانًا هادئًا، لدي ما أخبرك به، ومن الأفضل أن يكون المكان بعيدًا عن الضجيج.

— إذَن مسافة الطريق وآتي لاصطحابك، فلتتجهزين ريثما أصلن لن أتأخر.

أغلق الهاتف وهو يشعر أنّ السماء ابتسمت له باتصال هذه الفتاة، فخرج مسرعًا وكأنّه يخاف أن يتأخر فتلغي الموعد، لا يريد أن يفّوت هذه الفرصة سيطلبها رسميًّا، وخاصة أنّهما سيكونان في مكان بعيدٍ عن زحام الناس.

وصل إلى منزلها وأعطاها إشارة بذلك، جلس ينتظرها في السيارة وهو ينظر إلى حبات المطر التي تتساقط على زجاج السيارة بهدوء، كان الجو باردًا قليلًا، والأرض بدأت ترتوي بعد ظمأ الصيف الطويل، رآها تتجه إلى سيارته وهي تمشي ببطء شديد، وكأنّها تقدم رجلًا وتؤخر أخرى، يظهر التردد على قدميها قبل وجهها، لم يعهدها هكذا من أول مرة عرفها، بعد ذلك كانت دائمًا صاحبة الابتسامة الجميلة والقلب الحنون، كانت عطوفة على الجميع وتراعي مشاعرهم، وصلت إلى سيارته وانطلقا بعد أن ألقت عليه السلام، وخيّم الصمت على كليهما، وقد بلغ من الهدوء ما بلغ، كلاهما فضّل الصمت حتى يصلا إلى

وجهتهما، وحين وصلا ترجلا من السيارة، كان المكان يشبه حارات دمشق القديمة بتقارب شوارعها وجمالها، قالت له جمان وهي تتمنى ألا يعارض:

— هل نستطيع السير تحت المطر دون الجلوس بأي مكان؟

— ولكن أخاف من تعرضك للبرد ومن ثم المرض، دعينا نجلس داخل مكان دافئ.

— رجاءً دعنا نسير فقط، لا أريد الجلوس، فقط السير.

نظر إليها وهو يشعر بالعجز أمام عينيها ونظراتها التي يملؤها الرجاء، ولم يستطع أن يرفض طلبها، ولكنّه قال لها:

— لك ذلك، لكن دعينا نأخذ ما نشربه ويدفئ علينا هذا البرد.

طلب لها شوكولا ساخنة، كما عهدها منذ التقاها تعشق أن الشوكولا، وكأنها تُريد أن تبقى في طفولتها الدائمة، ولا تخرج إلى عالم الكبار لدرجة أنّها لا تتذوق القهوة ظنًّا منها أنّ القهوة وجدت للكبار فقط، ومحرّم عليها أن تشربها، عاد إليها وهو يحمل كوبًا من الشوكولا وكوبًا من القهوة له، سارا متوازيين دون كلام بضعة من الوقت قبل أن يبدأ كلامه:

— أريد أن أخبرك عن أمر ما، وهذا الأمر لم أستطع البوح به من قبل، ولكن أعتقد أنّه حان الوقت الذي يجب أن نتكلم فيه.

نظرت إليه وهي ترى شعاع الحب يخالطه شعور بالتوتر والخوف من ردها، علمت ما يريد، ولكن يجب عليها أن تخبره حقيقة الأمر قبل أن يتورط بها، فتوقفت وأمسكت يده وأطرقت رأسها إلى الأرض، كانت

المرة الأولى التي تمسك يد رجل، ولكن كانت تريد أن يصل شعورها قبل كلامها، ثم أطلقت تنهيدة كبيرة، وهي تقول:

— قبل أن تبدأ ما تريد قوله هناك ما يجب أن أعترف به لك، وأريد نصيحتك قبل أيّ شيء.

تملكه شعور جميل وكأن لمستها كانت عبارة عن تيار حب يسري في عروق يده، وبدأ قلبه ينبض بسرعة، كان الشعور أجمل من أن تصفه بضعة جمل، دائمًا ما تكون المرة الأولى لكل أمر تشبه الأساطير، تشعر بالعالم يلوح لك بيديه، ويصنع أجنحة من حولك فتطير، تشابُك يدها بيده كانت أشبه بعزف مقطوعة على عود قديم، شعر أن بيتهوفن يعزف من حوله سيمفونية ضوء القمر، كانت السماء أيضًا تبتسم له، مشاعره كانت أكبر من ذلك، لم يكن يسمع سوى دقات قلبه وخُيّل إليه أنّ كل من في الأرض يسمع هذه الدقات، من جرّب اللمسة الأولى والقبلة الأولى والحضن الأول من معشوقه سيفهم ما يمر به هو الآن، ومع ذلك بدأ حثّها على الكلام لتكمل ما تريد قوله:

— إنّني أسمعك، قولي ما تريدين قوله.

رفعت رأسها ونظرت إلى عينيه مباشرة تريد أن ترى ردة فعله على ما ستقوله:

— بداية اسمي ليس بملك، إنّني جمان، وأنا من قرية بعيدة، حيث جمال أرضها وقيود أهلها، هناك في قريتي يزوجون بناتهم في عمر صغير، يقتلون أحلامهم البريئة ويسرقن طفولتهن الأولى، أمّا أنا فقد كنت ضحية ثأر بين أهلي وأهل القتيل، وكان شرطهم أن ينتهي هذا الثأر بالزواج بين العائلتين كي لا يظل نهر الدم متدفقًا، ولكن ما ذنبي أنا لأدفع هذه الدية؟ ما ذنبي لأُسرق من بين أحلامي

وألعابي، لا أريد حياة بائسة، هربت من منزلي وأنا مصرة أن أهزم الظروف والتقاليد والعادات، كيف لهم أن يزوجوني وأنا في عمر الثانية عشر؟ وبعد خروجي من تلك القرية تعرضت لعدة محاولات من الاغتصاب والذل والإهانات إلى أن التقيت بك في دار الخياطة التي تملكها أنت، وبعدها تعلم بقية القصة، واليوم أتاني اتصال هاتفي من أقربائي يُخبرني أنّه قريب منّي وأنّه سيمحي العار الذي خلفته من ورائي، والآن هذه قصتي باختصار، ولا أستطيع اتخاذ أي قرار، لا أعلم ما الذي دفعني لأطلب مشورتك وآخذ بنصيحتك، أريد منك المساعدة بما يجب عليّ أن أعمله، أعلم أنّني كذبت بموضوع اسمي، لكن لم أكذب بأمر آخر، وأنت لم تسألني من قبل عن حياتي.

كان يسمع كلامها وهو يشعر بمشاعر مختلطة لا يعلم ما ينتابه، هل الحزن لما تعرضته هذه الفتاة المسكينة ولما عاشته من آلام؟ أم الغضب لأنّها كذبت عليه ولم تخبره من قبل عن حقيقة أمرها؟ هل يُكمل بمشاعر الحب الذي يكنّه لها؟ صمت برهة من الزمن وأكمل السير وهو ممسك بيدها، يشعر تجاهها بالكم الرهيب من المشاعر والمسؤولية رغم معرفته الآن بكل هذه الأمور، لكنّه لا يريد أن يترك يدها، وبعد ذلك الصمت الذي طال، طغى الحب على أي مشاعر أخرى، فوقف ووضع يده الأخرى حول رقبتها ورفع رأسها، نظر طويلًا إلى تلكما العينين ونقل نظره إلى شفتيها وتأمل شعرها الأسود الذي بلله الماء، كانت بنظره أعجوبة الجمال، تملكته رغبة شديدة بتقبيل تلك الشفاه الوردية، شعر بالضعف أمام تلك النظرات، ولكنّه قاوم شعوره كلّه ولم يستطع مقاومة غمرها بين ذراعيها، وهو يقول لها:

– لم أتخلَّ عنك من قبل ولن أتخلى اليوم، سأساعدك، ولن يستطيع أحد أن يمسّكِ بسوء، لا عليكِ، اهدئي فقط، وثقي بي.

كانت تشعر بدقات قلبه القوية وبلمسات يده على شعرها، لم تقاوم حضنه لها، فقد كانت تشعر بضعف كبير وبحاجة ماسَّة لهذا الحضن، لقد حُرمت منه زمنًا طويلًا، فلماذا تقاوم الآن! علمت أنّها ستكون بمأمن معه رغم أنّه لم يبح بعد بمشاعره تجاهها، ولكنّ النظرات تتكلم، اللمسات تُفهم. هي تخاف من هذا الحب لا تريد أن تتزوج الآن، ليست مهيئة لتلك الخطوة بعد، وحمدت الله أنّه لم يخبرها بشيء، فالآن هناك ما يجب معالجته أولًا، وبعد ذلك سترى ما يمكن عمله.

❀❀❀

عندما تنتهي لهفة البدايات، وتتوقف عن الدهشة
بتصرفات من تحب، ويصبح أمامك بسيئاته وحسناته، حين
لا تجد سببًا لمشاعرك العاشقة تجاهه، حين يصبح أقربهم
روحًا لك ملجأك الدائم، هنا يبدأ الحب الأعظم.

في أحد الأيام طرق الحب باب قلبها على غير العادة، فمن المعروف أنّ الحب يقتحم حياة الأشخاص دون استئذان، أمّا في حالتها فقد كان الحب مختلفًا، خفق قلبها منذ اللحظات الأولى دون مقاومة هامت به وهام بها، عاشا الكثير من الحب والكثير من الذكريات التي تحتاج معاجم الأبجدية لتستطيع أن تصف تلك الأوقات حين تلتقي الأرواح ويذوب الحبيب داخل جسد المحبوب، كان حبهما عذريًّا، لم يجمعهما الإثم يومًا، رغم كل الفتن التي كانت تُثار من حولهما، ولكنّ العشق في داخلهما كان ينهاهما عمّا دون المشاعر.

مرت علاقتهما بالكثير من المعارضات والنزاعات، ولكنّهما قاوما كلّ ذلك ولم يفترقا، كانت مشكلتهما معارضة أهل الفتاة على الحب، لم يكن هناك سبب للرفض في هذا المجتمع الشرقي سوى خطيئة الحب على الفتاة، محرّم في مجتمعنا العشق على الأنثى، محلّل على الذكر، وقف أهلها في وجهها كثيرًا، تعرضت للضرب والضغط الكثير، لكنّها لم تحرك ساكنًا ولم ترضَ أن تتنازل عن قضيتها، نعم الحب قضية، صحيحٌ أنّها لم تربحها إلى الآن، لكن ذلك لا يمنعها أن تناضل لأجلها، هي منذ أن أعلنت الحب خاضت حربها ضد العادات والتقاليد لم يمنعها مانع من أن تناضل وتحارب، فإما أن تتنصر وإمّا أن تستشهد، وفي كلتا الحالتين ستكون الرابحة، فالموت في سبيل الحب أعظم مراحل الهيام.

وقف والدها ذات يوم وهو يصرخ بوجهها:

- لن تتزوجيه حتى بعد وفاتي، لن أقبل لابنتي أن تتزوج بهذه الطريقة حتى لو لم تتزوجي أبدًا، لتفهمي ذلك جيدًا.
- ولكن لماذا؟ هل هناك ما يمنع؟ ما الأسباب التي تجعلك تقف أمام الحلال وتمنعه رغم كل المواصفات التي يتحلّى بها؟

كعادته لم يكن لديه جواب، في كل نقاش كان يقف عاجزًا أمام إصرارها القوي على هذا الشاب، لم تكن مثل أيّ فتاة، ستنال ما تريد، شاء المجتمع أم أبى، ستدافع عن حبها دائمًا حتى تتوج به زواجًا، وتثمر أبناءً وبناتًا.

أغلقت الكتاب وهي تتأمل بهذه الرواية التي أعادت قراءتها مرات عديدة وهي تعلم نهايتها، ولكنّها ما تزال تقرؤها وكأنّها المرة الأولى، كان زوجها كاتبًا من الطراز الرفيع وله بصمته في الأدب والكتابة وحازت روايته الكثير من الجوائز، كانت معه بكل خطوة مثلما كان هو معها.

ولكن الآن حان وقت كشف الحقائق ورفع الستار، يجب أن تهيئ نفسيتها لتخبر جولي بما يجب أن تعرفه، وإن كان في ذلك خسران فتاتها الوحيدة وضياعها منها، لا تريد أن تعيد الثروة لأخ وائل الطمّاع الذي كان وما زال منذ قديم الزمان ومن قبل وفاة زوجها يضع عينيه على ذلك الإرث الذي ورثه وائل من إرثه الأدبي، جمع مالًا جيدًا ولا تريد أن يذهب هذا المال إلا لمن اختارها ضنى القلب قبل ضنى الجسد، تريد أن ذهب ما تركه وائل لجوليا.

يجب عليّ قبل أن أخبرها جميع الحقائق لتعلم من أهلها البيولوجيين لابنة قلبي، وسيكون هذا ثمن كذبي عليها طوال هذه

السنين، أُريد أن أُكفّر عن خطئي الذي كان عدم إخبار جولي من البداية بحقيقة أمرها، وهذا ما سأفعله. وجدت بعد عناء طويل رقم السائق الذي كان يأخذنا دائمًا حين نعود بالإجازات، فأنا أعلم أن علاقة وائل جيدة جدًّا بهذا السائق، حتى وإن لم يكن هناك قرابة بينهما، ولكن وائل كان يعتبره أكثر من صديق وأخ، لذلك أريد البحث من هذه النقطة بالذات، لأنها تشعر أنّ وراء هذا السائق حقائق كثيرة، اتصلت عليه:

- نعم. علي المتّكلم.
- مرحبًا يا علي، أنا ميرال.
- سيدة ميرال! أهلًا وسهلًا بك، كيف هي الأحوال؟
- بخير يا علي حمدًا وشكرًا للرب، ما هي أخبارك وأخبار عائلتك وعملك؟
- بفضل الله وفضل الأستاذ العظيم أعيش أنا وعائلتي، لا أنكر فضلكم ما حييت.
- معاذ الله لا فضل لنا بشيء، كنت خير صديق لنا وما زلت.
- طيّب الله ثراه وأحسن الله إليه في آخرته مثلما كان يُحسن للجميع، أخبريني هل لك حاجة وراء اتصالك المفاجئ؟
- نعم، هناك ما أريد معرفته.
- إن كنت أستطيع مساعدتك فذاك يُسعدني.
- لدي إحساس كبير أنك تعلم جيدًا.

صمتت قليلًا، لأن البحث عن الحقيقة كان أصعب ممّا تصورَت بكثير، لا تعلم كيف تبدأ الكلام مع أنّها كانت تتصور أنّ الأمر سيكون

أسهل من ذلك، ولكن يبدو أنّ الواقع ليس كالخيال، بعد ثوانٍ قليلة أكملت كلامها مع شيء من التردد والارتباك، وذلك كان واضحًا من نبرتها المتوترة وإعادة الكلمات:

— أريد أن أعرف، أريد أن أعرف دار الأيتام التي جاء وائل بجوليا منها.

ألجم لسان السائق وشلَّ تفكيرهُ، هذا السر الذي احتفظ به لسنوات طوال، ما الذي حدث الآن وفتح أوراق الماضي؟ خنقته العبرة وتجمّع الدمع في مقلتيه، عادت رائحة الماضي تفوح كأوراق عتيقة داخل مجلد على رف قديم، لم يستطع أن يجيب على سؤالها، كان الأمر أكبر من مجرد سر، كان أمانة مخبأة داخله منذ زمن طويل.

— علي، هل تسمعني؟

عاد إلى الواقع وهو يسمعها تناديه، ولكنّه لم يعلم ماذا يقول.

— نعم، أسمعك.

— ماذا تقول عن الأمر الذي سألتك عنه قبل قليل؟

هل سيستطيع البوح بعد كل هذا الوقت؟ هل يمكنه أن يخبرها حقيقة ما حدث؟ وماذا خبأ وائل طول هذه الفترة عنها؟

❁❁❁

الفصل السابع
مقتل الأحلام

لم يُخبرنا أحد كيف نواجه الحزن، ولا بماذا نقاوم الألم، ولم يعلّمنا أحد كيف ننقذ أنفسنا حين نغرق، أو يسحبنا إلى برّ الأمان، لم يُعرنا أحدهم كتفه حين البكاء، ولم يربت أحدهم على قلوبنا حين استفاقت، كفكفنا دموعنا براحة أيدينا، كنّا وما زلنا أقوياء.

العديد من الخيم المجاورة والطين المعجون بماء المطر، نسمات من الهواء البارد تقتحم تلك الملابس الرقيقة التي كان يرتديها نزّاح الوطن، ضاقت بهم الأرض بما رحُبت، نظرات من الحزن والحسرة زُرعت في أعين هؤلاء الأطفال الذين لم يكن لهم ناقة ولا جمل في تلك الحرب اللعينة التي فرضت نفسها عليهم، مثلهم مثل الكثيرين الذين رحلوا قسرًا وهربًا من الموت العاجل إلى الموت البطيء، ترى أعينهم تفيض من الدمع وابتسامتهم تجعل الأمل يزهر، يفرحون بأبسط الأمور متأقلمين مع ظروفهم، يحاولون المقاومة بكل ما أوتوا من قوة، لا أعلم لماذا وما الذي يجعلهم يصمدون رغم عدم وجود أيّ مقوم للحياة!

جلست ندى وجارتها يأكلان بعضًا من العدس والبرغل، لم يكن بجوار الطعام سوى القليل من الماء والخبز، كان الطعام جافًّا وكأن الحياة ينقصها الأكل الجاف فقط حتى تكتمل صورتها وتتزين المأساة

أكثر من ذلك، هذا ما كانت المنظمات ترسله إليهم، هذه المساعدات التي ضجّ بها العالم بأكمله وهم يتحدثون عن الإنسانية كل يوم وعن الفقراء المساكين الذين طحنتهم الحرب، هذه المساعدات التي كانت تُرسل إلى المنظمات فلا ترى منها إلا أذن الجمل هذا إن وجدت الأذن، ومع ذلك كان أولئك النازحون راضيين رغمًا عنهم بهذه المساعدات التي كانت تأتي كل حين وآخر، وكان أمامهما أطفال صنعوا ما يشبه الكرة، ويلعبون بها في تلك الصحراء التي أُجبروا أن يقطنوا فيها، وبعض الفتيات على الطرف الآخر يلعبن بالدمى المصنوعة من القماش التي حاكتها لهنّ أمهاتهنّ من بعض القطع البالية، يريدون العيش رغم كلّ هذا الواقع، لا يرضون بالاستسلام، إنّهم أبناء الزيتون والياسمين لا يمتن بسهولة مثل بقية البشر، تمشي المقاومة في عروقهم، مقاومة الموت والحرب والظروف، كان المنظر يُرثى له.

بدأت ندى بالكلام وهي تسأل:

— يبدو الشتاء هذه السنة قارسًا وشديدًا، فما زلنا في تشرين والبرد هكذا، كيف سيكون الوضع في كانون؟

تنظر الجارة إلى الخيم المصنوعة من القماش وبعض الأعمدة، وإلى الطين الذي تغوص به القدم بسبب ماء المطر الذي هطل بالأمس، ثم تُعيد النظر إلى السماء وترى الشمس مخبأة بين السحب خجلة بسبب قيظها عليهم طوال فصل الصيف، ثم تجيب:

— الخوف ليس من البرد ذاته، بل ألّا تصمد هذه البيوت أمام الرياح والأمطار وقد يهطل الثلج أيضًا يا عزيزتي.

— ماذا سنفعل فلا ملجأ لنا سوى هذه الأرض وهذه الخيم سندّعم هذه البيوت حتى تستطيع المقاومة معنا لانتهاء هذا الشتاء على أمل أن تصمد.

— لقد اعتدنا على هذا يا ندى، منذ سنوات ونحن بهذا الوضع، كان الله في العون.

سكتت ندى قليلًا غائبة عن الدنيا في فكرها، ولاحظت جارتها ذلك، وبادرت بسؤالها عمّا يشغل فؤادها، فأجابتها ندى وهي ما تزال في عالم اللاوعي:

— أفكّر برتيل، ما الذي تفعلها هذه الأيام، وأين هي الآن، كيف تأكل وهي لا تملك المال، وأين تنام؟ منذ أيام وقلبي حائر بها، لا أعلم ما الذي يحدث معها، لكنّني غير مطمئنة.

— لا أعلم كيف لم تستطيعي مجابهتها والوقوف ضد قرارها المتمرد، ولماذا رضختِ هكذا لذهابها بعيدًا عنكِ!

ترقرقت دمعة يتيمة من قلبها، ونزلت على وجنتيها وهي تنظر أمامها، وتفكّر بأحوال هذه الدنيا الظالمة التي جعلتها تُربّي ابنتها وحدها دون أب، إذا صحَّ القول عنه بكلمة الأب، أطلقت تنهيدة خرجت من لهيب الجحيم وهي تجيب جارتها:

— وهل كان باستطاعتي منعها بعد كل الذي عانته وما زالت تعانيه وستعانيه مستقبلًا؟ كيف لي أن أمنعها وهي التي تربّت بنقص وحرمان من كلِّ الأمور، انحرمت الاسم والنسب قبل كل أمر آخر، واجهت كل هذا الألم بمفردها وإن كنت بجوارها، ولكنّني حرمتها

أهم ما في هذا الأرض، حرمتها أن تكون ذات نسب واسم عائلة تحمله حتى وإن كان فقط في هويتها الشخصية.

— ولكن يا ندى هذا الأمر لم يكن برضاكِ، لقد جُبرتِ بل كنتِ على شفا جرف عميق يسحقك ويسحقها، يكفي أنّكِ قاومتِ واستطعتِ أن تكوني بهذه القوة وتعطيها الحياة.

— الحياة! هل برأيك هذه حياة؟ إنّها فتاة لقيطة وليست كأي لقيطة، هل تعتقدين أنّني كنتُ أنانية حين أكملت الحمل ولم أرضَ أن أُفرط بهما؟

— لقد عدتِ تتحدثين مرة أخرى بصيغة المثنى، من تقصدين بكلمة بهما؟ لم تكملي لي ما حدث بالأمس بعد أن خرجتِ من منزلك وعلمتِ بأمر حملك.

— دعينا ندخل إلى الداخل وسأُكمل لكِ ما جرى لي، فلا أريد أن يسمع الآخرين ويزعجون رتيل حين عودتها.

دخلا بعد أن نظفا طاولة الطعام والأطباق، جلسا وهما يشربان الشاي وقد دخل بعض الدفء في عروقهما، وبدأت ندى بسرد ما حدث لها بعد ذلك اليوم الذي خرجت به من منزلها وهي تعلم ألا عودة لها:

— بعد أن خرجت لم أعلم إلى أين سأذهب وإلى من ألجأ، فالأبواب كلها مغلقة، إلا باب السماء، صعدت بسيارة الأجرة وأنا أنظر إلى الشوارع والناس، وطلبت منه أن يوصلني إلى حيث كراج الباصات، كان يجب أن أخرج إلى أبعد مكان عن أهلي ومن يعرفني، ذهبت وأنا أتلفت حولي خائفة من المجهول والمستقبل وكل ما يحيط بي، كان المكان غريبًا عليّ بكل ما فيه، ولا أعلم أحدًا

يساعدني، ذهبت إلى مكتب عقاري وطلبت منزلًا صغيرًا، لأجل ألّا يكون الآجار غاليًا عليّ، ولأنني لا أريد أن يقطن أحد معي، كان المنزل عبارة عن غرفة صغيرة ومطبخ وحمام، بعت صيغتي من الذهب ودفعت آجار عام لاحق، ولكن كان يجب أن أجمع المال لأجل الذي ينبت داخلي، وبعد بحث طويل وجدت عملًا منزليًّا، أن أضع الملابس داخل الأكياس وأضع ورقة المقاس والسعر عليه، وهذا ما يطلق عليه اسم (أمبلاج)، كان الأمر مريحًا، خاصة أنّه لن يكون هناك اختلاط مع الناس، وعملت هكذا لعدة أشهر إلى أن اتضحت عليّ ملامح الحمل، حاولت الجارات أن يفتحن حديثًا معي، ولكنّني كنت خائفة من الجميع، ولذلك لم أُكّون علاقات مع أحد، خلال خمسة أشهر من الحمل الأولى عانيت من آلام الحمل والوحام الشديد، كانت أيامي صعبة جدًّا، وأغلب الليالي دمعتي لا تجف إلى حين أغفى، لقد كان للهرمونات والتغيرات التي تحدث لي أثر كبير في نفسيتي، وبُعدي عن أهلي والمصيبة التي أنا فيها زاد الأمر أكثر ألمًا وجعلني في حالة لا يعلمها إلا الله، عانيت كثيرًا، ولكنّ في أول حركة للطفل في بطني جعلني أنسى كل ما حدث للحظات، كان الأمر أشبه بالحلم، لا أحد يعلم هذا الشعور العظيم إلا الذي عاشه، أن تشعر بنبضٍ داخل رحمك، وأنّ قطعة من روحك تتكون داخلك وتنمو كل يوم يجعل جميع أحاسيس العالم تتوقف بتلك اللحظة، وضعت يدي على بطني وأنا أتتبع الحركة الخفيفة التي كانت تحدث لي، والتي توقفت بعد لحظات ممّا جعلني أخاف وأتوتر، ما الذي جعل تلك النبضات تتوقف؟ وتذكرت أنني خلال كل هذه المدة لم أكشف نفسي على الطبيب أبدًا ولا أعلم ما وضع الجنين!

تجهزت بالفور وقررت الذهاب إلى أقرب عيادة نسائية، يجب أن أتابع وضعي الصحي.

فجأة توقفت وهي بمنتصف الطريق، وسألت نفسها: ماذا سأقول حين يتم السؤال عن زوجي ووالد طفلي؟ وبماذا تُجيب؟ بعد التفكير الطويل قررت أن تكذب وتقول إنّه مسافر، ولكنّ المفاجأة كانت حين دخلت إلى الطبيب وبدأ بفحصها، وتوسعت ابتسامته وهو يُحرك جهاز الإيكو على بطنها ويقول: بشرى سارة يا سيدتي، إنّك حامل بتوأم، وحجمهما طبيعي جدًّا، ولا يوجد أيّ مشاكل لديكِ، فقط يجب أن تتبعي نظام تغذية جيد لكِ ولهما، وسأصف لكِ بعض الفيتامينات والمقويات لأجل ذلك.

صمت رهيب خيّم على غرفة المعاينة، وبدأ يتردد في عقلي، توأم توأم توأم يا رب السماوات طفل واحد وكأن هموم الأرض على قلبي، كيف الآن باثنين! وماذا سأفعل؟ وليس هناك من يُساعدني بمحنتي هذه.

يبدو أنّ الفرحة قد منعتك من الكلام يا سيدتي.

استفقت من شرودي على كلام الطبيب، أي فرحة؟ إنّما هي غصّة، يا إلهي ماذا سأفعل الآن وكيف سأتحمل كل هذا يا رب السماوات؟

نعم إنّها نعمة كبيرة لله، الحمد على عطائه، أردنا طفلًا فرزقنا الله اثنين، الحمد لله سيسعد والدهما كثيرًا بهذا الخبر العظيم، شكرًا لك دكتور.

تكلمت بهذا الكلام وحبل الكذب يطول ويطول أكثر، وعتمة قلبي تزداد ظلامًا وقهرًا على كل ما حدث سابقًا ويحدث الآن، أيّ فرحة وأيّ سعادة وهما أطفال حرام، وليس أيّ حرام، يا رب أعنّي على ما ابتليتني به. شعرت بالدمع ينساب على خدي ووجدتني أسير دون هداية.

وصلت إلى المنزل ولا قدرة لها على الحركة، فمن جهة ألم الحمل ومن جهة وجع الأيام وغصة العمر، توأم! لا تستطيع أن تصدق، هل تقوم بإجهاضهما؟ ماذا تفعل، بدأت الفكرة تُرداها كثيرًا، سيكون من الظلم عيشهما في ظلّ هذه الحياة وظلم القدر، بدأت تضرب على بطنها بقوة، وتصعد إلى السرير وتهبط بقوة لعلّه ينتهي هذا الكابوس الذي هي به، في ذلك الوقت فقدت وعيها ونست شعور الأمومة وأول حركة لطفلها، كلّ ما كنت تفكر به كيف ستواجه هذا الأمر بمفردي، لا طاقة لها على التحمل أكثر من ذلك.

بعد العديد من الضربات القوية على بطنها والقفز، بدأت تشعر بسائل ساخن ينزل بين قدميها، ورأسها يدور والظلام يلتف من حولها، وكأن السماء أطفأت نورها وسرعان ما استكان كل شيء ثمّ غابت عن الوعي، بدأت تستفيق وهي تشعر بألم شديد أسفل بطنها ظنًّا منها أنّها تخلصت من هذا الحمل اللعين، ولكن ما أن رفّ جفنها وبدأت تفتح عينيها، حتى سمعت صوت الطبيب يقول:

حمدًا لله على سلامتك، لقد أنقذك الله بفضل إحدى جارتك التي سمعت وقعة كبيرة حدثت وحين لم تتلق ردًّا على طرق الباب نادت زوجها ووجداكِ ممددة هكذا بدمائك على الأرض فأتوا بكِ إلى هنا.

كان الطبيب يبتسم وهو يتكلم، ترددت أن أسأله عن طفليّ وما وضعهما، وقد بدأ الذنب ينتابني ممّا فعلته، ولكن لا أريد لهما التعاسة والعيش وهما منبوذين من المجتمع والناس، يا رب كيف سأسأل هل تخلصت من هذا العبء أم ما زال ربي يريد أن يمتحنّي أكثر من ذلك. خطرت على بالي فكرة بأن أتحسس بطني وهكذا سأشعر إذا تحركا أو لا، بدأت ألمس بطني وأنا خائفة من الأمرين الذين أحلاهما أمرهما، فإذا ماتا فسأكون قاتلة لروحين، وإذا بقيا فقد حكمت عليهما بالتعاسة

طول العمر والتنمر من كل الناس، وعندما لاحظ الطبيب أنّني أتحسس بطني، بادر بالقول:

لقد نزفتِ كثيرًا وكان وضع الجنينين في بطنكِ شديد الخطورة، ولكن حمدًا لله الآن هما في حال أفضل، تحتاجين الراحة التامة.

بعد ذلك جاءت الشرطة لتسأل عمّا حدث لي وهل هناك أحدًا تقصد إيذائي أنا ومن في بطني. يا رب ما هذا الذي يحدث لي أخرج من مصيبة أقع في أخرى، شرطة! توأم! الهرب من منزلي، واغتصاب، ماذا سيكون بعد ذلك يا إله السماوات والأرض؟ بماذا أُجيب الآن؟ وماذا إن طلبوا منّي هويتي أو حدث ما يشير إلى أنّه لا أحد معي، ستثار الريبة من حولي، أشرت برأسي وأنا أتكلم بصعوبة من الألم الذي أعاني منه:

ولكنّني لا أستطيع التحدث لأحد أعاني من ألم شديد يمنعني من الدخول بأي نقاش.

ستكون أسئلة سريعة فقط للانتهاء من أمر التحقيق، وسنعطيك المسكن فورًا.

حسنًا.

دخل الشرطي وهو يحمل بين يديه دفترًا، وسألني عمّا حدث وكيف حدث، وهل أريد تقديم شكوى حول أحد؟ فأجبته أنّ ما حدث كان بسببي فقد انزلقت قدمي دون أن أشعر، انتهت أسئلته وهو يغلق الدفتر ويذهب، ثمّ دخلت الجارة التي أنقذتني وجاءت بي إلى هنا، سألتني ألا أقارب لي، وأين زوجي؟ وبدأت تسأل وتسأل، ويبدو أنّها فضولية وتريد معرفة أدق التفاصيل، ولكن كانت أجوبتي مقتضبة، أغلبها غير صحيح، ثمّ أخبرتها أن تذهب إلى منزلها لأنّني سأتصل بأمي، مللت من أسئلتها الكثيرة وتدخلها الفضولي، وقبل أن تخرج تشكرتها، ولكن لم تغب عنّها نظرة الريبة في عينيها، ولكنّني تجاهلت

كلّ هذا، فأنا الآن في همٍّ أكبر ووضعي لا يسمح لي أن أفكر بما تظن، كان شريط الكذب يطول ويطول، أشعر بأن اللعنة التي حلّت عليّ تزداد يومًا بعد يوم، بعد ثلاثة أيام خرجت من المشفى وقد اختنقت من رائحة المعقمات والكحول الطبية، قررت أن أذهب إلى البحر لاستنشق بعض الهواء وأعيد لنفسي الهدوء لعلَّي أنسى قليلًا أو أتناسى ما أنا به.

وصلت إلى البحر وأخرجت هاتفي، كالعادة لا رسالة ولا اتصال، وكيف سيكون ولا أحد يعلم الرقم سوى ربّ العمل الذي يعطيني البضاعة! شعرت باحتياج كبير لأمي وصوتها وحضنها، آه يا أمّاه لو تعلمين ما بي الآن، ماذا حدث وما يحدث لي، فجأة خطر على بالي أن أتصل وأسمع صوتها ولم أنتظر أكثر، بلحظة مجنونة ضغطت الأرقام بسرعة ووضعت الهاتف على أذني، بعد عدة رنّات أتى ذلك الصوت الذي عجز جميع الأطباء أن يصنعوا منه كبسولات نتناولها حين تضيق بنا الأرض بما رحبت وتتعب أرواحنا، الأم أكبر من أن يُشبع منها، بعد أن سمعت صوتها وهي تقول:

ألو.. ألو.

أغلقت الهاتف بالكامل والدمع ينزل دون مقاومة، بكيت كما لم أبكِ من قبل، لم يكن هناك من يحضن مأساتي تلك، ولا من يساند وحدتي ويؤنس قلبي، وكان البحر ساكنًا يتأمل حزني وكأنّه صديق غريب، مضت ساعات من التأمل في البحر، كفكفت دمعي وعدت إلى منزلي وأنا أشعر ببعض السكينة، وكأن الدمع أزال شيئًا من وجع الروح.

صمتت ندى عند هذا الحد ولم تعد تقوى على التكلم أكثر من ذلك، فقط أنهكها التذكّر وأتعبّتها الأيام وقد أكلت منها ما أكلت.

❀❀❀

ونحن يا رفيق الدرب لا حول لنا ولا قوة، تمضي بنا الأيام وتُسرق منّا الأحلام، ونقف على شرفة العمر ننتظر، وليس بجعبتنا إلا حبات المطر وبقايا قهوتنا وبعض من الذكريات.

دُعي إلى حفلة التخرج بالاسم، فهو الأول على دفعته ويجب أن يكون صاحب إلقاء كلمة هذا الحفل، لم يرغب أن يذهب بداية، ولكن قرر الذهاب لسبب ضروري، فقد تحفّظ على هذا السر لهذا الوقت لكي تكون ضربة قاضية تقسم ظهر البعير، ولكنّها ليست كأي ضربة، إنّما سيف سُلَّ منذ معرفته بالأمر.

دخل الجامعة وهو يشوف نهاية البداية، فقد تحقّق حلمه وحلم والديه، وتخصص بالمجال الذي حلم به منذ أمد طويل، كانت المقاعد تتكلم عن الذكريات التي حدثت فوقها، وأوراق الشجر كأنّ لسان قولها: سأشتاق لكل لحظة كنتم تستظلون بها بفيئي. كان كل ما يحيط به يعطيه انطباع كبير بالفقد والاشتياق، ولكن حانت لحظة الوداع، الوداع لكل ما في هذه الجامعة.

جلس بالصفّ الأمامي حيث مقاعد الشرف، وكبار الشخصيات وأصحاب الشأن، بعد كلمة عرّيف الحفل وترحيبه برئيس الجامعة وعميد كلية الطب، سمع فارس اسمه بين كلمة المدح والثناء، تلتها تصفيقات حارة، وأعين تعلقت حيث وقف بثبات، الجميع كان ينظر إليه البعض ينظر بإعجاب وتقدير، والبعض الآخر ينظر حسدًا وغلّا لما حاز عليه من مرتبة شرف وامتياز، ولكن كما يُقال لكلّ مجتهد نصيب، والآن حان وقت قطف ثمرة تعبه بعد سنوات من الجهد والتعب والسهر، صعد المسرح بخطى ثابتة، وكل خطوة كان يتذكر بها كم

سهر وتعب وانهار وعاش أيامًا وليالٍ صعبة، ولكن حين وصل منصة الحفل ونظر إلى الجمع الغفير الذي ينظر إليه، حمد الله سرًّا، ثم بدأ بكلامه:

- أشعرُ أنّ في قلبي شُعلةَ ألمٍ وحُزنٍ كلّمَا تذكّرتُ أنّ اليومَ هو يومُ الفِراقِ، وأنّهُ لن يبقى لدينا إلا رمادُ الذِّكرياتِ واللحظاتِ التي قضيناها سويًّا، بداية سأوجّه كلامي للذين كانوا السبب لهذا النجاح العظيم، لأساتذتي في الجامعة: لقد أمسكتُ القلمَ؛ لأكتبَ عمّا يجتاحُ فؤادي مِن شوقٍ وشكرٍ لكم، فكم بكى القلمُ خجلًا وإطراقًا مِن غيث عطائِكم الذي حوّل صحراءَ حياتِنا إلى ربيعٍ أخضرَ بلا حدودٍ! فأيُّ شِعرٍ، وأيُّ عبيرٍ ينثُرُهُ بياني تعبيرًا لكم عن حبّي وامتناني، فالبحرُ يغترفُ من عطائِكم، والنجومُ تسجدُ في محرابِ ضيائِكم، ها هو العمر يمضي بنا على أيديكم، وأنتم كالشموع التي تحترقُ؛ لتنيرَ دروبنا، ويضحكَ مستقبلُنا بالأمنياتِ البيضِ العذبة، فلو جمعنا ياقوتَ العالمِ كلَّه ونظمناه عقودَ شكرٍ وعِرفانٍ لظلَّ خجولًا باهتًا أمام أنوارِ أياديكم العظيمةِ.

والآن هناك من يستحق الثناء الأكبر والشكر الأعظم على كل ما بذله من جهد معي، ولكل ما قدّمه من عطاء وحب وصبر، والدايَّ وإخوتي: إنّني لأعجزُ عن وصفِ مشاعري المتأجّجة بوجدِكم، أمّي الغالية، كلُّ الحبِّ أقدمه إلى مقامك السامي، فأنت وأبي كم تعبتما معي إلى أن حطّت طيورُ أحلامي في عشِّ هذه المرحلةِ، فلو كتبتُ بجميع القوافي لَمَا عبّرتُ عن عظيمِ عطائِكم، أنتما كالشجر المثمر تظلّوننا بظلكم، وتُغدقون علينا من ثماركم، أرأيتم كيف يكون الليلُ بدونِ القمرِ، هكذا حياتي تكونُ بدونِكم.

ولا أنسى أصدقائي الذين لم يربطني بهم قرابة الدم بل كانت هناك رابطة أقوى رابطة الروح: كسرعةِ البرقِ تمضي بنا الأيامُ، فها هي أمواجُ الحياةِ، تتلاطمُ لتقذفنا إلى شواطئَ أرحبَ؛ ولتحمِلَنا إلى آفاقٍ جديدةٍ، كم كانت أيامي معكم هي الأجمل والأحلى والأعذب، ليت ساعة الفراق ماتت على الدروبِ، لكننا وإن افترقنا أجسادًا، فنحن ملتقون أرواحًا ما حيينا، كنتم لي مناديل أمسح بها دموعي، وأضمّد ببسماتها جِراحاتِ أيّامي، فلو فرشت لكم الأرض ورودًا لن أكفيكم بعض ما عليّ من حقكم، ستبقون في ذاكرتي أجملَ صورةٍ فنيّةٍ، تعبرُ عن الحب والصداقة والوفاء.

والآن بعد كلمات الحب والتقدير لكل من شارك في تعبه معي، أريد أن أتحدث عن سر خطير علمت به منذ فترة طويلة ويجب أن أعلنه اليوم لكي يكون عبرة لكل من تساوره نفسه في أن يفعل ذات الأمر، لقد علمت منذ فترة عن أمر يحدث هنا داخل أسوار هذه الجامعة، ولكنني لم أبح بذلك حتى استطعت أن أجمع الأدلة كاملة، وجميع المشاركين في هذه العملية التي تأبها النفس الكريمة.

بعد هذه الجملة توقف فارس عن الكلام ليستجمع أنفاسه وينظر إلى الموجودين بثبات وشموخ، قبل أن يفجر القنبلة التي ستطيح برأس أصحاب الشأن في هذه الجامعة، كان ينظر إليهم بثبات وقوة ورأى أعين الجميع متعلقة به، فأكمل كلامه:

— الأمر كالتالي لقد سمعت منذ مدة طويلة عن عملية بيع المقررات والأسئلة الامتحانية، وتمّت دعوتي لأشتري أسئلة مادة صعبة وذلك من باب أن أحافظ على معدلي العام، ولقد تجاوبت بداية معهم لأفهم من وراء هذا الأمر وكيف تسير العملية، وبعد مد وجزر

علمت أن أحد مدرسي المادة يبيعها لطالب واحد، وهذا الطالب يبيعها لغيره، وهكذا إلى أن تتسع الحلقة، ولكن دون أن يعلم أحد، وبمبالغ باهظة، أردت من إفشاء هذا الأمر أن يعلم أصحاب الأنفس الضعيفة أنّ لا شيء سيدوم، ولا بد أن تنكشف عنهم عتمة الليل، والآن أقدم كامل اعتذاري لكل الحاضرين، أمّا الأوراق التي معي فستُقدم للجهات المعنية بهذا الأمر ليأخذ كل ذي حق حقه، كل الشكر لكم.

توقف فارس عند هذا الحد من الكلام وذهب بخطى واثقة إلى مقعده تحت أنظار المدهوشين وبعض الغاضبين، ورأى بطرف عينه نظرة زينة الطالبة التي كانت طرف الخيط لهذا الأمر، فهي من وثقت به نتيجة إعجابها به، فبدأت تستميله من هذه النقطة وتحاول أن تجذبه إليها، ولكنّه ما زال على وفائه وعهده لصاحبة القلب التي غادرت المكان ولم تغادر القلب.

انتهى الحفل بعد الكارثة التي فجّرها فارس بكلامه، كانت صدمة للبعض ورعبًا للبعض الآخر المشارك بهذا الأمر، بعد أن خرج فارس من الجامعة وقف ينظر إلى ما سيتركه بعد سنوات من الدراسة والذكريات، خطرت في باله معشوقة الروح، آه يا جميلتي لو تعلمين كم تمنيتك أن تكونين اليوم بحفلي الكبير، وكم كنت أترقب حضورك، تعلق بصري بالباب علّكِ تأتين ولو للحظات، لقد ارتسم خيالك كثيرًا، لكنّ جسدك كان غائبًا يا غصة القلب ورفيقة الخيال ويا عصفورة حياتي، أين حطّت بكِ أجنحتك وإلى أين ذهبت وبنيتِ عشّك؟

تنبّه إلى اليد التي وضعت على كتفه فالتفت وراءه، فإذا بخالد يقف إلى جواره وقد ارتسمت على محياه ابتسامة فخر بصديقه الذي كان

سببًا في كشف شبكة الغشّ، ناهيك عن فخره بمّا حققه من نجاح وما أثمر عن هذا النجاح، كان يبتسم وهو يقول له:

— لقد أصبحت اليوم بطلًا في أعين البعض، ومكروهًا ومُطَالَبًا بدمه في أعين البعض الآخر، أعانك الله عمّا سيحدث لك بعد اليوم من أمور ومشاكل كنت في غنى عنها، لم تذكر لي من قبل هذا الأمر.

— لا يهم أن أكون بطلًا أو مجرمًا في أعين الناس، المهم ما أشعر به في داخلي، أمّا الناس فرضاهم غاية لا تُدرك، أمّا عن سبب عدم إخبارك فلم يكن هناك مناسبة ما لأذكر الأمر، كنت أعمل بصمت كامل كي تنجح الضربة.

— خيرًا فعلت يا صديقي، كان هذا درس لأولئك الذين تراودهم أنفاسهم بالخديعة والغشّ، أحسنت صنعًا.

— سأخبرك بأمر، ولكن عليك أن تعدني أنّك لن تمانعني بعد معرفتك به.

— تكلم لنر ماذا لديك؟

— لقد تحدثنا في آخر مرة بأنّنا سنذهب للتطوع في الهلال الأحمر وقدمنا أوراقنا تذكر ذلك صحيح؟

— نعم أذكر وقد حصلنا على الموافقة منذ فترة سنذهب وستكون أول جولة لنا إن شاء الله.

— السبب الأهم ليس مساعدة الناس، لا أنكر حبّي لهذا الشرف العظيم، ولكن هناك سبب آخر لذهابي إلى المخيمات.

فضّل خالد عدم الكلام، لأنّه يعلم أن بنفس فارس الكثير ما يقوله، صمت لعدة لحظات بانتظار أن يُكمل فارس كلامه، لم يرِد أن يسأله خالد عن السبب يعلم أنّه سيتكلم من ذاته.

- اسمعني يا خالد، سأذهب لأبحث عنها، لقد سألتني حبيبة القلب ذات مرة عن ردة فعلي فيما لو علمت أنّها عاشت في المخيمات، وحين أجبتها بلامبالاة: لا يهم موقع عيشك ولا مكانه. ضحِكت وهي تقول: لا تأخذ كلامي بجدية، لقد تأثرت بما شاهدته أمس من أخبار على التلفاز، وأردت أن أعلم ردة فعلك فقط. واليوم بعد أن تخصصت وأنهيت دراستي أريد الذهاب وراء قلبي، أتعبني قلبي كثيرًا وهو يتساءل كل يوم عنها، لم أستطع نسيانها إلى هذا اليوم وهذه اللحظة، أريد أن أتبع قلبي حيث يريد، سأبحث وراء هذا الضوء الصغير لعلي أصل إليها، ولعلّ الأيام تجمعني بأُمنيّة العمر.

نظر خالد إلى صديقه وقد أكل الحب جسده، ولم يستطع أن يمانعه أو أن يقف في طريقه، لذلك سيقف معه ليكون الكتف الذي يتكئ عليه فارس حين تعبه.

أجابه خالد:

- ومن قال إنّني سأعارضك أو أقف في طريقك؟ لنذهب يا صديق الدرب، لنبحث عنها، فنحن رجال إذا أحبّوا تزوجوا محبوبتهم.
- لله در الأيام التي جمعتني بصديق واحد أغناني عن ألف صديق، شكرًا لرب السماوات الذي رزقني صديقًا وعوضني بك عن أخي.

❀❀❀

قبل أن تفكّر بإكمال نسلك وسلالتك المباركة الطيبة، كن على يقين بأنّك بانٍ حقيقي للعائلة وأنّك ستلِد عظيمًا يعيد ترميم ما عثّ أبناء الزمان في هذه الأرض وإلّا كن عقيم مدى الحياة على أن تخلق من نطافك مجرما بأفعاله وأخلاقه.

بخار القهوة ورائحة التي تعدّل المزاج، وأعقاب سجائر، والمطر يطرق على تلك النافذة، وصوت أغنية هابطة خادشة للحياء، أتربة وأوساخ في جميع أنحاء الغرفة، أشعة الشمس التي راحت تخترق زجاج النافذة الوحيدة في الغرفة، كان الجو غريبًا، شمس ومطر يلتقيان في هذا الصبح البارد، كانت تقبع في إحدى الزوايا وهي تنظر من حولها إلى هذا الكم من الخراب، تشعر بالبرد يتسلل إلى أعماقها وينهش عظامها، بدأ الخوف يتسلل إلى قلبها بعد الكلام الذي سمعته منذ فترة عمّا سيحصل لها إن لم تدفع الفدية المطلوبة، لم تعتقد أنّ الأمور ستؤول إلى هذا الحد وأنّها ستكون بهكذا موقف، شعرت لأول مرة بإحساس والدتها حين قالت لها بأنّ الخارج مخيف وأنّ المخيم يبقى أفضل من الشارع، بدأ الندم يأخذ مأخذه في جوفها، كيف لا وهي التي لم يكن لها في هذه الدنيا سوى والدتها التي ناضلت لأجلها ولأجل بقائها لهذا الحد؟

التفتت إلى الطرف الآخر حين سمعت نحنحة أحدهم، لم تنتبه له في البداية بسبب النعاس الذي غشيها منذ تركها لوالدتها، فقد كان لا يغمض لها طرف بسبب قلقها لما يدور حولها.

كانت الأحبال قد أُحكم وثاقهما جيدًا حول معصميها وقدميها، لقد حاولت جاهدة لفكهما دون جدوى، نظرت إلى الرجل الذي كان يترنّح

من عينيه ويبدو أنّه قد شرب الكثير من الخمر، حاولت أن تشيح بنظرها بعيدًا عنّه كي لا تشعر في نفسها بأنّها نعجة تنتظر ذبحها على يد الجزار.

أمّا الرجل كان ينظر إليها كل الوقت، ولكنّ عتمة الليل كانت أرحم من نظراته إليها، فقد حجبت عنه تفاصيل جسدها الممشوق وتضاريس جسمها المنحوت، صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة! كانت آية من الجمال والفتنة، من يرى حسنها يذهب عقله، فكيف بالذي ذاهب عقله أساسًا؟ كان أحد الأفراد الذين خطفوها بالأمس، والذي اقترب منها ومنعه صديقه من الاقتراب محذرًا إياه بعدم مساسها تحت أيّ ظرف حتى تأتيهم الأوامر من القائد.

رأت ما جعل جسدها يقشعر ويرجف، كان الرجل المخمور ينظر إلى أجزاء جسدها بتمعن وشهوة جعلت منه ما يشبه الكلب الذي وجد ما يسيل لعابه، فكان فكه متدلٍ ولسانه يلعق شفته العليا، وعيناه متعلقتان بها، وتبحث عمّا تبدأ به من وليمة.

كان منظره يبعث الخوف، تملّكها الخوف وهي تحاول أن تردد ما تحفظه من آيات قصار، وراحت تردد آية أوصتها بها أمّها حين تقع في ضيق وتريد أن تبعد عنها أعين الناس، فبدأت تردد: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [سورة يس: 9]. كانت ترددها وهي تسمع وقع خطوات أقدامه باتجاهها، كانت تغمض عينيها ظنًّا منها أنّه سيتوقف ويشعر بخوفها، اقترب منها حتى شعرت به، توقفت عن الدعاء وهي خائفة ممّا سيحدث لها، فهي وإن كانت لقيطة فما تزال محافظة على شرفها وعذريتها، وهذا الذي كان يجعلها دائمة الخوف من أن تصبح مثلما أصبحت والدتها، مع

كل ما مرت به من تجارب ورغم حبّها المدفون لم تسمح لأحد بأن يمسك يدها ولو لمرة.

توقفت الحياة عندما شعرت بيده حول رقبتها وأنفاسه اقتربت منها إلى حدٍّ اشتمت فيه رائحة القذارة والعفونة، ففتحت عينيها ورأت أنياب الثعلب قد برزت، واللعاب يسيل من فمه، تملّكها الرعب والخوف من كل جانب، وبدأ جسدها ينتفض، وما إن اقتراب فمه من فمها أطلقت صرخة مدوية وهي تستغيث منادية:

— هل هناك أحد يساعدني؟

لكنّ الثعلب لم يأبه لصراخها المتكرر، لم تضعف للحظة كانت تبعده عنها وتحاول جاهدة ألا تجعله ينال ما يريد، توقفت عن الصراخ وهي تردد الآية عينها بقلبها وتبعده بيديها وأرجلها، وتبعد رأسها كلما حاول أن يقبّلها، كانت المعركة تبدو خاسرة بالنسبة إليها، لولا أن أرسل الله عنايته الإلهية، فقد سمعت صراخ رجلٍ آخر:

— أيّها المعتوه ماذا تفعل! ألم أُحذّرك من عواقب فعلتك هذه؟ سترمي بنفسك إلى الهاوية بفعلتك هذه، وبشهوتك التي لا تستطيع السيطرة عليها وكأنك حيوان تتحكم به غرائزه فقط.

لقد أنجدها الله في الوقت الذي كادت أن تخسر فيه ما حافظت عليه لسنوات، نظرت إلى الرجل الآخر ممتنة بأعين تفيض بالدمع، وكيف لا وقد أنقذها من هذا الوحش؟

كان الرجل الذي غاب عقله بسبب المخدرات والخمر ما زال يحاول أن يصل إليها، لم يكن بوعيه، وكان جسدها يجعله كالثور الهائج، يريد أن ينقضّ عليها دون تردد، فلم يبصر سواها، لكمه الرجل عدة مرات وهو يصرخ:

— استفق، وأعلم أنّ هذا الأمر ستكون له عواقب تدمرك، وسترى نتيجة فعلتك هذه، لن يتوقف الأمر هنا سأخبر المدير بكل ما تفعله.

لكنّ الخمر والمخدرات لم يجعلاه يستفق ممّا هو فيه، وكان يشعر بالرغبة الشديدة تجاه رتيل التي كانت ما تزال خائفة ممّا تراه وتعيشه، ونظر الرجل الآخر إلى صديقه المخمور فرأى شريط أدوية، وفهم حقيقة ما يحدث لهذا الأحمق، فقد كان الدواء منشّطات جنسية، كان يجب عليه أن يفعل ما يوقف هذا الرجل الثور الهائج، فلجأ إلى غرفة أخرى ليأتي بحبل يربطه به ليمنعه من الاقتراب، عاد يسمع صراخ الفتاة مستنجدة، فأمسك بالحبل وعاد مسرعًا إليهما وقد علم أنّ الأمر سيكبر كثيرًا.

وعندما عاد وجد رتيل مرمية على الأرض وكان يحاول أن يثبّتها لينال مراده ويشبع غرائزه الحيوانية، فركض الرجل الآخر إليه ودفعه بقوة، وبعد أن أبعده سألها بنبرة قلق وخوف:

— هل حدث لكِ شيء؟

لم تجب رتيل سوى بهزّ رأسها يمنة ويسرة وهي تنفي ذلك، كان لسانها قد شلَّ عن الكلام وأخرسها الموقفان اللذان لم يكن بينهما إلا فاصل بسيط، كانت تنظر إلى الوحش الذي لم يهدأ رغم ضرب الرجل له بنظرات من الخوف والحزن.

ذهب الرجل إليه تاركًا خلفه مهرة لم تروضّها الأيام بعد، مهرة لم يقدر عليها إلا فارسها! كيف ستفلت منهم ومن أفعالهم الشنيعة التي لا تمت للأخلاق بصلة؟

لقد انكمشت رتيل على نفسها ولفّت بعضها على بعض وهي تحاول أن تضمّد جراح قلبها وتداوي نزيف روحها المستمّر، كان

منظرها يبكي القلب، وقد بدت كعصفورة صغيرة وقعت من عشّها ولم يكن لديها أجنحة لتعاود الطيران، أو كورقة اشتدت بها العاصفة فذهبت أدراج الرياح.

نظر إليها الرجل بشفقة وهو يرى ما حدث لها، ولكنّه لم يستطع أن يفعل شيئاً، فهذه هي الأوامر، وإلا سيقع بين فكّي الأسد وستكون وقعته ليست سهلة بل مميتة.

❁❁❁

المخيمات: أماكن ملطخة بالذل والإهانة، جُبِر عليها من جبر ظنًّا منهم أنهم يهربون من الموت والجوع، ولم يعلموا أنّ هناك موت آخر، وبأشكال أسوأ وقهر أعظم والجوع رغم الحرب أرحم.

جلست بالقرب من لوحة ورقية رُسِم على نصفها الأول منزل وألعاب وعائلة تبتسم، والنصف الآخر أسلحة ودماء ومنزل مهدم وولد مرميّ على الرصيف وأمّ جالسة ودمعة تنحدر على وجنتيها، كانت معبِّرة جدًّا عن الواقع المرير الذي كان يحدث، نظرت إليها مطّولًا وهي تشعر بغصّة كبيرة بقلبها، ولكن ما لبثت أن شعرت بألم يمزق نياط قلبها، وكأن هناك من يمسك بقلبها بين يديه ويعصره، دام الأمر للحظات قبل أن يبدأ ذلك الشعور بالانزياح، وانتبهت لصوت أحد أفراد المجموعة معها يسألها:

- جولي هل تشعرين بألم؟ هل تريدين أن ترتاحي قليلًا؟
التفتت إليه وهي تبتسم له:

- لا، الأمر بسيط، بعض التعب لا أكثر خاصّة وأنّ هذا يومي الأول من رؤيتي هذا الكم من الحزن والقهر في أعين أولئك الذين فقدوا أبناءهم وأوطانهم وبيوتهم.

- لقد كان من الظلم أن يحدث كلّ هذا، ولكن ليس بين أيدينا سوى أن نقدم لهم الدعم الدائم نفسيًّا ومعنويًّا وماديًّا، ولكنّني أراك تمسكين طرفك الأيسر هل تريدين مسكن ألم، أو بعض الماء، لعلّ هذا الإرهاق يخفّ؟

– لا عليك، نغزات تأتي بين الحين والآخر، وقد أخبرني الطبيب أنّه لا خوف، فليس هناك مرض عضوي، وأغلب الظن أنّه مرض نفسي.

– التفكير الزائد مرض قاتل، وأنتِ أعلم الناس بذلك فإنّك من طاقم الدعم الاجتماعي والنفسي، يجب أن تخففي حمولة قلبك قليلًا.

– لا عليك سأكون بخير بعد قليل، دعنا نكمل جولتنا فلدينا الكثير والوقت ينفد.

افترق كل واحد منهما إلى خيمة لينظرا إلى ما يمكنهما أن يقدماه من مساعدة لأولئك البائسين الذين قست عليهم الحياة وجعلتهم يعانون الحرمان والفقدان، ويرتمون على أزقة الموت ينتظرون مصيرهم المجهول، أو لعلّهم ما زالوا يحلمون بالعودة إلى الأرض إلى البيت إلى الوطن.

دخلت جولي إلى أول خيمة أمامها وهي تنظر إلى المكان بتمعن وحسرة، كان المكان أقرب ما يكون إلى قبر صغير، ورأت طفلة ذات خمسة عشر عامًا تمسك دفترًا صغيرًا تكتبت به بعود خشبي، نظرت إليها متعجبة تراها ماذا تكتب بعود خشبي لا حبر له؟ ذهبت إليها خلفها، فقد كانت تكتب وتكتب ثم تمسح دمعاتها التي تنزل بين الحين والآخر بملابسها، وكأنّها تأبى أن تكون ضعيفة، انتظرتها جولي لتنتهي من كتاباتها، فلا تريد أن تقاطعها، وخاصة أنّها تبدو في همّ كبير، يا إلهي لقد كبر الأولاد قبل أوانهم، بعد عدة لحظات من الانتظار أغلقت الفتاة دفترها وضمته إلى صدرها، وكأنها تخفي ما كتبته، مع أنّ القلم الذي بيديها هو عبارة عن عود خشبي، فبادرت جولي بسؤالها وهي تبتسم في وجهها:

- هل هذا القلم صنع يديكِ؟ يبدو جميلًا للغاية.

نظرت إليها الفتاة الصغيرة ببراءة الأطفال وهي تُجيبها:

- تظنين أنّني غبية وأنّ هذا القلم لا حبر فيه، لكنّ فيه حبر سري لا يراه أحد سوى من يكتب به فقط، وأنا صنعته بيدي هكذا لأنّني لا أريد أن يرى سواي ما أكتب.

- إذَن لدينا مخترعة هنا، يا له من أمر جميل، ولكن فتاة في مثل عمرك ما الذي يجعل هاتين العينين الجميلتين تدمعان هكذا؟ وهل لي أن أعلم ما هو اسمك وعمرك؟

- أمّا عن اسمي فعدد مضاف إلى هؤلاء اللاجئين، وعمري اثنا عشر عامًا، والجواب عن سؤالك الأول لا أعتقد أنّه سيهمك أمري أكثر من أهلي حتى تعلمي سبب بكائي وتعالجيه.

نظرتُ إليها متعجبة فعقلها وجسدها لا يوحي بأنّ عمرها فقط اثنى عشر عامًا، لقد ظننت بالبداية أنّها أكبر من ذلك، كنت مندهشة من كلامها الذي يبدو وكأنّ امرأة مسنّة أو طاعنة في العمر تتكلم، لله درّ هذه الحرب عرّت صغارنا من ثوب الطفولة، وألبستهم عمرًا أكبر من أعمارهم بكثير، كان الجواب صاعقًا بالنسبة لي وأسكتني عمّا أريد أن أتكلم حوله، فقط ظننت أنّني سأواجه طفلة حُرمت من دميتها الصغيرة، وهي حزينة لأجل ذلك، ولكن يبدو أنّني سأواجه أمورًا أكبر من تخيلاتي، حاولت أن أرتقي بأسلوبي من الطفولي إلى المراهقة لعلّي أفهم ما يحزنها وما سبب تلك الدمعات، وما الذي يجعلها تتكلم هكذا وكأنّ الهمّ قد أكل من قلبها وسرق منها عُمرها، فبادرت بالسؤال وأنا أحاول أن أبدو بهيئة الصديقة لا الداعمة الاجتماعية:

— إذَن يبدو أن الأمر يحتاج إلى جلسة أصدقاء، ما رأيك بأن تُحدثيني عمّا يشغل فكرك وأنا بالمقابل سأحاول أن أجد لكِ حلًّا يرضيكِ؟

— لا أظنّ أنّك ستستطيعين فعل ذلك فالأمر أكبر منك.

— دعينا نحاول ولن نخسر شيئًا، بل نكسب شرف المحاولة.

يبدو أنّها اطمأنت إلى كلامي، أو لعلّها تريد أن تبوح فقط وهي تعلم أنّ البوح لن يجد لها حلًّا، ولكنّه سيخفف عنها القليل من الكتمان والقهر، فبدأت تروي لي:

— عندما بدأت الحرب كنّا نسمع الأصوات فقط، كانت بعيدة بعض الشيء ويصلنا صدى القذائف فقط، نحن خمس فتيات ولا معيل لنا سوى والدي، ووالدتي التي تعمل بالخياطة وحياكة الملابس، ويومًا بعد يوم بدأت الأصوات تقترب والحرب تشتد ونحن في مكاننا لا حول لنا ولا قوة، كلّما سمعنا صوت القذيفة نتشهد إلى أن تهبط فنحمد الله على أنّها لم تقع في منزلنا وندعو لمن وقعت حوله أن يحفظه الله، ومرت الأيام والأسابيع ونحن نعيش على الماء والخبز، والكهرباء التي كانت تنير لنا البيت قليلًا، قُطعت عنّا أيامًا، والماء كان يأتي مرات ويقطع فترات، إلى أن أتى ذلك اليوم المشؤوم الذي سقطت فيه فوق منزلنا إحدى القذائف ودمرت أغلب المنزل، ولكن من لطف الله أنّها لم تقتل أحدًا منّا، فقط بعض الشظايا التي تطايرت فوقنا وأصبتنا بخدوش، كان الأمر أشبه بلحظة خروج الروح وعودتها، فقد متّنا ثم عدنا، وقرر والدي بذلك اليوم أنّنا سنهاجر من هذا المنزل ونصبح نازحين في منطقة أخرى، لم أكن أفهم الأمر جيدًا، ولكن يبدو أنّه أفضل من الموت،

أخذنا بعض الأشياء والملابس ونحن نأمل أن تنتهي هذه الحرب ونعود إلى وطننا الصغير حيث الذكريات وألعابنا الجميلة، ذهبنا إلى منطقة يُقال إنّها آمنة أكثر من هنا، وانتقلنا مرات ومرات إلى أن انتهى بنا المطاف بأن نستقرّ بأحد المخيمات، فقد تعبنا من النزوح من مكان إلى آخر، كان الأمر يشبه الخيال أو لعلّه كابوسًا، عندما وصلنا كانت الصحراء تمتد إلى ما لا نهاية، وبعض الخيم المصنوعة من الأقمشة تبدو أوراقًا صغيرة أيّ ريح قوية قد تهدمها، ولقد بنى والدي خيمة لنا فأصبحت هذه منزلنا الجديد، ولكنّ القدر يبدو أنّه يريد أن يمتحنّا أكثر، منذ فترة تقدّم أحد الأثرياء لخطبة أختي التي تكبرني بعامين ودفع لوالدي سعر جسدها، وبعضًا من المساعدات الإنسانية.

ضحكت الفتاة الصغيرة عند ذكر كلمة المساعدات الإنسانية، ودفعني فضولي لأستفسر منها عن نوع هذه المساعدات، وكيف وافق والدها أن يبيع ابنته مقابل المال والمساعدات، فأكملت كلامها بعد أن توقفت عن الضحك:

— لقد كان الشتاء في ذلك الوقت قد بدأ ونحن نقطن في هذا المكان الذي إن هطل المطر أغرقنا وإن أشرقت الشمس أحرقتنا، فكان عرض الثري مغريًا كثيرًا، فقد عرض على والدي بناء غرفتين من الإسمنت ودفع مبلغ من المال، أمّا عن المساعدات فقد تحدث مع الذين يقدمون المعونات لنا أن يزيدوا من حصتنا إلى الضعف، وهكذا كان أبي وكأنه اغتنى وأصبح لديه منزل وطعام، وبالفعل باع أختي وجسدها، وكان شرط الرجل ألا نسأل عنّها بعد اليوم فهو سيكرمها ويجعلها في مقام يليق بها، وأيّ مقام ذاك فقد علمنا

فيما بعد أنّه أحد التجار الذين يبتاعون النساء من أجل التجارة بأجسادهن مقابل الأموال، وهكذا اختفت أختي ولم نعد نسمع عنها شيئًا، والغريب أنّ والدي لم يكن يبالي، وكأنّ أختي ليست ابنته وشرفه وقطعة من روحه، منذ يومين تقدّم لخطبتي أحد الأثرياء، ولكن يبدو أنّني أكثر قيمة من أختي فقد دفع الكثير مقابل أن يتزوجني، الأمر المفجع في هذه البيعة أنّه اشترط على أبي سيتزوجني فقط لمدة شهر ومن ثمّ سيعود بي، الفاجعة الأكبر جواب أبي: البضاعة التي تُشترى لا تُرد ولا تُستبدل.

نعم أنا مجرد بضاعة وليس كأي بضاعة، بضاعة ثمينة لدرجة أنّ أبي لا يقبل عودتي، ولكنّ الرجل ما يزال يفاوض أبي على السعر، فقد طلب أبي مبلغًا كبيرًا فوق المبلغ الذي عرضه الرجل، والآن ما رأيك بهذا الأمر؟ وهل لديك حلّ لذلك؟

كنت أُحملق بها والكلام أصابه الخرس، وكأنّ أقفالًا وُضِعت على فمي فأخرستني، ماذا سأقول لهذه السيدة الصغيرة؟ وكيف سأنجدها؟ وأيّ كلام سيواسيها؟ كان الأمر أكبر من طاقتي، فخرجت وأنا أجرّ قدميّ ورائي والدمع يتدفق منّي، وكأنّ كلامها صفعة تلقيتها بقوة، ولكن ليس على خدي إنما على قلبي، ما هذه الحرب التي جعلت من تلك النفوس أشرارًا تمشي على الأرض! هل الحرب هي السبب أم أنّها كانت أداة لتخرج لنا هذا الكمّ من الشر الذي يقطن في النفوس؟

وقفت أمام الخيمة أحاول أن أستجمع نفسي وألملم شتات أمري، وأحاول أن أرتب الكلام، ولكن أيّ كلام سيحلّ هذه المصيبة؟ عدت أدراجي إليها بعد أن مسحت أدمعي وجلست إلى جوارها وعانقتها، كان العناق هو المواساة التي تُقدم بهذه الحال، وبدأت ألعب بشعرها الناعم

الطويل وأنا أحاول أن أبث بعض الحنان والحب إلى قلبها الصغير، يا إله السماوات أيّ امتحان تضعنا به؟ وكيف لهذه الطفلة أن تخضع لهكذا بلاء! وبدأت أفكر كيف سأساعدها وخطرت لي فكرة، ولكن سألتها أولًا:

— متى سيعطي والدك كلمة لفقير الأخلاق والعقل؟

— خلال يومين أو ثلاثة إلى أن يتوصلا إلى اتفاق يرضي الطرفين، ولكن لماذا تسألين؟ هل هناك ما يمكن فعله؟

— نعم يا صغيرتي هناك ما يمكن فعله، بل هناك الكثير، ولكن يجب ألا نخبر أحدًا بهذا الأمر أبدًا.

وبدأت جولي تشرح لها ما سيفعلانه غدًا، ويتفقان على الأمر وعلى الخطة بأكملها.

❀❀❀

"لماذا نُفكر دائمًا في نهايات الأشياء رغم أننا نعيش بدايتها؟ هل لأننا شُعوب تعشق أحزانها؟ أم لأننا من كثرة ما اعتدنا من الخوف أصبحنا نخاف على كل شيء، ومن أي شيء! حتى أوقات سعادتنا نخشى عليها من النهاية".

فاروق جويدة

"أريد أن أبكي، ليذهب ذلك الألم، أريد أن أجفّف مدامعي بمنديل السعادة، لعلّها تجلب الحظ، لا شيء يثير اهتمامي، ولا شيء يبعث اللهفة في قلبي".

رأيتُ هذا الكلام في جريدة قديمة، وسمعت إحداهن تهمس: وكأنّ عينيّ العقيمتين قد حُرِّمَ عليهما البكاء، وسمعت أحدهم يقول: كأن القلب سُرق منّي فأريد البكاء.

وتقول طبيبة: لا شيء يصلح ما بعثرته الأيام في داخلي.

ويقول طالب: حتى الطموح قُتِل على طريقي وبحاجة للبكاء!

وصرخ صمتًا ذاك المهاجر: وأنا الذي أكلت الغربة من روحي.

ويقول عسكري: دفنت أحلامي في مقبرة الشهداء.

وأنا مثلهم أيضًا أريد أن أبكي، أن تخفف تلك الدمعات شيئًا من شدّة وطأة القلب، أريد أن أبكي، فهل تُسعفينني أيتها الدموع وتزيحي عن الروح بعضًا من الألم؟

وضَعَت القلم وأغلقت دفترها بعد أن باحت به ببعض البوح، كانت كلما أرادت التحدث كتبت، لم يكن هناك من يسمعها في أوقات حاجتها سوى هذا الدفتر وذاك القلم، تكتب وتكتب إلى أن تشعر أنّها أفضت بعضًا من وحدتها، بجانب مهنتها الجميلة كانت تجد في الكتابة ما يساعدها على الاسترخاء، بعد أن أنهت ما كتبته من خواطر، ألقت

بنظرها داخل الغرفة وقد تكدّست الأكياس في كل مكان، ماذا ستفعل بكل هذا الكم من الملابس وأدوات التجميل؟ لم تتخلص من عادتها تلك؛ حين تغضب أو تشعر بالألم تذهب لتشتري كلّ ما تراه، وكأنّها بذلك تنتقم من المال، ولكنّ الغريب في الأمر أنّها كانت تشعر بسعادة بعد أن تصرف كل ما بحوزتها، ما سر شعورها بالراحة حين تنفق كلّ هذا المال؟!

والآن، ماذا يمكن أن تفعل بعد أن امتلأت خزانتها بكل هذه الملابس؟ كان الأمر محيرًا جدًّا، أمسكت هاتفها وبدأت تقلّب في صفحات التواصل الاجتماعي، كان مجموعة من الشبّان والشابات يجمعون الثياب والطعام والمال لمن يعيش في المخيمات ومن ليس لها مصدر كسب أو دخل، وعلى الفور شعرت أنّ الله أرسل لها إشارة لترسل لأولئك المحتاجين ما هو فائض لديها، والآن بعد أن علمت أين ستضع تلك الأغراض بدأت تفكر بموضوع آخر يشغل فكرها أيضًا.

ما الذي كانت تفكّر به حين سمحت لتلك العواطف أن تجرّها للوقوع في أحضان مديرها؟ ولماذا باحت له بكلّ أسرارها؟ هل يا تُرى يشعر الآن بأنّها فريسة سهلة ولم تعد تلك الفتاة صعبة المراس؟ كانت الأسئلة تغزو رأسها ولا جواب لديها، وأيضًا لا تعلم إن كان يريد شيئًا مقابل حمايته لها، هل سيستدرجها إلى بيته كما في الروايات؟ نعم هي تعلم أنّه ذو خُلق كريم، لكن ماذا لو كان هذا الظاهر فقط؟ وكيف ستعرف ما شعوره تجاهها؟ في المرة الماضية كانت تشعر حين عانقها وكأن لمسة كهرباء سرت في جسدها، ليس ذلك فقط، وإنّما كان قلبها يقرع كالطبول، شعرت بأمور كثيرة، ولم تعلم ما إذا كان حبًّا أو أنّه مجرد شعور عابر!

كانت غارقة في حيرتها، إلى أن رنّ الهاتف بجوارها، لم تكن تريد التكلم مع أحد، وخاصة أنّ الرقم غير مسجل لديها، ولكنّ المتصل كان مصرًّا، فقد عاود الاتصال بها من جديد، فتناولت الهاتف وفتحت الخط:

— ألو من المتكلم؟

وإذا بصوت والدتها، وقبل السلام والسؤال عن الحال بدأت تحذّرها:

— جمان يجب عليكِ ألّا تذهبي إلى مكان عملك اليوم، وألا تخرجي إلى تلك المنطقة أبدًا، هل تسمعين يا صغيرتي؟
كانت أمها خائفة مضطربة.

— أمّي، ماذا هناك؟ ولماذا تتكلمين من رقم غريب هكذا؟

— أتكلم من هذا الرقم يا عصفورتي لأن هاتفي عند والدك، لقد علم أنّني اتصلت بك آخر مرة وحذّرني ألّا أعاود الكرة، فالأمر خطير يا حلوتي، لقد وجدوا مكان عملك وقرروا أن ينصبوا لكِ فخًّا هناك، إنّهم يراقبون المحل، وأردت أن أخبرك فإنّني أخاف أن يصيبك مكروه ما، ابنتي خُذي حذرك ولا تذهبي إلى هناك فإنّهم في كل مكان، وأُفضل عدم بقاءكِ في المنزل أيضًا.

— ولكن لماذا الآن يا أمّي، لقد مضت سنوات على هذا الأمر ما الذي دفعهم الآن للبحث عنّي واقتفاء أثري من جديد؟

— ومن قال إنّ الأمر بدأ من جديد؟ أبناء القرية لم يهنأ لهم نوم منذ اختفائك، بعضهم من قلقله عليك والبعض الآخر من حقده وكرهه، هناك من يقول إنّك هربتِ مع عشيقك، والبعض يقول إنّك

هربتِ لتتخلصي من هذا الزواج، ولكن أنا أعلم يا صغيرتي أنّ سبب هروبك الحقيقي هو الجهل الذي يحصل في قريتنا، والعقلية التي تجعل الأهل يسرقون من ابنتهم طفولتها لتجد نفسها تحت مسؤولية الزوج ومشاكل الزواج.

— آه يا أماه لو تعلمين كم كان هذا القرار صعبًا عليَّ! ولكن كان هذا القرار الحل الوحيد الذي بين يديّ، ولم أملك سوى خيارين، إمّا أن أقبل العيش كبقية القطيع بسبب العادات والتقاليد التي تحكمها، وإمّا أن أنحرف عن هذا القطيع إلى بيئة أقل ضجيجًا وأكثر تفهّمًا، إنّها ليست تقاليد، بل أكبال حديد تتحكم بعقول أولئك الذي يخضعون لها، لست نادمة يا أمي على رحيلي، أشعر فقط بالحنين إليكِ وإلى رائحتك الطيبة وطعامك الشهي.

كان صوت البكاء الصوت الوحيد الذي يُسمع منهما، وبعد لحظات أتى صوت الأم، قائلة:

— سيجمعنا الله ذات يوم يا صغيرتي، وإن لم يُكتب لنا اللقاء في هذه الدنيا، فلنا ميعاد في جنة الله، حيث لا خوف ولا حزن ولا شوق، الحب والراحة هناك خير من متاع الدنيا وما فيها.

— إن شاء عزّ وجلّ يا غاليتي، سنجتمع في الدنيا قريبًا وفي الآخرة أيضًا، والآن أغلقي الخطّ فلا أريد أن يسمعك أحدهم وأتسبّب بمشكلة لكِ.

— حسنًا يا جميلتي، إلى اللقاء.

أغلقا الهاتف ولم تُغلق القلوب، فقد أكل منها الشوق ما أكل، وما أقسى الشوق الذي يأتي ولا أمل باللقاء!

والآن ماذا أفعل؟ هل أتصل بمديري وأخبره بالمستجدات أو سيفهمني بشكل خاطئ؟ ولكن إن صمتت أكثر فقد يصلوا إليَّ مثلما وصلوا إلى عنوان عملي، ولكنّني أشعر بحرج كبير بعد آخر لقاء بيننا، كيف سأستطيع التكلم وبماذا أبدأ! ليكن سأتصل وأخبره، فلا ملجأ لي في الوقت الراهن سواه، سأخبره بما أخبرتني به والدتي وأرى ماذا سيقول لي.

وبالفعل ضغطت على اسمه وبدأ رنين الهاتف ولم يطل سوى ثوان قليلة، وإذ به يُجيب:

— أهلا يا ملـ...

وبتر كلامه وهو يتذكّر أنّ اسمها جمان وليس بملك، ولم يتعود بعد على هذا الاسم، فقد كانت تُدعى ملك فترة من الزمن، تداركت الأمر فردت السلام:

— أهلًا بك، بداية أعتذر على الاتصال، ولكن قد أخبرتني في آخر مرة أن أخبرك إذا ما طرأ أمر جديد.

لاحظ المدير التردد بصوتها، فبدأ كلامه وهو يحاول أن يشجعها على الإكمال وقد شعر بالخوف عليها، فأجاب:

— نعم نعم، هل من جديد؟ ماذا حدث؟

أخبرته بكل ما سمعته من أمها، وبعد أن أنهت كلامها، قالت:

— أنا لا أريد أن أسبب لك المشاكل، ولكن لم أعلم بمن أتصل أو أطلب المساعدة.

عاد المدير للكلام:

- ما هذا الكلام؟ سأكون عندك خلال نصف ساعة، رتبي حقيبتك بما تحتاجين إليه.
- لا لا، هناك أمر سأقوم به، ومن ثمّ نلتقي بعد ذلك، وقد يطول الأمر لساعتين.
- إذَن بعد ساعتين في ذات المكان.

أغلقت وهي تنظر إلى الملابس وبقية الأغراض الموجودة في غرفتها، وبدأت تجمعهم في حقائب، وأخرجت كلّ ما لا تحتاجه من ملابس، فقد صمّمت على أخذها إلى من هم بحاجة أكثر، وجهزت لنفسها حقيبة أخرى، فيها أهم الأوراق لها والمجوهرات والأمور الأخرى التي تحتاجها في الفترة المقبلة.

ولكن هل ستمضي الأمور على ما يرام؟ هل ستكون رحلتها إلى المخيم آمنة؟ وماذا سيحدث بعد الآن؟ الكثير من الأسئلة راحت تغزو رأسها وهي تنطلق بسيارتها إلى الجمعية الخيرية التي تجمع المال للفقراء وأهل الحاجة.

❀❀❀

"لا يمكن أن يكون لك اختيار كيف ستموت أو متى، فقط يمكنك أن تقرر كيف ستحيا الآن".

جوان بيز

- ما الذي تقوله يا علي؟

صرخت بصوت خفيف والدهشة على وجهها، فقد كان الأمر جديدًا عليها، ولم يكن لديها علم من قبل عن الذي تسمعه الآن.

- هكذا هو الأمر يا سيدتي، وقد حُمِّلت هذه الأمانة لسنوات وسنوات ولم أبح بها لأحد، بناء على وصية السيد وائل.

- وأنا التي كنت أظن أنّه لم يكتب وصيّة له قبل وفاته، كنت متعجبةً من هذا الأمر، ولكن الآن ظهرت الحقيقة، لقد كتب وصيته وأعطاها لك، ولكن لماذا؟ لماذا لم يعطني إياها أو يعطيها للمحامي الخاص بالعائلة؟ ولماذا أعطاك إياها أنت بالذات؟ هل هناك أمر يتعلق بجولي لا أعرفه؟ أريد طرف خيط أو اسم الميتم الذي كانت فيه، أريد أن أجد لها أهلها لعلّي أكفّر عن كذبتي لها طوال هذه السنوات.

- ولكنّها ليست يتيمة يا سيدتي.

- ماذا تقصد بكلامك هذا أيضًا؟

- ستعلمين كل شيء يا سيدتي، بعد دقائق سيقرع أحدهم الباب ويسلّمك ظرفًا فيه كل ما تريدين معرفته، وبهذا يكون عملي قد انتهى، ولكن سأبقى تحت تصرفكم في أيّ وقت تحتاجونني فيه.

أغلقا الهاتف، ولم تعد ميرال تستطيع الجلوس، فبدأت بالمشي ذهابًا وإيابًا في أنحاء المنزل وقد أكلت الوساوس قلبها، وشعرت بالخوف ممّا ستعلمه بعد قليل، فجأة سمعت جرس المنزل يقرع، فهرعت إلى الباب لعلّها تجد أجوبة لكلّ ما يجول في خاطرها، فتحت الباب فوجدت ظرفًا على عتبة المنزل، ففتحته بيدٍ مرتجفة وقلب خائف ممّا ستؤول إليه الأمور، كان داخله ظرف آخر كُتِبَ عليه كلمة الوصية، وبجواره أوراق أخرى.

نظرت مطّولًا إلى ورقة الوصية والدمع يتجمع في محجر عينيها والحزن يتسلل إلى قلبها، والذكريات التي جمعتها بحبيب العمر تعود إلى الظهور من جديد، ولكن بين كل هذا قفز إلى خاطرها الكثير من الأسئلة، لماذا خبّأ عليها أمرًا كهذا ومات دون أن يخبرها؟ ما الغاية من وجود أسرار بينهما وقد عاشا زمنًا طويلًا على أوتار الثقة التي دامت بينهما رغم كل الصعاب والمشاكل؟ وما سر هذه الوصية؟ وتلك الأوراق الأخرى ما هي؟ فتحت الوصية أولًا وبدأت تقرؤها بصوت:

"غاية الدنيا والآخرة، حبيبة العمر أوله وآخره، صديقة الروح والدرب، معشوقتي وقصيدتي ومعزوفتي الأطول، الغالية ميرال..

اعلمي بداية أنّني أحبك كما لم يُحبّ أحد محبوبته أبدًا، وأنّني قد أخفيت عنك أمورًا لأحميكِ أنتِ وتلك الفتاة الجميلة التي أصبحت ابنتنا، ولا أظن إن كان لي ولد من صلبي سأحبّه بهذه الطريقة العميقة، لذلك يا جميلتي أريد أن أخبرك بكل الحقيقة.

هذه الفتاة ليست بيتيمة، إنّها لقيطة، اخترتها لأجل هذا الأمر، كي لا يأتي فيما بعد من يطالب بها من أقاربها ويطمع بما تركته لها، وأعلم أنّكِ تشعرين بالألم لأنّني أخفيت هذا الأمر عنكِ، أمّا عن سؤالك

لماذا أخفيت هذه الرسالة عند علي، فقد كان الشخص الوحيد الذي سيستطيع حمل هذه الأمانة بعيدًا عمّن يعرفون طريقكم من أهلي، كان يجب أن تبقى هذه الوثائق بعيدًا عن متناول الجميع، وأقصد بالجميع يا غاليتي إخوتي ومن يقربني بالدم، أردت أن تخرج هذه الأوراق حين تشعرين أنّ هناك خطرًا على جولي، وفي هذا الوقت الذي تقرأين فيه رسالتي أعلم أنّ هناك أمرًا دفعك إلى البحث عن أهل صغيرتنا، ولكن اعلمي أنّه لا أهل لها سوانا، ستجدين أوراقًا بكل ما أملك وقد نقلت ملكيتها لأميرتنا التي جعلت لحياتنا طعمًا مختلفًا، كي لا يكون لأحد الحق بالمطالبة والسرقة، وتركت لكِ منزلًا ومبلغًا من المال في حساب خاص لكِ وأعلم أنّ ذلك لا يوفيكِ حقك، ولكنّه جزء صغير أهديكِ إياه، أكرر كلامي لا أريد أن تحزني يا فرحة العمر، وختامًا يا امرأة قلبي: أعشقكِ.

وائل شرف".

أنزلت الورقة والدمع يتحجّر في مقلتيها والقلب يرتجف من ألم الفقدان، والعقل مشغول بما حمّلها وائل من مسؤولية على عاتقها، لم تعلم ماذا ستفعل بعد قراءتها للرسالة، تارة تقول ليتها لم تصرّ على علي لمعرفة طرف خيط عن جولي، وتارة أخرى تشعر بالامتنان لما حدث من أمور فقد وصلت إلى نقطة بحث جديدة، فمن خلال اسم الدار التي تبنى منها وائل ستسأل أكثر عن أهل هذه الفتاة، حتى وإن كان يقول وائل إنها لقيطة، إنّها تشعر بأنّه سيكون هناك من يستطيع أن يصلها إلى أهلها، ولكن الآن تتساءل ماذا إن كان هناك أهل لجولي فلماذا رموها هكذا؟ وإن كانوا يحبونها فلماذا لم يبحثوا عنها إلى الآن؟ حتى وإن كانت لقيطة فليس هناك من يفرّط في طفلته مهما كانت الأسباب.

نظرت إلى أوراق التبني وقد عليها كُتِبَ اسم دار اللقطاء ورقم الهاتف، فتناولت الورقة وقررت أن تستمر بالبحث، لماذا ستيأس وهي لم تحاول بعد أن تبحث في تلك النقطة بالذات! وعلى الفور اتصلت بالدار لكن دون إجابة، فحاولت من جديد، ولكن دون جدوى، فتوقعت أحد الأمرين إمّا أن يكون رقم الهاتف تغيّر وإمّا أنّ ساعات الدوام انتهت، وقررت أن تنتظر للصباح لترى ما ستؤول إليه الأمور، قضت ليلتها بحيرة وبكاء إلى أن قرر الصباح أن يشفق عليها ويعلن ظهوره بإشراقة شمسه، لقد كانت تلك الليلة أطول ليلة تعيشها ميرال، وما إن أصبحت الساعة التاسعة حتى عاودت الاتصال، ولكن هذه المرة بعد ثوان أتاها صوت رجل على الخط:

— نعم من المتحدث؟

— هل هنا دار الرعاية؟

— نعم هنا، بماذا أساعدك يا سيدتي؟

— أريد أن أسأل عن فتاة تبناها زوجي قبل سنوات، هناك بعض الأمور التي أريد أن أفهمها إذا كان بالإمكان.

— تقولين منذ سنوات يا سيدتي، الأمر صعب على الهاتف هل من الممكن أن تأتي إلى المركز ونتفاهم على ما تريدين معرفته وفهمه؟

— نعم بالتأكيد، خلال ساعة سأكون موجودة عندكم.

أغلقت الهاتف وارتدت ملابسها على عجلة حاملة الأوراق المتعلقة بالتبني وانطلقت إلى أول سيارة أجرة وجدتها في الشارع، شعرت أن الطريق يأكل من عمرها.

كان قلبها يكاد أن يتوقف ممّا ستسمعه حينما وصلت إلى المكان المنشود، نزلت بخطوات متثاقلة تُقدِّم رجلًا وتؤخر أخرى، ولكن يجب عليها أن تستمر رغم كل ما سيحدث، وصلت إلى غرفة الإدارة وطرقت الباب، سمعت من يقول:

- ادخل.

دخلت وهي تحدق في المكان، فإذا برجل مسن، ظهرت تقاسيم العمر على وجهه، يجلس خلف الطاولة، فبادرت بالكلام وهي تلقي التحية وتعرّف بنفسها:

- السلام عليكم، أنا ميرال زوجة وائل شرف.

لحظات من الصمت قبل أن يقوم المدير من مكانه وهو يرّحب بها:

- أهلا بكِ يا سيدتي، لقد زاد المكان شرفًا بقدومك، ما أخبار الكاتب الكبير وكيف أحوال طفلتكما؟
- لقد تُوفي زوجي منذ مدة طويلة، وأتيت إلى هنا لأعرف بعض الأمور عن الطفلة التي تبّناها زوجي وفيما بعد أصبحت طفلتنا الروحية.
- هل تقصدين ريتال؟
- هل كان اسمها ريتال؟ لقد كان اسمًا جميلًا، لم يخبرني به وائل، لقد سميناها جولي عندما أصبحت ابنتنا.
- نعم وجدنا هذا الاسم في العقد الذي كان برقبتها، فتوقعنا أنّ من وضعها هنا أسماها بذلك، ولم نحبّذ أن نغيره، لعلّ يومًا يعودون أهلها.
- العقد؟ لكن حين أتى بها وائل لم تكن تحمل أيّ عقد.

— نعم يا سيدتي حين تبّناها الكاتب لم يرد أن يأخذ أي شيء يتعلق بماضيها، أراد أن يكوّن الماضي والحاضر والمستقبل لها، ولكن بطبيعة الحال وبحسب قوانين دارنا فإننا نحتفظ بكل ما يتعلق بشخصية الطفل، فإذا أراد الأهل البحث عنه فإنّهم يتواصلون إليه من خلال هذه العلامات البسيطة.

— هل من الممكن أن أرى العقد؟

— بكل تأكيد.

ذهب المدير بضع دقائق، ثمّ عاد وهو يحمل سلسلة رقيقة من الذهب نُقِشَ عليها اسم ريتال، وسلّمها لميرال وهو يقول:

— هذه هي التي كانت حين وجدنا الطفلة، وبذلك أسميناها ريتال، ولكن أعتقد أنّ السيد وائل رغب أن يتخلص بكل ما يتعلق بماضيها.

نظرت ميرال إلى العقد والدمع يتحجّر بمقلتيها، إذَن جولي صغيرتي، كان اسمها ريتال. سألته وهي ما تزال تنظر إلى العقد:

— هل من معلومات أخرى أستفيد منها عن ابنتي؟

— لا يا سيدتي، جلّ ما نعرفه أنّ هذه الفتاة تُرِكت عند باب المركز وقد كانت تبلغ من العمر ما يقارب الشهرين فقط، وتحمل هذا العقد الصغير الذي بين يديكِ.

شعرت ميرال بالحزن واليأس يتمرد على قلبها، ماذا ستفعل الآن؟ تشعر أنّها تبحث عن إبرة في كومة قشّ، نهضت وهي تسلّم العقد للمدير:

— حسنًا، شكرًا لك.

- لا شكر على واجب، رافقتك السلامة.

عندما وصلت إلى الباب أسرع المدير خلفها مترددًا:

- هناك أمر لا أعلم مدى أهميته بالنسبة إليك، ولكن سأخبرك به.

عادت ميرال بلهفة وهي تسأله:

- ما هو الأمر؟ أخبرني من فضلك.

- حين استلمنا الفتاة في صباح ذلك اليوم كانت تبكي بكاءً شديدًا، فأتينا لها بمرضعة لتطعمها، لكن رفضت ذلك وبقيت على هذه الحال إلى صباح اليوم التالي، وفي اليوم التالي جاءت امرأة تحمل طفلة بين يديها وقالت إنّها سمعت أنّ فتاة صغيرة ترفض المرضعات وأنّها تريد أن تكسب أجرها وتحاول أن ترضعها بنفسها، وما إن حملت تلك المرأة الفتاة الصغيرة سكنت وكأنّها في حضن أمّها، كانت لحظة مدهشة لكل موظفي المركز، كانت العيون كلّها تنظر إليها بتعجب، وبعد أن شبعت الصغيرة، قبّلتها المرأة قبلة طويلة وهي تنظر إليها بشفقة وحزن، وحين سألها أحد العاملين في المركز عمّن أخبرها عن الفتاة قالت: إنّها سمعت إحدى اللواتي تعملن هنا تتحدث عنها فرقَّ قلبها وجاءت لتجرّب حظّها، ولكن هناك أمر غريب أخبرتنا عنّه إحدى الموظفات، أنّه ذات مرّة كشفت الغطاء عن ابنة تلك المرضعة، وإذ بالفتاة التي تحملها نسخة من الفتاة التي تبنّاها السيد وائل، فجأة شعرت المرضعة بارتباك وهي تغطي وجه الفتاة وتحاول أن تخفي ملامحها، منذ ذلك اليوم قررت المرضعة أن تأتي وحدها، فقط تأتي لتطعم ريتال ثلاث مرات باليوم وتذهب.

— ما الذي تقوله يا سيد!

— أردت أن أخبرك لعلّ ذلك يفيدك.

— يالهذا الأمر الغريب! وهل ما زالت تتردد تلك المرأة إلى هنا؟

— لا اختفت منذ أن علمت أنّه تمّ تبني الفتاة، وبذلك اليوم بكت كثيرًا، كأنّها فقدت أحد أعضائها، وحين سؤالنا إياها أجابت: أنّها تعلقت بالفتاة وشعرت بالحب الجارف تجاهها. أمّا عن عنوانها ورقمها فإنّه يوجد بملف ريتال، سأبحث عنه الآن وأعطيك إياه علّه يفيدك، مع العلم أنّنا حاولنا الاتصال بها كثيرًا، لكنّ الهاتف كان مغلقًا دائمًا.

— مع ذلك أريد الحصول على عنوانها، إذا كان الأمر بالإمكان.

— بكل تأكيد يا سيدتي، سآتي به في لحظات.

غاب بضع لحظات ثمّ عاد إليها وهو يحمل ورقة كُتِب عليها عنوان المرأة ورقم هاتفها وأعطاها لميرال وهو يدعو لها أن تجد ما تبحث عنه.

أمّا ميرال فقد شكرت مدير المركز ووعدته أن تقدّم مبلغًا ماليًّا كبيرًا كمبادرة منها لمساعدة الأيتام وتحسين أحوالهم، ثمّ خرجت من المركز وهي تشعر أنّها اقتربت من الحقيقة.

وانطلقت مرة أخرى إلى العنوان المذكور، كان حارة صغيرة تبدو مثل حي شعبي، رأت مجموعة من الأطفال يلبسون ثيابًا رثة، وتظهر عليهم علامات الفقر، يلعبون ويتسابقون هنا وهناك، كانت تنظر إلى المكان بشيء من الحزن والاستغراب على حال من يعيش به، ووقفت حائرة من ستسأل الآن! وجدت امرأة عجوز، فسألتها، ولكن الغريب أن هذه المرأة عبست في وجهها وهي تقول:

— لا أعرف شيئا عمّن تسألين.

ذهبت تلك العجوز إلى جارتها وهي تتهامس معها وتلوّح بيدها تجاه ميرال وقد ملأ الغضب عينيهما، ممّا آثار فضول ميرال من تصرفهما المريب، فقررت أن تسأل أحدًا آخر ولم تهتّم لهما، ووجدت رجلًا مسنًّا يجلس على مقعد خشبي متهالك، ذهبت إليه وهي تسأله:

— السلام عليكم يا عمّ، أريد أن أسأل عن امرأة تُدعى ندى كانت تسكن هنا منذ سنوات ولديها طفلة صغيرة جميلة الملامح، هل من الممكن أن تخبرني أين تقطن؟

نظر الرجل إليها وهو الآخر يعبس في وجهها، ولكنّه أجابها بسؤال آخر:

— وما الذي تريدينه منها؟ يبدو أنّك امرأة من الطبقة الراقية يا ابنتي.

— أنا أختها وأريد أن أعلم أخبارها فقط، فقد ذهبت منذ زمن ولم نعد نرها، وأخبروني أنّها تقطن هنا.

لم تعلم كيف اخترعت هذه الكذبة، ولكنّها كانت تريد أن تعلم ولو معلومة صغيرة عن حقيقة هذه المرأة، ولماذا الجميع يغضب حين يسمع باسمها؟

— إذَن تلك الزانية هي أختك؟

— زانية! وما الذي جعلك تقول ذلك يا عمّ؟

— اسمعي يا ابنتي، كانت تقطن هنا منذ أمد طويل وآخر ما سمعناه عنها أنّها ذهبت إلى المخيمات وهي تحمل خطيئتها على هيئة فتاة صغيرة ويبدو أنّها في عمر الخامسة.

- لطفًا منك يا عم هلّا أخبرتني عن التفاصيل؟
- لا لن أخبرك؛ فأنا لا أريد أن أتذكر أيّ شيء عن هذه المرأة الفاسقة، جلّ ما سأخبرك به أنّها ذهبت منذ فترة طويلة إلى المخيمات بعد ما حدث هنا وانكشف أمرها.

وقفت ميرال عاجزة وهي تنظر إلى الرجل، كيف ستعرف أيّ المخيمات يقصد! لقد شعرت ميرال أنّ لهذه المرأة سر يتعلق بجولي، وهذا السر لا يمكن أن تعرفه دون أن تجدها، فعادت إلى السؤال:

- رجاءً يا عم أعطني فقط اسم المخيم الذي ذهبَت إليه، وأعدك أنّني لن أسأل عن أي أمر آخر.

شعر العجوز أنّها لن تذهب دون أن تأخذ اسم المخيم، فأخبرها به ليتخلص منّها ومن أسئلتها، نظرت ميرال إلى الساعة ورأت أنّ الوقت قد تأخر جدًّا للذهاب إلى المخيم، وقررت أن تذهب بالغد من الصباح الباكر.

لكن ما الذي سيحدث غدًا؟ وهل ستجد والدة جولي؟ وكيف سيكون الأمر؟ وما المخاطر الذي ستواجهها؟ سيتأجل معرفة كل ذلك إلى الغد.

❀❀❀

الفصل الثامن
كشف المستور

سأعيش كما أرغب، وأصادق من يتناغم مع عقلي، وأهوى
من يرفرف له قلبي، سأراقص النجوم وألعب مع القمر
وأقطف من الغيم غزلًا، وأغازل الورد أعانق الشجر وأقبّل
السماء وأكون كما أنا، فليس من المهم ما يريدونه، المهم
ما يجعلني سعيدة.

بعد أن حزمت أمرها وانطلقت بسيارتها الفارهة إلى المخيم حيث قررت أن تتبرع بنفسها وترى أحوال الناس، فلعلّها تعالج نفسيتها بمآسي الناس وتنسى بذلك مأساتها العظيمة، كانت كل الطريق تتلفت خائفة من أن يكون لحق بها أحد ما، أو أن هناك من يطاردها دون علمها، كان الخوف يتملّكها من كل جانب، حتى أنّها نست حماسها بالمساعدة تجاه المحتاجين.

وصلت بعد طريق طويل وعناء كبير إلى منطقة لا تعترف بها الأرض، صحراء شاسعة ووجوه متعبة، وهواء بارد والكثير من المعاناة، وكأن الأرض لا تطيق وجود من عليها، كان الأمر أشبه بمسلسل في زمن تاريخي، فوجود الرجال علتها اللِحى والشعر الطويل، والنساء كأنهن جاريات، والأطفال تتراكض متناسية كل هذا وذاك، توقفت بسيارتها والنظرات والأعناق كلها اشرأبت إليها بنظرة الحرمان والهمّ، كانت

تبدو وكأنّها نجمة وقعت من السماء على أرض معتمة، شعرت بالحياء من نفسها وهي تنظر إلى هذه النفوس المتألمة من ضيق الحياة، وهي التي تلبس من أفخم الماركات وأجود الأقمشة والمجوهرات، تمنت لو أنّها أتت بملابس قديمة لكي لا تشعرهم بأنها فوقهم مرتبة أو مال.

حملت بعض الأشياء وبدأت توزيعها على من يصادفها ولكن ياللعجب توقعت أن يتلهف عليها الناس ويتراكضون النساء لأخذ ما يمكن أخذه، لكنّهم وقفوا جامدين وكأنّ عزة أنفسهم تأبى أن يكونوا مثل الذي لم يرَ خيرًا في حياته، نعم لاجئين هم، ولكن ما تزال الكرامة محفوظة حتى وإن تخلّت عنهم أوطانهم، لاجئين ولكن رؤوسهم مرفوعة شامخين رغم الظروف والمعاناة، رغم الفقر والقهر والإبعاد القسري عن بيوتهم، لاجئين ولكن أصحاب أنفس عزيزة.

بعد أن أنهت توزيع كل ما أتت به من ملابس نظرت إلى إحدى الخيم ورأت امرأة في منتصف العمر تبكي كثيرًا، فاقتربت منها وهي تشعر بالألم دون أن تدري ما السبب، دخلت إليها وهي تسألها:

— ما بكِ يا خالة؟

نظرت المرأة إليها والدمع يتسابق من ينزل أولًا على تلك الخدود ويطفئ جمر القلب، وأجابتها:

— لدي طفلًا صغير أنهكته الحمى وأكل من جسده التعب ولا أستطيع أن أذهب به إلى المستشفى ومعالجته.

وعادت للنحيب من جديد وهي تضمّ وليدها الصغير إلى قلبها وتحاول أن تخففّ عنه سكرات المرض والألم، وما هي لحظات إلى وتوقف الولد عن الأنين والحركة، اقتربت منها جمان وهي تحاول أن ترى ما به، وللأسف عندما وضعت يدها على عنقه لم يكن هناك نبض،

فاحتارت كيف تخبرها، كان الوجوم على وجهها يفضح حقيقة الأمر، ولكنّ الأم كانت تحاول أن تبعد هذا الوسواس وهي تسألها:

– ما به صغيري؟

أطرقت برأسها جمان وبدأ الدمع ينساب على خدها وهي تحاول أن تتكلم وخرج الكلام مقطّعًا من شفتيها:

– لقد ل ل لقد ت توفّي.

أبعدتها المرأة بيدها بقسوة كبيرة وهي تصرخ في وجهها:

– أنتِ لا تفهمين شيئًا، ليس به شيء لماذا تقولين هكذا كلام! سيستيقظ بعد قليل، هو فقط نائم.

رغم الألم الجسدي الذي سبّبته لها المرأة كانت تشعر بالألم الأكبر في قلبها، هذه المرة الأولى التي تحضر وفاة، وليست كأي وفاة، كانت وفاة طفل صغير لم يبلغ سوى أشهر، بدأت المرأة تصرخ واجتمع الجميع عندها وعلى رأسهم زوجها الذي هرع إليها وهو خائف:

– ما بالكِ تصرخين وتنوحين هكذا؟

- هذه الغريبة تقول إنّ طفلنا مات، هو فقط نائم من التعب والحرارة، وهي لا تفهم هذا الكلام، كيف سيموت بعد كل سنوات الانتظار التي عشتها وأنا أنتظر مجيئه على هذه الدنيا؟ هل سأنحرم مرة أخرى من الأمومة وأنا التي لم أرزق بها إلا منذ فترة!

اقترب الزوج وهو ينظر إلى طفلهما وكان بلا حراك وقد بدأ جسده يبرد ويتحول جسده إلى اللون الأزرق، كانت نظرته جامدة وواضح أنّ كلام جمان صحيح، الولد مات، ولكن كيف سيؤكد هذا الكلام لامرأته وهي التي حُرمت منذ عشرين عامًا من الأطفال بسبب المشاكل التي

كانت لديه؟ وبعد سنوات عجاف رُزقا بهذا الصغير، حمله بين يديه وهو يقول:

— إنّ الله أعطانا أمانة واليوم استردها، ولا نقول إلّا كما قال رسولنا الكريم حين فقد ابنه إبراهيم "إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب وإنا على فراقك يا بُني لمحزونون {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}".

صمتت المرأة فجأة عن البكاء وهي تنظر في الهواء ثم تنظر إلى ولدها مرة أخرى وتحاول أن تنفخ بفمها على يده الصغيرة تُريد أن تشعره بالدفء، ثمّ التفت فجأة إلى زوجها وهي تقول:

— لكنّه سيبرد في تلك الحفرة الصغيرة، كيف سيشعر بالدفء والجو بارد؟ الحفرة مظلمة جدًّا، سيخاف ويبكي حين أتركه هناك وحيدًا، لا، لا أستطيع، سأدفنه بجوار خيمتي هنا وأُشعل ضوءًا دائمًا، وحين يبرد الجو سأشعل بجواره نارًا، سيظل بجواري، لن يموت في قلبي حتى وإن دُفن جسده.

كان الزوج يقاوم البكاء، ولكن بعد كلامها هذا انهمرت الدموع كالشلال ولم تعد تتوقف، احتضنا طفلهما للمرة الأخيرة وقد بكى كل من كان هناك، الأمر كان منهكًا للروح كثيرًا، أتعبني قلبي حين وجد كل هذا الحزن وأنساني همّي وخوفي من أهلي ولم أعد أفكّر إلا بهذه الحال التي وصل إليها الناس، أيموت الرضيع بدون ذنب؟ أيموت الطفل لأنه لم يأخذ العلاج؟ أتموت الفرحة وتنطفئ السعادة في قلب والديه لأنهما لم يستطيعا أخذه للطبيب فيموت أمام ناظريهما وفي أحضانهما؟ يالسخرية الأقدار من هذه الحرب التي جعلت الولدان شيبًا.

حملت نفسي من بينهما وأنا أجرجر أقدامي بخيبة، أتيت لأزرع الفرح فحصدت الآلام والقهر على طفل رضيع انحرم من حق الحياة، بدأت أسير بعيدًا عن تلك الخيمة وأنا أشعر أنّني لعنة على تلكما الشخصين وأنّني أخذت روح ابنهما بمجيئي، وقفت بعيدًا وقد هالني المنظر، كان كل من يسكن في المخيم ذهب إليهما وتعاطف معهما، وبدؤوا بمساعدتهم في تحضير مراسم الجنازة ووداع ذلك الصغير الذي أصبح طيرًا في الجنة.

عندما نظرَت إلى الحال الذي كان أمامها قررت أن يكون لها دور أيضًا في تخفيف هذه المأساة، وهي بدورها أيضًا ستجعل أحد محلاتها وكل ما يأتي به من أرباح لهذا المخيم، وبذلك تحاول أن تساعد قدر ما تستطيع.

كانت تمشي باتجاه سيارتها وقلبها يعتصر ألمًا، هذه أول مرة تأتي إلى هكذا مكان، لم تكن تعلم أنّ هناك آلام بهذا الحجم، لله درّ هذا القلب كيف يتحمّل كل هذا الوجع وهو بحجم قبضة اليد! وكيف يمكن الاستمرار بالعيش مع كمّ هذا المعاناة؟ رفعت هاتفها وهي تتصل، وما هي لحظات إلّا أتى صوته على الطرف الآخر:

— أهلًا، هل انتهيتِ؟

نعم انتهيت من الداخل بعد هذا المشهد المبكي للقلب، انتهيت نفسيًّا وأشعر بأنّ جسدي بأكمله يؤلمني، لم تخبره بكل هذا الكلام، فقط أجابت:

— نعم، أنا بالطريق إلى ذات المكان حيث موعدنا.

— ما به صوتك؟ لماذا لا تبدين بخير؟ هل حدث أمر ما؟

- سأخبرك حين وصولي بكل ما حدث، الآن سأنطلق، خلال ساعة سأكون في ذات المكان الذي التقينا فيه في آخر مرة.
- حسنًا، سأنتظرك.

أغلقت الهاتف دون كلمة أخرى، كانت تشعر بالثقل حتى بالكلام، تحتاج أن ترتاح وتصمت وقتًا طويلًا وتعيد القليل من التوازن، شعرت بانسياب الدمعة على خدها وهي منطلقة إلى المكان المتَّفق عليه، ووصلت بعد مدة، نزلت متثاقلة حتى من نبضاتها، وجالت ببصرها بالمكان، فرأت مديرها السابق جالسًا ينتظرها، فذهبت إليه وهي تلقي السلام:

- سلام عليك، كيف حالك؟ آسفة على التأخر، ولكن حدثت بعض الأمور.
- وعليكِ سلام الكون بأكمله، شعرت بصوتك حين تكلمتِ منذ قليل واشتغل الفكر بكِ وبماذا حدث معك.

بدأت تسرد عليه منذ وصولها إلى المخيم وحتى لحظة عودتها، كانت تتكلم بنبرة تقطّع نياط القلب وتصف المعاناة التي وجدتها في أعين الجميع، وكيف كان واضحًا سرقة الوطن من أعينهم، واضح اليتم في كلامهم، من قال اليتيم من يموت والديها أو أحدهما؟ من سُرِقت منه الأحلام تيتّم، من حُرِم حقّ الحياة تيتّم، من أُخرِج من وطنه تيتّم، من يعيش بين أهله دون محبتهم يتيم، اليتم الحقيقي هو فقدان لذّة الحياة وأنت ما تزال على قيدها وعلى أرضها.

أنهت كلامها وهي تجفف دمعها الذي لم يقاوم ونزل على مجرى خدودها، كانت قد نست أمر أهلها وغاب عن فكرها الموضوع نهائيًّا،

أمّا عن المدير فقد تأثر حتى سقطت دمعة يتيمة على خده ومسحها بخفّة، يجب عليه أن يكون مصدر قوة لها، أمسك يدها وجذبها إليه وهو يحتضنها ويربت على ظهرها وشعرها، كالمرة السابقة لم تقاوم حضنه أبدًا، لقد اتصلت به أساسًا لأجل الشعور بالحنان والحب، هي تعلم أنّه يحبّها، ولكنّها تتهرب من هذا الأمر حتى في قرارة نفسها لا تريد أن تعيش هذا الأمر في الوقت الحالي، بقت في حضنه دقائق وهي تبكي وهو يطبطب عليها ويحاول أن يبّث لها القليل من الطمأنينة والراحة، وبعد أن هدأت ابتعدت عنه وهي تنظر إلى الأرض، تشعر بالخجل، حتى وإن كانت بحاجة لهكذا عناق وحب، لم تعتد على هذا الأمر، فقد بدأ حديثًا، وشعر أنّ الوقت مناسب ليخبرها بطلبه:

— جمان أنتِ بالتأكيد تشعرين بمشاعري تجاهك، واليوم أريد أن أعترف أنّني أحبّك كثيرًا، وأريد أن نكمل حياتنا سويًّا، هل تقبلين الزواج منّي؟

توقف الزمن برهة ولم تعد تسير عقارب الساعة، كان قلبها ينبض بقوة وهي تسمع هذا الكلام، ألجمت الصدمة لسانها، هي شعرت بحبه منذ فترة طويلة، ولكنّها حاولت أن تكذِّب هذا الشعور، وكانت تمنع نفسها بالانجراف تجاه بعض المشاعر التي تسللت إلى قلبها تجاهه، باغتها بطلبه المفاجئ والذي لم يكن في وقته أبدًا، وتذكرت مصيبتها وأنّ أهلها يبحثون عنها، فحاولت أن تتهرب من الموضوع وبادرته بسؤال مغاير عمّا كان يتحدث هو:

— ماذا حدث بأمر المنزل؟ وهل أصبح بإمكاني الذهاب إليه اليوم؟

علِم أنّها تتهرب، ولكنّه أصرَّ أن يفهم رأيها حول هذا الأمر، فعاد للكلام من جديد وهو يستفسر عن رأيها:

- ولكنّني سألتك عن أمر آخر، أنا أعلم أنّ الأمر مفاجئ لكِ، أريد أن أحافظ على سمعتك، فليس من الجيد أن آتي إلى منزلك في الوقت الذي لا صفة رسمية لي عندك، والسبب الآخر أنا أحببتك منذ زمن وأريدك امرأتي وحبيبتي، أمّا السبب الأخير أريد أن أحميكِ بطريقة أكبر، وذلك لا يتحقق إلّا حين نكون في ذات المنزل، اسمحي لي أن أُجدد لكِ الحياة من جديد وأُزينّها بحب لكِ.

شبكت يديها ببعضهما وهي تحاول أن ترفع نظرها إليه وتحاول أن تستجمع الكلمات وترتبّهم:

- الوضع الآن غير مناسب للتحدث في هذا الأمر، واليوم أشعر بثقل في قلبي ممّا عشته في المخيم من أوجاع ومآسي، هل لنا أن نتكلم بهذا الموضوع في غير وقت؟

- لا أريد الضغط عليكِ، ولكن فكري في كلامي جيدًا، وقرّري خلال يومين، والآن دعيني آخذك إلى الفندق هذه الفترة حتى نرى ما سيحدث في الفترة المقبلة، ومن ثمّ قد يكون منزلي منزلك ولا تحتاجين الانتقال إلى مكان آخر.

قال جملته وهو يرفع وجهها بيده ويقبّل وجنتها قبلة سريعة، جعلت من جسدها يشتعل وتشعر بحرارة تسري في أعماقها، يا إلهي على هذه الجرأة التي يمتلكها هذا الرجل، ولكنّها لماذا لم تشعر بالخوف أو النفور من هذه الحركة؟ يبدو أنّ مشاعرها تجاهه صحيحة، والدليل على ذلك العناق مرتين، والآن هذه القبلة دون مقاومة منها، يجب عليها أن تحسم أمرها خلال هذا اليومين، وقفت وهي تقول:

- إذَن هل نذهب؟ فلدي عمل كثير، ويجب أن أذهب مرة أخرى إلى المخيم بعد يومين أيضًا.
- سآتي معكِ هذه المرة، أريد أن أساعد أيضًا أولئك الناس.

ذهب كلّ منهما إلى سيارته وهما يشعران بتخبّط في المشاعر والأحاسيس، فمن جهته ينتظر ردها على أحر من الجمر، ومن جهتها لا تعلم ما القرار الذي ستتخذه، وهل ستستطيع الوثوق بالناس مرة أخرى؟ لا تعلم، حاولت أن توجه تفكيرها إلى المخيم والناس وما قد يحتاجون، وماذا ستأخذ معها في المرة المقبلة؟ كان تفكيرها مشتتًا للغاية، فكلما حاولت أن تهدأ وتبعد التفكير عنها عاد إليها، فمرة تفكر بأهلها وبماذا قد يحدث، وهل سيجدونها؟ ومرة تفكر بمديرها السابق وعرضه واعترافه، وهل سترفض أم توافق؟ ثم تعاود التفكير بالمخيم والناس الذي يعيشون داخله، وتفكّر في المآسي التي يعيشونها.

سارت خلف سيارته حتى وصلا إلى مكان بعيد عن منطقتها ومن منزلها ونزلا إلى الفندق، وأخبرها عن غرفتها، وأعطاها بطاقتها وقد حجز باسمه كي لا يستطيع أحد البحث عنها من خلال اسمها، وذهب تاركًا إياها ترتاح بعد كل أحداث اليوم.

❁❁❁

"كيف يحتمل كتاب صغير أو كبير آلاف الجثث، قدر الدم، كم الأنقاض، الفزع؟".

رضوى عاشور

الهواء بارد والريح تشتد، وبدأ الظلام يسدل أستاره على تلك المنطقة التي أظلمت حياة من يعيش فوقها، ومنعتهم من حق الحياة والعيش مثل باقي البشر، فالمخيمات أماكن خُلِقت لمن لا وطن له، ليس لمن يحمل في قلبه الوطن، كان الأمر يزداد سوءًا، وكأنّ هذه الحرب لا تريد أن تنتهي، بل تُصبح كل يوم أسوأ وأشد قوة، لم تعلم هذه الحرب أنّه كلّما اشتد الليل قارب ضوء النهار، وأنّها مهما طال الظلام وراءه فجر مضيء لا بدّ أن يظهر.

بعد ما اتفقت جولي مع الفتاة الصغيرة على تهريبها ومنع هذا الأسر أن يتم، نعم الأسر، فالزواج قسرًا وإجبارًا هو حبس من نوع أمرّ، كانا ينتظران الليل حتى يخفيهما في جوفه وتُغمض الأعين عنهما، في ذلك اليوم لم تذهب جولي مع الطاقم وأصرت على البقاء لفترة أطول مدّعية أنّها ستعود في سيارتها، ولكنّها لم تُخبر أحدًا بذلك من أهل المخيمات، عدا الفتاة، وتوارت عن الأنظار بسيارتها بعيدًا قليلًا عن المخيم كي لا تلفت نظر أحد، ولكنّه حين اشتد الليل نزلت من سيارتها وهي تتلفت خوفًا، فالمكان مهجور والمنطقة موحشة وأصوات الكلاب من كل مكان تأتي، سارت إلى أن وصلت إلى المخيم وقلبها يرتجف من الخوف والذعر، وبذات اللحظة خرجت الفتاة من خيمتها تحمل لعبتها الصغيرة دون أن تأخذ أيّ شيء آخر، فقد اتفقتا على أن يبدو الموضع وكأنّها ضاعت في هذه الصحراء الشاسعة أو أنّ هناك من خطفها، وحينما رأتها جولي شعرت بالارتياح، فقد كانت محتارة كيف

ستناديها، وخائفة أن تكون الفتاة قد غيّرت رأيها ولا تريد الذهاب معها، ولكن حمدًا لله، فها هي تنطلق نحوها، وحين وصولها إلى جولي احتضنتها بقوة وهي خائفة من المجهول الذي ينتظرها، ذهبتا دون أن ينبسا بكلمة واحدة خوفًا من أن يسمعهما أحد، ولم يعلما بالنظرات الصامتة التي كانت تلاحقهما في تلك اللحظة.

وصلتا إلى منزل جولي بعد عناء طويل وطريق أطول وخوف أكبر، وارتاحتا حين وصلا بخير، وفور وصلهما كانت جولي قد جهزت ملابس من قبل للفتاة الصغيرة وأدخلتها الحمام وجلست تنتظر انتهائها، وما هي إلا فترة وجيزة حتى خرجت الفتاة ترتدي تلك الملابس الطفولية الموردة وشعرها مبلول بالماء ورائحتها جميلة جدًّا، كانت تمشي بخجل؛ فقد كان الأمر جديدًا عليها، وما فعلته جولي معها أكبر من أن تصدقه، رأتها جولي وقد بدت أجمل ممّا كانت عليه في ذلك المخيم اللعين بكثير.

عندما رأتها جولي لم تقاوم لهفتها وقامت باحتضانها وقبّلتها من جبينها قبلة الأم الرؤوم التي تُحب ابنتها، رغم أنّ فارق السن لم يكن كبير بينهما، ولكنّها شعرت بمشاعر الأمومة لديها وهي ترى هذه الفتاة كيف تحوّل شكلها وبانت طفولتها أكثر فأكثر بعد أن عاشت تلك الظروف الكبيرة في ذلك المكان البائس، وبعد العناق سألتها جولي:

— ما رأيك أن تأكلي شيئًا لذيذًا قبل نومك؟

لم تجب الصغيرة وكأنّ المكان جعل منها طفلة خجولة، وفهمت جولي من صمتها ذلك الخجل، فذهب من فورها وأعدّت لها شطيرة من الشوكولا وكأس حليب، وحين عودتها وجدت الفتاة نائمة على الأريكة وقد أكل النعاس من عينيها ونال التعب من جسدها، اقتربت منها جولي

ووضعت الطعام بالقرب منها ومددتها جيدًا على الأريكة وأتت بغطاء رغم أن البيت دافئ، ولكنّها خافت من أن تمرض الفتاة خاصة وأنّ شعرها لا يزال مبلولًا من أثر الاستحمام، ولم ترد أن تنام في غرفتها خوفًا من استيقاظ الفتاة وشعورها بالخوف أو الوحدة في هذا المكان الجديد عليها، ونامت هي الأخرى خلال دقائق على الأريكة المقابلة للفتاة.

في الصباح الباكر استيقظت جولي وهي تشعر بألم في كتفها، وذلك بسبب نومتها غير المريحة على الأريكة، ولكنّها لم تهتم، فقط نظرت من فورها على مكان الفتاة الصغيرة ولم تجدها، فنهضت مسرعة وهي تناديها:

— أين أنتِ يا جميلتي؟

لم يأتها صوت، فخافت وبدأت البحث في أرجاء ذلك المنزل الصغير ووجدت باب الحمام مغلقًا، ففهمت أنّها في الحمّام وخفّ روعها، وانتظرتها في الصالة حتى جاءت الفتاة وهي تتأسف بخجل:

— لقد أردت الذهاب للحمام ولم أرد إيقاظكِ، أعتذر عن ذلك.

ابتسمت لها جولي بحب وهي تخبرها:

— لقد أصبح المنزل منزلك لا حاجة للاعتذار، تجولي به كما تشائين لا تخجلي وتترددي أبدًا، سأخبرك عن مكان كل الأشياء هنا فقد تحتاجين أمرًا ما وأنا خارج المنزل.

— هل ستذهبين وتتركينني لوحدي هنا؟

تساءلت الفتاة بخوف واضح. وشعرت جولي بخوفها دون أن تتكلم الفتاة، فأردت أن تطمأنها وهي تقول:

- نعم يا عزيزتي يجب أن أذهب للمخيم، وخاصة اليوم، فعدم ذهابي سيجعل الشكّ يحوم حولي ممّا سيسيء الأمر، ولكن أعدك أنّني لن أتأخر، وقد حضّرت لكِ كلّ شيء قبل ذهابي، تعالي لتشاهدي ذلك.

وبدأت بتجويلها في ذلك المنزل الصغير، وأرتها غرفتها التي حاولت أن تجعلها كغرف الأميرات، كانت أغطية السرير باللون الزهري، وهناك تلفاز صغير وطاولة وُضِعَ عليها أقلام ودفاتر تلوين وكرسي جميل وخزانة فيها ملابس جميلة وجديدة، ممّا جعل الفرحة والدهشة على وجه الفتاة وهي تقول:

- يا إلهي كم إنّها جميلة والملابس أيضًا أحببتها بشدة، ولكن متى أنهيتِ كل هذه الأمور وبتلك السرعة؟

ابتسمت جولي وهي تشعر بالفرح بدورها لأنها استطاعت أن تفرحها، وقالت لها:

- في ذات اليوم الذي تحدثنا فيه ذهبت فور انتهائي وجهزت ما استطعت، ويبدو أنّه أعجبتك الغرفة والملابس.

- نعم نعم، إنّها جميلة جدًّا.

- تعالي إذَن لترى أيضًا المطبخ وما جهّزته لكِ من أشياء وأطعمة جميلة.

بعد أن انتهت من جميع الأمور، وارتدت ملابسها، وقفت عند الباب وهي تخبر الفتاة بعدم فتحها الباب لأي أحد وعدم خروجها، فكلّ ما قد تحتاجه موجود، وأخبرتها أنّها ستعود قريبًا بعد ما ترى الوضع

وتطمئن لعدم حدوث أيّ اشتباه فيها، وانطلقت بسيارتها إلى ذلك المكان البائس من جديد لعلّها تنقذ أحدًا آخر من براثن الزمن.

حينما وصلت إلى ذلك المكان اللعين، والذي يسمى ملجأ، نظرت طويلًا من خلال سيارتها لترى ما يحدث داخل المكان، لم ترَ حركة مريبة إلى هذا الوقت، يبدو أنهم لم ينتبهوا إلى الآن لاختفاء ابنتهما، نزلت وهي تحاول أن تبدو على ما يرام، ولكن عقلها مشغول بالفتاة وما الذي تفعله وحدها وبما سيحدث هنا حين ينتبهون إلى عدم تواجد ابنتهما، لم تلبث أن خطت خطوتين إلّا وترى امرأة تأتي باتجاهها وقد امتلأت عينها بشرار الغضب والخبث، خافت جولي من أن يكون أمرها قد كُشف، فبادرت المرأة بالكلام:

— أنا أعلم أنّكِ من اختطف الفتاة، رأيتك بالأمس كيف تذهبين بها داخل الليل دون أن يراكما أحد سواي.

تملّك جولي خوف كبير ممّا ستؤول إليه الأمور، يبدو الأمر سيكبر وهي التي لم يُصبح لها إلا وقت قصير هنا، ولكنّها فكرت إذا كانت المرأة ستُخبر الناس لماذا أتت إليها أولًا؟ بالتأكيد هنا سبب وراء قدومها، فبادرتها بالسؤال لتوضّح لها منذ البداية أنّها غير خائفة من كلامها:

— وما الذي تريدينه؟ بالتأكيد هناك مقابل لعدم تكلمك إلى الآن.

— أريد عشرة آلاف دولار وغدًا ستأتين بهم، وإلا..

وبترت كلامها وهي تغمزها بشكل مخيف وبنظرة الشر التي تلبّست عقلها قبل شكلها.

— وإلّا ماذا؟ أكملي..

- سيكون هناك أمور أكبر ممّا تتخيلينها، أحلاهم إخبار أهل الفتاة وأمرّهم أن يقوم أحد ما من الذي أعرفهم بقتلك، فقد تذهبين اليوم بجسدك وروحك وغدًا يبقى الجسد وتذهب الروح، والسبب؟ غير معروف، القاتل؟ مجهول.

بدأت السماء ترعد بصوت جمهوري، وكأنّها غاضبة ممّا تسمعه، ومن المؤامرة التي تخطط لها هذه المرأة الملعونة، تبدو بكلامها هذا وكأنّها من أقارب إبليس الذي عصى ربّه بالتكبر والغرور، وهي الآن تعصيه بالابتزاز والتهديد، نظرت إليها جولي تحدٍّ وغضب وهي عازمة على عدم تنفيذ أوامرها والرضوخ لها، كيف سترضخ لهذه الملعونة وهي التي أتت إلى هذا المكان لتحقق الدعم! كانت تشعر بخوف المرأة رغم نظرة الشر الذي في عينيها وكلامها المخيف، تعلم أنّها في قرارة نفسها مرتبكة ومتوترة، ولكنّها ستحاول ترويضها، فعادت للتحدث من جديد مظهرة التعاطف لحالها:

- ما الذي تحتاجينه لتأخذي هكذا مبلغ؟ يمكنني أن آتي إليكِ بما تريدين.

- هل ستأتين لي بالمخدرات لأتاجر بها؟

المخدرات؟ ذلك السم الأبيض الذي مات ويموّت الملايين بسببه؟ صُعِقت بطلبها، فهي كانت تظن أنّها تريد المبلغ لأجل الحاجة أو المرض، ولكن لأجل المخدرات؟ لا يمكن بتاتًا أن توافق على مثل هذا الأمر.

- لن أعطيكِ أي مال ولن تحصلي على هذا السمّ، ألا يكفي ما أنتم به من جوع وفقر وتهجر ويتم الوطن؟ ستزيدين الطين بلة وتجعلين من هذا السم وسيلة أخرى عدا الوسائل المتاحة، لن أقبل حتى وإن كان الثمن روحي.

- إذَن استعدي لما سيحصل لكِ في الأيام القادمة.

ذهبت الملعونة إلى خيمتها، ومشت جولي إلى باقي الفريق وهي تفكر كيف ستتعامل مع هذا الأمر، وقد زادت مسؤوليتها وهمّها ومن تفكيرها والضغط النفسي الذي تعانيه، لم ترَ تلك الأعين التي تراقبها بحنية وخوف، وبدأت تقترب تلك الأعين باتجاهها وما هي إلّا لحظة ووضِعت يدّ على كتفها، فخافت وهي تبعدها عنها بقسوة وتلتفت قائلة:

- من أن..

وبترت كلامها قبل أن تسأل من الذي وضع يده على كتفها حين رأت امرأة يتجاوز عمرها الأربعين وهي تنظر إليها باستغراب:

- رتيل! هل هذه أنتِ يا صغيرتي؟ ولكن ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟
- أهلًا يا خالة، اسمي جولي، ويبدو أنك تشبّهين عليّ، هل أساعدك بأمر ما؟

ردت جولي وهي تبتسم للمرأة بود، ولاحظت نظرات الاستغراب، ومن ثمّ الحزن الذي خيّم على وجه المرأة بعد كلامها، وبدورها المرأة أرخت يدها من على كتف جولي وهي تبتعد دون أن تنبّس بكلمة زيادة، ممّا جعل جولي تستغرب من ردة فعلها.

وبدورها جولي ابتعدت هي الأخرى باتجاه معاكس للمرأة إلى الطاقم الخاص بهم، وقد عاد إليها الهمّ وهي تفكر بالمرأة وما قد تفعله وبالفتاة وما إذ كانت تحتاج أمرًا ما، ولم تنتبه أيضًا إلى العينين التي تراقبها منذ فترة طويلة دون أن يتكلم معها، فقط يظل في وضعية الصمت، ولكنّه اليوم قرر أن يُخبر صديقه:

- إنّها هي ذاتها، حتى وإن تغير شكلها بعض الشيء، ولكنّها هي نفس الملامح والنظرات الجميلة، ذات الود ومحبة المساعدة للناس، ولكن ما الذي أتى بها إلى هنا؟ أتذكر أنّها سألتني عن المخيم ونظرتي لمن يسكن فيه، ولكن كان الأمر على شكل دعابة وانتهت! ما رأيك أنت؟
- ماذا سيكون رأيي؟ أنت تقول إنّها هي، وأنت أعلم مني بها.
- كيف سأتأكد إن كانت ذاتها؟
- اذهب وتكلم معها وحينها تحسم أمرك إن كانت هي أو لا.
- لا أريد، أخاف أن أفقدها من جديد.
- ولكن يا فارس..
- لا يا خالد لا أريد وانتهينا من هذا الأمر سأبحث عن الأمر دون معرفتها.

وصمتا الاثنان وعاد خالد لعمله وهو يعلم أنّ صديقها يكاد يحترق حتى يعلم ما أمر هذه الفتاة، ولماذا اختفت كلّ هذه السنوات، وبدوره كان فارس يبحث عنها بعينيه وهو يعالج أحد المرضى، ولكن عقله في وادٍ آخر تمامًا، يريد أن يفهم الأمور والخوف يأكل قلبه، يخاف أن يفقدها من جديد، ولا يريد هذا الأمر، يكفيه من الحب أن يرى تلكما العينين الجميلتين، يكفيه من العشق أن يلتقي بها كل يوم في خياله ويعانقها عناق الحب الأبدي والهيام الروحي، لا يريد أن يذهب ويسألها بعد كل هذا الوقت وتختفي هي من جديد، سينتظر إلى أن يحين الوقت ويتكلم معها، ولكن يجب عليه أن يعمل على أمر آخر، ألا وهو البحث عن معلومات عنها دون معرفتها.

ذهب فارس إلى الطاقم الطبي بعد أن رأى جولي تبتعد إلى إحدى الخيَم، وسأل الشاب الذي كان متواجدًا هناك:

— هل هذه الفتاة من الأشخاص الجديدة التي تعمل معكم؟

— نعم، اسمها جولي وأرادت التطوع بقسم الدعم الاجتماعي لمساعدة من يحتاج.

انصدم فارس وهو يسمع الاسم، وجلس يردد وراءه دون أن ينتبه لنفسه:

— جولي!

— نعم، يبدو أنّك متعجب من الاسم، ولكن ذلك يعود إلى أصول والدتها الأوروبية، أمّا والدها فعربي.

صمت فارس برهة من الزمن قبل أن يعيد عليه السؤال:

— هل أنت متأكد من اسمها؟

— نعم، فكيف ستتقدم للعمل التطوعي دون أوراق رسمية؟ وفي الأوراق الرسمية مذكور اسمها ووالدها كاتب معروف.

خبر صادم آخر بعد خبر اسمها وأنّ لديها أصول أوروبية، هي أخبرته فيما سبق أنّ والدها رجل فقير مات قبل أن تولد، سار فارس وهو بغير وعيه والأفكار تتزاحم بعقله، كيف لم يعلم هذه الأمور وقد مضت العلاقة بينهما فترة طويلة؟ من أنتِ يا حبيبة القلب وسارقة الفكر؟ من أنتِ يا فرحة العمر وتنهيدة الفراق؟ والسؤال الأهم لماذا ابتعدتِ عنّي دون سابق إنذار، وما السبب الآن في تواجدك في هذا المكان؟

❀❀❀

"لا تحزن إذا أُعسرت يومًا، فقد أُيسرت وقتًا طويلًا، ولا تظنّ بربك سوءًا، فإنّ بالله أولى بالجميل، ولو أنّ العقول تسوق رزقًا، لكان المال عند ذي العقول".

قول مقتبس

في ذات المخيم الذي تعمل به جولي كانت تتواجد ندى، يبدو أنّ القدر لم يرضَ لهذه الأم أن تتألم أكثر، يكفيها ما ألمَّ بها من ذلك الملعون في الآخرة قبل الدنيا والمطرود من رحمة الله، لذلك أراد الله أن يهيئ الأسباب فيجمعهما سويًّا رغم أنف الظروف.

كانت ندى تنظر إلى جولي باستغراب وودّ، شعرت بأنّ هناك رابطة بينهما، كانت تتساءل بينها وبين نفسها عن سرّ هذا الشبه الكبير الذي يجمع جولي مع ابنتها رتيل، إلا أنّ جولي يبدو عليها الرفاهية والحياة المترفة أكثر، فقد كان شعرها أطول من شعر رتيل بكثير، ولكن ذات النظرة وذات تفاصيل الوجه والجسد، لولا أنّها كانت تبدو سعيدة وهي تسير بين الخيم وتتنقل خلالهما لظنّت أنّها رتيل، فجأة قطع عليها حبل أفكارها مجيء جارتها وهي تسألها:

— ما بكِ تتأملين الفتاة هكذا وكأنّكِ أمّها وفخورة بها لما تقدمه من دعم لنا؟

صُدِمت ندى من قولها أمّها؟ كيف غاب عن بالها هذا الأمر، فردت السؤال بسؤال آخر:

— هل من المعقول أنّها ريتال؟ لالا لا أظن ذلك، فكيف ستأتي وقد سمعت أنّ من تبناها خرج بها إلى دولة أوروبية وليس من الممكن أن تأتي في هذه الظروف إلى هنا!

– عن ماذا تتكلمين؟ ومن تقصدين بريتال؟ هل لرتيل اسم آخر؟

– سأخبرك ببقية تفاصيل قصتي لتفهمي ما أقصد، ولكن دعينا نذهب إلى مكان آخر فلا أريد أن يسمعنا أحد.

ذهبتا إلى مكان بعيد عن الناس وجلستا على التراب وهما تلفتان بغطاء سميك يقيهما من نسمات الرياح الباردة التي اشتدت في الآونة الأخيرة، وبدأت ندى بالحديث وهي تخبرها..

بعد أن سمعت صوت أمّها وهدأت قليلًا وعادت إلى البيت وهي تجرّ فوق حملها أثقال من الهمّ، ولكنّها اعتبرت أنّ الله لم يرد لهذا التوأم أن يموت، لذلك ستصبر على بلائها وتحتسب أجرها عند الله، ومرت الأيام ثقال الروح والجسد كانت تعمل وتخبئ من المال للأيام التي ستلد بها، مرت الأيام رغم صعوبتها سريعًا، ولم يكن الأمر سهلًا، ولكنّها تجلدت رغم ذلك، وحان وقت الولادة، حين كان يأتي الطلق في البداية كانت تشعر بألم كبير، ولكنها لم تفهم أنّها تلد، فكيف لفتاة بأعوامها السبعة عشر أن تفهم هذه الأمور وهي التي عاشت في كنف عائلة محافظة لم تعهد مثل هذه الأمور أبدًا! بعد ساعات من المعاناة والألم الذي يذهب ويعود بدأ الموت يتراءى لها، فقد كان طلقُ الولادة يشتد ويشتد، وفي كل مرة تشعر أنّ روحها تقتلع منها، كانت تلك الانقباضات في رحمها أشبه بموجة عنيفة داخل البحر، تأتي بقوة ثم يعود الموج بهدوء، وما تلبث أن تشعر بالراحة قليلًا حتى تشعر بالموجة من جديد، وبشكل أقوى من سابقتها، كان الألم قد بدأ في ظهرها، وما لبث أن امتد وانتشر إلى أعلى البطن ثم أسفله وكان بين الانقباضة والأخرى يزداد الألم أكثر فأكثر، رغم ذلك كتمت صراخها، كان شعورها بالخجل والحياء أكبر مانع من الألم والصراخ، ووصلت لمرحلة

لم تعد تطيق الوجع ولم تعلم كيف فتحت باب بيتها وخرجت وقد رأتها ذات الجارة وأسرعت إليها حين رأت تقاسيم الوجع على وجهها، وبحكم أنّها متزوجة عرفت أنّها تلد، فأسرعت وأوقفت سيارة وهي تساعدها وتخبرها بأن تأخذ نفسًا عميقًا وتخرجه، ووصلتا إلى المستشفى والألم لم يتوقف بعد، وبالفعل كانت لحظة الولادة ويجب أن تدخل إلى غرفة العمليات، ولم تلبث إلا دقائق حتى سمعت صوت بكاء، لم تعلم هل تفرح؟ هل تتألم؟ ظنّت أن رحلة العذاب قد انتهت، ولكن عاد الطلق من جديد بالمولود الآخر، يبدو أنّه لا يريد الافتراق عن أخته، ومن جديد سمعت صوت بكاء أكبر، وهطلت دمعاتها وهي تغيب عن الوعي، فقد كان الوجع مضاعفًا، وجع روح ووجع جسد، لم تعلم كم ظلّت نائمة، ولكنّها حين استفاقت وجدت نفسها بين سريرين، في هذه اللحظة عادة ما تشعر بالمرأة بالفرح، فقد رُزقت بنعمة حُرِم منها الكثيرون، لكنّها بدأت بالبكاء وهي تنظر إليهما ولم تعلم بعد جنسهما، كان الأمر أشبه بكابوس، نعم كابوس، كانت خائفة بداية على روحها، والآن ستخاف على ثلاثة أرواح، يا إله السماوات أي امتحان تضعني به! وكيف سأخرج من هذا البلاء الذي يزيد يومًا بعد يوم؟ جاءت المرضة إليها وهي تبتسم وتبارك لها وتسألها عن وضعها الآن:

— مبارك مدام، كيف تشعرين الآن؟ هل تريدين حمل طفلتيكِ؟

يالسخرية القدر! التوأم فتاتان!! أيّ شؤم سيحلّ بهما؟ أوآه ممّا ينتظرهما وألف أوآه، لو كانا صبيين لما خفت عليهما سيعشان كيفما شاءا، ولكن هاتان كيف سأحافظ عليهما من المجتمع ونظرة المجتمع ومن سيتزوجهما؟ عادت لتنظر إليهما من جديد، كانتا قطعتي ثلج من شدة بيضاهما، وظنّت المرضة أنّها تريد رؤيتهما، فحملت إحداهن:

— يبدو يا سيدتي أنّهما يشبهان زوجك.

ضحكت الممرضة وهي تضع الفتاة في حضني.

شعرت بالاشمئزاز من جملتها، وكشرّت في وجهها، ولم تنتبه لي، فقد ذهبت لتجلب الأخرى إليّ ووضعتها أيضًا في الطرف الأيمن منّي، نظرت ببلاهة إليهما، كانتا جميلتين للدرجة التي يُقال عنها نقطتان في مصحف، لم أزح نظري عنهما وقد توردا خدهما، كأن النظر إليهما أنساني أنهما بلا أب، ولكن القدر يأبى أن يجعلني أنسى فما لبثت لحظة حتى بادرت ذات الممرضة بالسؤال عن والدهما:

— سيدتي أين والدهما؟ كان يجب أن يكون هنا لأجل إجراءات دخولك ولكنّك كنت بوضع حرج لذلك تمّ دخولك بحالة إسعاف.

— والدهما مسافر ولا يوجد لدي أحد هنا فما هي الإجراءات أنا سأحلّها لا بأس.

نظرت إليّ الممرضة بريبة وتخلّت عن سؤالها ببكاء إحدى طفلتي، وما برحت أحاول إسكاتها إلا وقد بدأت الأخرى بالبكاء أيضًا، ما هذا الوضع الذي لا يُطاق؟ كيف ستصمتان الآن، أتت الممرضة وهي تحمل إحداهن وتخُبرني أنّه يجب إرضاعهما. نظرت إليها بحياء، فقد كان الأمر جديدًا عليّ، وبدأت بتعليمي وهي تخبرني أنّ الرضاعة الطبيعية صحية أكثر لي وللصغيرتين، ولكن قد أحتاج حليبًا أكثر لأنهما اثنتان وقد لا يكفيهما حليبي، حين وضعت صغيرتي فمها وبدأت ترضع كأن الألم كبيرًا، لست معتادة على هذا الأمر، يا رب ما هذا الشعور وذلك التناقض الذي أنا فيه! لا أستطيع الفرح ولا الحزن، أنا واقعة بينهما، رغم مرارة الأمر لم أستطع أن أكرههما، ومرّ الأسبوع الأول صعبًا، خاصة وأنّه حسب ما فهمت يجب أن يرضعا كل ساعتين، كان النوم يُحرم من عيني

وتُسلب الراحة، وحان وقت الخروج إلى المنزل، وعدت أحمل الطفلتين وقد ساعدتني جارتي في الأيام الأولى من خروجي، ولكن فيما بعد بدأ الأمر أسوأ، فقد كان يجب عليّ أن أشتغل وانتبه لهما، وقد مرّ شهر لم أعرف من النوم إلّا سويعات قليلة، لم يكن لي مُعين ولا أهل حولي، وكان الأمر أشبه بعذاب داخل معتقل، ما إن أنتهي من رضاعة الأولى وتبديل ملابسها ونومها، تبدأ الأخرى بالبكاء والصريخ، وبعد شهرين بدأ المال ينفد، وإلى الآن لم أسميهما بسبب الضغط المادي والنفسي الذي كنت أعانيه، جلست أفكر ماذا يمكنني أن أفعل، وتذكرت قلادتي الثمينة التي أهدتني إياها أمي ذات يوم، أخذتها إلى الصائغ وسألته:

— مرحبًا، أريد أن أعلم كم ثمنها؟

بعد أن أخبرني عن سعرها، فكّرت مليًّا وقررت أن أجعل نصفها مصروفًا والنصف الآخر أشتري به قلادتين باسم صغيرتاي، ولكن إلى الآن لم أسمّهما! بدأت التفكير ماذا سأسميهما؟ وكيف لم يخطر في بالي هذا الأمر، قررت أن يكون اسمهما رتيل وريتال، ولقد أعطيته الاسمين وقدّر السعر للعقدين، وذهبت بباقي المال واشتريت قطعتي لبس لهما، ووضعت لكلّ واحدة عقدها وأنا أتأسف لهما ممّا سيّحل لهما دون ذنب منّي، وبعد شهر نفد المال تمامًا، فخطر لي أن أذهب بهما إلى دار الأيتام، ولم أستطع التفكير بهذا الأمر إلّا والدمع يهطل منّي، كيف سأفرط بهما؟ لا يمكن، إنّهما قطعة من روحي، قررت أن أضّحي بإحداهن، ليس لتخلص منّها، ولكن أريدها فقط أن تأكل وتلبس ولن أتركها، سأظل أذهب كلّ يوم وأتفقدها دون معرفة أحد أنّها ابنتي، كان هذا أصعب قرار اتخذته في حياتي كلّها، انتظرت إلى أن حلّ الليل وحملتهما، وانتظرت إلى أن خلا الشارع من المارة، ووضعت واحدة

منهما عند الباب دون أن أعلم من! وانتظرت بعيدًا لأتأكد أنّهم سيأخذونها، كنت أبكي دون صوت، بكاء القلب والعين، فكيف أتخلى عن قطعة من روحي هكذا! كان الأمر أشبه بالانتحار والحبس المؤبد، فإمّا أن تبقى الفتاة معي وتموت من الجوع، وإمّا أن أجعلها تحيا في تلك الدار، واخترت بغريزة الأمّ بقاءها على الحياة، وما هي إلّا لحظات ورأيت امرأة تفتح الباب وتحملها وهي تتلفت باحثة عمّن وضعها، وحين لم ترَ أحدًا أدخلتها إلى دار الأيتام، ولم أستطيع فراقها أكثر، فذهبت إلى دار الأيتام في اليوم التالي، وأنا في طريقي خطرت لي فكرة، ما دام البيت قريبًا، لماذا لا أخبرهم أنّي مرضعة وأريد التبرع بحليبي لمن لا أمّ له؟ وبذلك أضمن رؤية صغيرتي، وفي ذات الوقت أضمن لها حليبها، بعد أن وصلت إلى هناك وبادرتُ بالسلام والكلام:

- السلام عليكم، لقد أخبرتني جارتي من خلال صديقة لها تعمل لديكم، أنّه هناك أطفال بحاجة للرضاعة، وأردت أن أساعدكم بهذا الأمر، فأنا ولدت منذ فترة، وأشعر بأنّ حليبي فائض عن حاجة صغيرتي، فإن أردتم أريد أن يكون لي دور في رعاية هؤلاء الصغار.

لم أعلم كيف اخترعت هذه الكذبة سريعًا، ولكن أردت أن أجعل الأمر يبدو تطوعيًّا، ويبدو أنّ صغيرتي شعرت بالاغتراب هنا وهي التي اعتادت على دفء حضني وأنفاس أختها حولها، بدأت المسؤولة بالترحيب وهي تُخبرني:

- أهلًا وسهلًا، إنّه عمل نبيل منك أنّك أتيتِ حين سمعت ذلك، نعم لدينا أطفال بحاجة للرضاعة وقد أمنّا لهم ما يحتاجون، ولكن هناك طفلة جديدة تأبى كل أنواع الحليب، لعلّ حليبك ينفع معها.

شعرت أنّ نياط قلبي يتقطّع حين سمعت هذا الكلام، إذَن صغيرتي منذ الأمس لم تأكل، وهي في حالة بكاء مستمر وجائعة، وهممّت بالاعتراف أنّها صغيرتي، ولكن منعني مجيء إحدى العاملات وهي تحملها بين ذراعيها، وقد بدت شاحبة من شدة البكاء، ووضعتها في حضني، وتعجّب الجميع سواي حين سكتت ريتال عن البكاء، بل وأخذت ثدي بين شفتيها بنهم وجوع كبيرين، وأطلقت المسؤولة تنهيدة ارتياح وهي تقول:

— الحمد لله، وأخيرًا، ياللعجب حاولنا كثيرًا أن نسكتها ونطعمها، ولكن عبث، كلّ ذلك ذهب أدراج الريح، يبدو أنّنا سنعتمد عليكِ كثيرًا، فالفتاة تبدو مرتاحة معك.

لم أرَ العقد في عنقها، ولم أكن أستطيع السؤال عن الأمر فأثير الشبهة حولي، كنت في حالة شوق لها، وكان يمنعني وجودهم من أن آخذ راحتي معها، وسرعان ما غفت بين ذراعي، وتقدمت العاملة لتأخذها، ولم أكن أريد إعطاءها إياها، هذه الصغيرة كيف ستعيش بعيدًا عنّي؟

— يبدو أنّكِ تعلقتِ بها منذ المرة الأولى، بالفعل لديها وجه ملائكي يمنع الجميع من إبعاد نظرهم عنها، ولكن يجب أن أضعها في سريرها.

يا رب كيف سأتحمل كلّ هذه المعاناة! والتفت إلى رتيل، وكانت المسؤولة تنظر إليها بتعجب واستفهام، وبادرتني بالقول وهي مستغربة:

— يقال إنّه يخلق من الشبه أربعين، ولكن لم أصدق هذا الكلام إلّا حين رؤية ابنتك والفتاة التي وجدناها أمس.

حاولت أن يكون الأمر غير مريب، وحملت رتيل بين ذراعي وأنا أفكر بماذا أجيبها:

— نعم يبدو ذلك، ولهذا شعرت بالمحبة لهذه الصغيرة، والآن أريد الذهاب، فقد تأخرت عن زوجي ولا أريده أن ينزعج من خروجي.

— لكن يجب عليكِ أن تأتي مساءً أيضًا، فالفتاة بحاجة لحليبك منذ اليوم.

— لا بأس سآتي.

خرجت مسرعة وأنا خائفة من الأمر برمّته، يبدو أنّها شعرت بالشبهة حولي، كيف لا وابنتاي توأم متطابق بنسبة تسعة وتسعون بالمئة؟ يجب أن أجد حلًّا لهذا الأمر ولا آتي بها بعد اليوم معي، ولكن أين سأضعها في هذه الفترة؟ قد يطول الأمر أكثر من ساعة، ولا أستطيع أن أبقي صغيرتي بمفردها داخل المنزل، فقد تستيقظ وتبكي، وخطر على بالي جارتي التي كانت تساعدني، وبالفعل أخبرتها أنّه لدي عمل في الصباح والمساء لأجل أخذ البضاعة ومن ثمّ إعادتها، فإن كان بإمكانها أن تتركها؟ وكانت طيبة القلب خلوقة جدًّا، فوافقت دون تردد، وهكذا مضى شهر آخر، ولكن حدث ما لم أتوقعه ولم يكن في الحسبان، فذات يوم ذهبت كالمعتاد لإرضاع صغيرتي، وحين وصولي تُخبرني المسؤولة:

— لقد تمّ تبنّي الفتاة من قِبل عائلة غنيّة ومعروفة.

ماذا أسمع بحق السماوات والأرض؟ طفلتي لم تعد موجودة! صغيرتي أصبحت ابنة غيري وكلّ هذا بسببي أنا وبسبب عدم قدرتي على تحمل مسؤوليتها، ولكن لماذا لماذا يا ربّي تجعلني أعاني كل هذه المعاناة؟ ألا يكفي أنّني قد حُرِمت منها طوال الوقت إلّا تلك الساعتين في اليوم أطعمها فيهما؟ وبدأت بالنحيب دون أن أسأل ماذا قد يظنّ

الناس، ويبدو أنّهم ظنّوا أنّ بكائي بسبب إرضاعي لها وتعوّدي عليها، فبدأت المسؤولة بمواساتي وهي تقول:

— لقد كنت خير أمّ بديلة لها، وأعلم أنّ فراقها قد أحزنك، ولكن يجب أن تفرحي، فستعيش الفتاة في كنف عائلة مرتاحة ماديًّا وستكون بين أيدٍ أمينة وسنتفقدها بين الفترة والأخرى.

ماذا تتكلم هذه؟ تقول أمًّا بديلة! لا عتب عليها لا تعرف مرّ الحقيقة، ولكن في كلامها شيء من الصحة، فصغيرتي سيكون لها اسم ونسب وستعيش في منزل دافئ وتأكل طعامًا نظيفًا، ولكن ما بال قلبي يتألم لهذه الدرجة؟ أفتقدها أشعر بأنّ أحد جناحي قد قُص، أريد أن أحتضنها ولو لمرة واحدة فقط قبل ذهابها، كيف لهم أن يبعدوها عني هكذا؟ حملت نفسي وعدت إلى الحي الذي أعيش به وأنا أجرجر أذيال حزني وخيبتي ورائي، وكانت رتيل مزرقة من كثرة البكاء، فمن قبل خروجي كانت تبكي ولم أعلم ما سبب هذا البكاء، ولكن الآن علمت أنّها هي الأخرى شعرت برحيل أختها، حملتها بين يدي وبدأت الأيام تمضي بثقلها، ولم تبرح عقلي أبدًا، أفكر فيها في كل الأوقات، وظهر السن الأول، ومن ثم خطواتها الأولى، وفي كل مرحلة كنت أتساءل كيف الأمور تسير مع ابنتي الأخرى؟ وفي عامها الخامس أراد الله أن يمتحنني من جديد..

ولم تستطع ندى أن تُكمل كلامها، فقد رأت سيارة سوداء توقفت ونزل منها عدة رجال يرتدون ملابس سوداء وأقنعة وفي أيديهم أسلحة، وأخذوا جولي من أمام عينيها، وصرخت بصوت عالٍ ورأت الطاقم الداعم وفارس يركضون للحاق بالسيارة، ولكن دون جدوى، فقد انطلقت السيارة مسرعة حاملة جولي معها.

❁❁❁

وأنت يا سند القلب، وجار الروح، وشقيق النبض، ويا ثروتي وكل ما أملك في هذه الدنيا.. أعوذ بالله من وقت بلا وجودك بجواري.

كانت تنظر إلى حبات المطر التي تترامى على النافذة وتسمع أصوات الرياح التي تعصف بالخارج، لم تعلم ما هو الوقت وكم أصبح لها من الزمان هنا، تستيقظ على رائحة الخمر ودخان السجائر وتغفى على شعور الخوف والرهبة، تائهة منذ أن وعت على هذه الدنيا، لا طريق لها مثلما كان لا نسب لها، وحيدة تعيش على الانتقام والكره ولا تعرف للحب دربًا، تكابر كل يوم على مشاعرها وتتمرد على قلبها الذي يذكّرها بذاك العاشق لها، لا تريد الاعتراف بأنّه سلب قلبها باهتمامه وحبّه وحنانه، جميل الهيئة والشكل، ولكن لم يلفتها ذلك، كان اهتمامه بها سرّ تعلقها به رغم أنفها، لم تتوقع أن تشتاق له، كانت تظن أنّه محطة في حياتها، واليوم تشعر بأنه الحياة بأكملها، مع أنّها تكابر ولا تريد الاعتراف بمشاعرها، ولكنّه أخذ القلب.

عادت بها الذاكرة لسنوات مضت، إلى أيام كانت السويعات التي تلتقي به فيها ما يسمّى الحياة، من الذي يملك الحق في منع ما هو حق لنا؟ بسبب جريمة شنيعة هي اليوم بلا نسب، بلا أهل، وتسعى للانتقام بكل ما تملك من قوة ممّن يقال لهم ذكورًا.

— عفوًا لم أكن منتبهة، أعتذر.

كانت منتبهة جدًّا وتراقبه منذ أيام وخططت للإيقاع به في شبكها وكسر قلبه، منذ أن عِلمت سحرها على الرجال قررت أن تسلك هذا الطريق، كسرت قلوبًا كثيرة، ولم تبالِ، واليوم اختارت فريستها بعناية

كبيرة، عِلمت أنّه طالب طب متفوق وشخصيته عظيمة بين الطلاب، ولذلك أرادت كسره.

- لا عليكِ لم يحدث شيء.

رفع فارس رأسه إليها وبقي مشدوهًا غارقًا في تلكما العينين الخضراوين، سبحان من خلق فأبدع، كانت جميلة للدرجة التي لا تُقاوم، وكأنها آية في مصحف مزخرف، مثلما نزّل الله سحر هذه الآيات في قلب عباده، أنزل جمال صنيعه في تلك الفتاة.

- أعتذر لدي موعد مع صديقة لي هنا ولم أرك بسبب العجلة فصُدمت بك.

- اسمي فارس، طالب طب بشري أدرس بجامعة قريبة من هنا.

لم يعلم أي سحر ألقته عليها بشكلها ونظراتها، سلبت منه عقله وتكلم دون أن يعرف ماذا يتكلم، وعلمت هي بأنّ خطتها نجحت، فلا رجل يستطيع أن يقاومها، ولكن ليس الهدف أن تجذبه بجمالها، تريد أن تأخذ ما هو أغلى من ذلك، يجب أن تأخذ القلب أولًا وتكسره، وثم الفكر والعقل فتدمره، تسعى دائمًا لذلك، لا تريد لرجل أن يعيش مرتاح البال، في نظرها جميع الرجال سواسية، وكلّهم مخلوقات متوحشة، ويجب أن تعرف كيف تسلب مخالبهم بجمالها.

- وأنا رتيل، الطب مهنة سامية وتحتاج لجهد وتركيز، فإما أن تعطي حياة بمساعدتك وتعبك وإما أن تسلب حياة بقلة اهتمامك وعدم تركيزك.

- نعم الأمر كذلك، هل تدرسين بذات الجامعة؟

- لا لم أكمل تعليمي، أكرر اعتذاري، يجب أن أذهب، فقد تأخرت.

تمشي من أمامه ونظره وراءها، وكأنّها سلبت منه عينيه، ما هذا الجمال الذي لم يرَ له مثيلًا؟ أمّا هي فكانت تضحك سرًّا، فقد علمت وقع جمالها عليه، وفي المرات المقبلة ستسلب قلبه وعقله، وتوالت الصدف المقصودة من طرفها، وفي كل مرة يأتي هو ويتكلم معها، ودامت علاقتهما بين صد ورد أشهر دون أن تتطرق هي إلى ذكر أهلها، أمّا هو فكان في كل مرة يتحدث باستفاضة عن نفسه وعن أهله، وهكذا لسنة كاملة كانا كأصدقاء بالنسبة لرتيل، أما فارس فقد كان يعشقها يومًا بعد يوم، وخاصة أن رتيل ذات شخصية قوية واثقة من نفسها رغم الظروف التي هي فيها.

وفي يوم اعترافه لها شعرت أنّ قلبها بدأ ينجذب له وتعشق حديثه وتشعر بالراحة حين تراه، ولم تضحك يومًا إلا معه، ولذلك قررت أن تكسر هذه المشاعر، لا تريد أن يقترب منها أكثر من ذلك، يجب أن تضع حدًّا لهذه العلاقة، ولكن يجب أن تجعله يظنّ أنّها تعشقه لمدة من الزمن قبل أن توجّه له الضربة القاضية وتكسر فؤاده.

وذات مساء وهما جالسين أمسكت يده ونظرت إلى عينيه وهي تقول له:

— لم أعشق رجلًا سواك، يا أول بدايتي وآخر نهاياتي.

لحظات من الصمت العاطفي، لم يصدّق فارس ما سمعه، هل ما تقوله صحيح؟ عاد لسؤالها من جديد غير مصدّق أذنيه:

— ماذا قلتِ؟ أعيدي أعيدي.

تطلق ضحكة قصيرة وتظهر تلك الغمزة التي يتمنى أشجع الرجال أن يُدفن فيها، وتلمع عيناها وتعيد اعترافها بصوت أعلى:

— أحبك يا رجُلي.

يبتسم فارس بقوة، وكأنه ربح جائزة كبيرة، وكأنّه انتصر في أشد معاركه القاهرة وهو الذي كان يبدي لها مشاعر الحب منذ أمد طويل وقد اعترف لها أكثر من مرة بحبه، ولكنّها كانت متكتمة على ذاك الاعتراف الذي كان ينتظره بفارغ الصبر، واليوم! اليوم اعترفت أخيرًا بأنّها تحبّه، ولكن عند رتيل كانت تكابر على نفسها وتقول إنّ هذا الاعتراف مجرد كلمات خارجة من لسانها فقط، وقلبها لا يمكن أن يُخرج يومًا ما محبة لذكر.

وتعددت اللقاءات العاطفية بينهما، وكلّ يوم يُسحر بها فارس أكثر، وكأنّها كتلة من المفاجآت، لم يكن يسأل عن أهلها أو حياتها الشخصية، وهي لم تُرد أن يعرف شيئًا، إلى أن أتى ذاك اليوم الذي شعرت رتيل أنّه يجب أن تنهي هذه المهزلة بالنسبة لها، وتقضي على فارس دون أن تدري أنّها تقضي على نفسها أولًا، فقد تعلّق قلبها به كثيرًا، ورغم ذلك كانت تكذب على نفسها أنّه مجرد ذكر عابر مثله مثل الكثيرين الذين حطمت قلوبهم من قبل، وستحطم فيما بعد، حتى تطفئ نار الانتقام في قلبها، ولكنّها لم تفهم أن الانتقام لا تنتهي ناره وتظلّ جائعة لوقود دائم. سارت بذاك اليوم دون أن تترك أثرًا من خلفها، سارت على قلب ذلك العاشق المسكين المتيم فيها حتى أخمص قدميه، سارت وهي تظن أنّها كسرته ولم تعلم أنّها كسرت قلبها قبل كسره.

عادت إلى الواقع على صراخ من الغرفة التي بجوارها وارتعبت من الصوت، كان هناك من يتألم ويصرخ بشدة، تحركت من مكانها ولم يكن هناك أحد في الغرفة سواها، يبدو أنّ اللذين كانا يحرسانها قد انشغلوا عنها، وذهبت باتجاه الغرفة، ورأت ما لم تصدقه عينها، كانت

الغرفة أشبه بمحل لحّام، فقد كان هناك سرير في وسطها ومن الجهات الأربعة أحبال لربط الضحية، وفي الجدار أكثر من سكين ومقص وأدوات طبية، وهناك في زاوية الغرفة برادين لتجميد الأعضاء، وكان فوق السرير شاب لم يتجاوز العشرين من عمره، ويبدو أنّه متخدر جزئيًّا؛ لأنّه مفتوح العين ويصرخ خوفًا وألمًا من فقدانه لأعضائه.

كان الشاب من بين صراخه يقول:

— لا أحد لي أقسم لكم، من سيدفع ذاك المبلغ الذي طلبتموه؟ لا تفعلوا هذا بي لا أريد الموت أرجوكم لا تفعلوا ذلك.

يبدو أنّ أحد المتواجدين في تلك الغرفة قد انتبه لتواجدها، فانطلق مسرعًا باتجاهها وهو يمسك ذراعها بقوة ويسحبها إلى الغرفة الأخرى، وهي ما تزال في صدمتها ولم تفق، ورماها على الأرض بقوة وهو يصرخ:

— من سمح لكِ بالتحرك من هنا؟ وكيف تخرجين؟

لم تجبه، فالخوف تسلل إلى أعماق قلبها، من هؤلاء الناس؟ ولماذا يضعون الشاب هكذا ولماذا جسده مدمى؟ عاد الرجل إلى الصراخ من جديد ونظرة الشرّ والغضب تظهر من عينيه:

— ستكون نهايتك أسوأ من هذا الشاب، وقبل أن نأخذ أعضاءك سنهتك شرفك ونجعلك تفهمين أنّنا لا نمزح، سنتاجر بجسدك لأيام وشهور، وبعد أن تصبحين مستعملة وغير قابلة للتجديد سنأخذ كل جزء ممكن من جسدك.

خرج من الغرفة وهو يقفلها خلفه عدة مرات، وتركها خلفه تهتزّ وتتألم، وزاد على ألمها تلك النغزات التي تشعر بها في قلبها بين فترة وأخرى، ولا تعلم سببها إلى الآن، مع أنّها سألت أكثر من طبيب، ولكن

دون جدوى، فكلهم أجمع على نفس الرأي لا سبب عضوي في جسدك، إمّا تراكمات وضغط نفسي، وإمّا تفكير زائد وإرهاق داخلي.

جلست والمشهد يُعاد أمامها من جديد، عينا الفتى المسكين وهو خائف، ويداه اللتان تحاولان النهوض، وصوته الذي بدأ يخفت وهو يصرخ برجاء أن يتركوه، شعرت بالرجفة تخترق أوصالها، وهي أيضًا لا أحد لها! والواضح أنّهم تجّار أعضاء، وكلام الرجل معها منذ قليل يجعل الصورة واضحة أمامها، العصابة التي اختطفتها تعمل كل الأعمال غير المشروعة من قتل واتجار بالأعضاء ودعارة، ويبدو أنّ هناك أمورًا أخرى أكبر من ذلك. من الذي سمح لهم بأن تكون أعضاء البشر قطع تبديل تُباع وتُشترى وقتما يشاؤون؟

ماذا سيحدث لها الآن وقد أخبرتهم أن لا أحد لها وليس هناك أهل يسألون عنها؟ زادت نقمتها وغضبها على الذكور بأكملهم، وتمنت لو أنّها قتلت أحدهم علّ حقدها يخفّ، جلست تفكّر من جديد في المستقبل المجهول، وممّا ينتظرها في قادم الأيام! وهل ستكون فعلًا سلعة تُباع وتُشترى ومن ثمّ يصبح من جسدها قطع غيار لجسد آخر؟ أتعبها التفكير في هذا الأمر وأشفق عليها النوم، فأخذها في رحلة معه، بمحاولة منه أن ينسيها ما حدث لها اليوم وما قبل اليوم.

❁❁❁

من المؤسف أن تتحكم الشهوة في ذات الإنسان فلا يُفرّق
بين الحلال والحرام، الصحّ والغلط، يتّبع ما تهواه نفسه
ويسير في غيهب الضلال.

استيقظت على رنين المنبه بعد نوم متقطّع طوال الليل، لم تشعر بالراحة، نهضت وهي تشعر بثقل رأسها وكأنّها تحمله على أكتافها مجبرة، كان التفكير يمنعها من النوم، فقد عانت ما عانته من ألم وصداع كبير نتيجة إرهاق عقلها بربط الأحداث ومحاولة الوصول إلى الحقائق فيما يخصّ هذا الأمر.

فتحت النافذة ورأت السماء ملبّدة والغيوم مجمّعة، ويبدو اليوم كئيبًا من أوله، ولكنّها حاولت أن تبتسم وتطمئن نفسها أنّها ستجد اليوم ما تبحث عنه منذ فترة طويلة، وتعلم حقيقة ما يحدث، كانت تعيش حياة هنيئة مرتاحة، ما الذي جعل كل هذه الأمور تظهر في هذا الوقت؟ لا تريد أن تُبعد ابنتها عنها، ولكن بذات الوقت أرادت أن يبقى كلّ ما تملكه لها، وقبل المجازفة بإخبارها يجب أن تجد أهلها بالدم.

ارتدت ملابسها وهي تنظر مرة أخرى إلى العنوان الذي أعطاها إياه ذلك العجوز بعد أن بعثرها بكلامه الغريب، وانطلقت بسيارة استأجرتها منذ الأمس حين عادت فلا تريد أن تأخذ سيارة أجرة وبذات الوقت تشعر بحرية الانتقال والبقاء حيث تريد دون قلق، خاصة وأنّها ذاهبة إلى ذاك المخيم الذي لم تعرف إلى الآن كيف سيكون الأمر!

في طريقها إلى المخيم كانت تفكّر في الأمر، ووجدت أنّ كلام الرجل العجوز يطرح أسئلة كثيرة في رأسها، السؤال من ستكون والدة جولي؟ وكيف سيكون وقع الأمر عليها حين تعرف بوجود ابنتها؟ ما الذي جعلها تنجبهما ولم تحاول التخلّص من هذه الفضيحة؟ ولماذا تخلّت

عن واحدة منهما؟ ما الذي جعلها تعيش كلّ هذه المأساة بمفردها؟ الكثير من الأسئلة ولا أجوبة لها.

كان الطريق طويلًا والأفكار قصّرته، فلم تشعر ميرال إلّا وقد لاحت الخيم المتجاورة أمامها، وهنا وقع قلبها، كيف ستتخلى عن صغيرتها؟ التي وإن لم تحملها في رحمها فقد حملتها في قلبها وحضنها لسنوات. زاد اضطرابها وخوفها لدرجة أنّها فكرت بأن تعود أدراجها ولا تُكمل ما جاءت لأجله، ولكن رغم الخوف من خسران جولي أرادت ألا تبعدها عن أهلها، لربّما كان الأمر أكبر من احتوائه بشكل صحيح، وقد تختار جولي العيش معها على العيش مع أمها التي أنجبتها.

توقف بسيارتها أمام أكبر خيمة وجدتها، ونزلت وهي تجرّ قلبها قسرًا، لا تريد أن تكمل، ولكن لا بدّ من معرفة الحقيقة وظهور الأمر علنًا لجولي، ماذا ستكون ردة فعلها حين تعرف بأنّ والدتها أخفت عنّها هذا السّر كلّ هذه السنوات؟ وما الذي ستفعله ومن ستختار؟ عبثت بها المشاعر وتراقصت أمامها الأسئلة، فجأة سمعت أحدًا:

— مرحبًا، بماذا نساعدك؟

نظرت إليه وكان يرتدي ملابس بيضاء وشعار الهلال الأحمر منقوش على الزاوية اليسرى من القميص، وعلِمت أنّه أحد المتطوعين، فشعرت بالارتياح لوجود من يرعى هؤلاء الناس ويهتم بشؤونهم، يبدو أنّ الأمر أصعب ممّا كانت تفكر فيه، فالحزن يغطي أجزاء المكان بأكمله، مرسوم في أعين الصغار قبل الكبار، وأجابت الشاب:

— مرحبًا، أنا هنا أبحث عن امرأة اسمها ندى، سمعت أنّها نزحت إلى هذا المخيم.

— سأحاول أن أساعدك في إيجادها، ولكن ماذا تريدين منها؟

– هناك صلة قرابة بيننا وجئت لأتفقدها، وبذات الوقت أحاول معها أن تذهب وتعيش معي، هل يمكن أن تساعدني؟

– بالتأكيد، لحظات وسأنظر إلى السجل الموجود لدينا.

وما هي إلّا لحظات ووجد اسمها وأخبر ميرال بذلك، فشعرت بمشاعر مختلطة ما بين فرح بأنّها وجدتها أخيرًا وحزنًا ممّا ستؤول إليها الأمور بعد الآن، وذهبت وراءه بعد أن أخبرها أنّه سيأخذه حيث خيمتها، وعندما وصلت كانت هناك امرأتان واحتارت كيف ستعرف أيهما ندى، لا تريد أن تلفت انتباه المتطوع، ولذلك ابتسمت له وهي تشكره:

– شكرًا لك، هل يمكن أن أبقى معها لبعض الوقت؟

– كرامة ومسرة، نعم بكل تأكيد.

كانت العيون التي في الخيمة تراقبها بحذر واستغراب! فمن تريد وماذا ستتكلم؟ اقتربت ميرال منهما، وبدأت الكلام:

– أنا ميرال، وأريد أن أتكلم معك حول موضوع خاص.

ونظرت ميرال إلى الجارة بتردد وحيرة، لا تريد أن تفتح هذا الأمر مع أحد سوى ندى، ولاحظت الجارة ذلك، واستأذنت بهدوء، وانسحبت من الخيمة تاركة ندى بحيرتها، وميرال بخوفها من الآتي، جلستا والصمت مخيم عليهما، قبل أن تتنحنح ميرال بهدوء وهي تبدأ كلامها:

– أنا أصولي ليست بعربية، ولكن تعرفت على رجل شرقي عربي، وأحببنا بعض لدرجة أنني تخليت عن أهلي وعادتي وتقاليدي وديني ولغتي واتبعته، وتزوجنا بعد معاناة كبيرة ومشاكل كثيرة، ولكن القدر كان له حكم آخر علينا، فقد حرمنا من الإنجاب، ورغم

كل المحاولات على مدار السنوات لم يُقسم لنا أن نحصل على هذه المشاعر، إلى أن أتى ذلك اليوم الذي تفاجئت بزوجي يحمل بين يديه أمنيتنا وحلمنا الذي طال، وقدّم لي الأمومة رغم أنف الحياة، كان سعيدًا بها، وكأنها ابنته من صلبه، ولم يشعرني يومًا بأنها متبناة.

صمت أكبر من قبله بعد هذه الكلمة، فقد وقعت على ندى أشد ما يمكن وقعه، ولم تكن سهلة أيضًا على ميرال، فها هي على بعد أقدام من تقديم ابنتها الروحية إلى أمّها الحقيقية، ولكن كان يجب أن تفهم كل الأمور قبل أن تُخبر جوليا عن الحقيقة وتعطيها حرية الاختيار بينها وبين ندى، فبادرتها بالسؤال:

— أنا أعلم أنّكِ والدتها، وهناك توأم لجوليا، ولكن أريد أن أعرف لماذا؟ لماذا أنجبتها وأنتِ سترمينها بعد ذلك؟ وأين والدها؟ ولماذا تركتِ حارتك تلك؟ وما الذي جعل جميع من هناك يطلقون عليكِ المسبات على ابنتيكِ؟ أكاد أُجنُّ وأنا أفكر بكل هذه الأسئلة ولا أجد لها أجوبة، بحثت طويلًا حتى وجدتك، ومن حقي أن أعرف كل شيء قبل أن أخبر ابنتنا عن الأمر.

نظرت إليها ندى بعيون شاردة والدمع يتساقط منها دون مقاومة وهي تسمع كل هذا الكلام، يالسخرية القدر، بعد كل هذا الوقت هناك من يريد فتح جرح الماضي، هي لم تنسَ ريتال ولا للحظة، ولكن منذ أن علِمت من تبنّاها شعرت بالارتياح قليلًا، اطمأنت نفسها بأنها ستكون بحال أفضل عند أُناس أحوالهم جيدة، فستعيش إحدى ابنتيها بنسب وهوية واسم مشهور في العالم، ولكن يبدو أنّ للقدر رأيًا آخر.

وكأنّها تحاول عدم التصديق في كلام ميرال، فبادرتها بالسؤال:

- ما الذي يجعل كلامك صحيحًا؟ وما إثبات أن جولي ابنتي؟
- عندما أتى بها وائل لم يخبرني أنّ اسمها ريتال، فاخترنا لها اسم جولي، وحين بحثت عن الحقيقة ووجدت الملجأ أعطوني القلادة التي كانت في عنق صغيرتنا، وقد كُتِب عليها ريتال، فعلمت بوقتها اسمها الذي أطلقته عليها، واليوم أريد فهم الأمر برمته والحقيقة وراء تركك لها وأخذ ابنتك الثانية؟

وأخرجت ميرال القلادة وهي تعطيها لندى التي بدأت دموعها تملأ عينيها من جديد، وكأنّها بالأمس ألبستها إياها ولم تمضِ كل السنوات، اعتُصر قلبها حزن على فتاتها، فقد ابتعدت عنها قسرًا وفقرًا، وهل هناك أقذر من الفقر؟ ولم تتردد هذه المرة وسردت عليها كلّ ما سردته لجارتها من قبل ووصلت عند الامتحان الذي وضِعت فيه واضطرت لترك كل شيء والانتقال إلى هذا المخيم اللعين، وبدأت تروي لها أحداث ذلك اليوم وكأنه حدث الآن، فقد كانت كعادتها تعمل بالمنزل ورتيل بجوارها وقد كتبت لها الأحرف لتعليمها، وبدأ الطرق العنيف على باب المنزل، فارتعبت من قوته وخافت ابنتها واختبأت في حضنها، وفتحت الباب وهي ترتجف من الخوف، فإذا برجل طويل ذي تقاسيم مخيفة والشر ينطق من عينيه وازداد الخوف والرهبة، تتذكر هذا الوجه من مكان ما، ماذا يريد؟ فبدأ بكلامه وهو ينظر إلى صغيرتها:

- وأخيرًا وصلت إليكِ أيتها الفاسقة الزانية التي جعلت من اسم عائلتنا ترابًا يُداس عليه، سأنهيكِ اليوم ولا تظنّين أنكِ ستنجين من فعلتك.

وهجم عليها وهو يحاول الفتك بها، وتقدم الجيران وأبعدوه عنها بصعوبة، وهو ما يزال يحاول الوصول إليها والرعب ملأ قلبها، وبدأت

تتذكره أكثر، أليس هذا ذاك المراهق الذي ربّته على يدها منذ سنوات مضت، كيف تنسى هذا الوجه الذي كانت تهتم به طوال الوقت وتحبّه وكأنّه ابن قلبها وليس أخاها فقط، اللحية وعلامات البلوغ غيّرت ملامحه قليلًا، ولكنّها لم تنسَ تفاصيل هذا الوجه، ما أسرع الأيام! من كان أمس فتى صغيرًا يخاف على زعلها، أصبح اليوم شابًّا كبيرًا وهو الذي يخيفها، ولكن كيف وصل إليها؟ وما الذي حدث بكل هذا الوقت؟ ما الذي جعل الألم يعاود العزف على أوتار الجرح القديم؟ بادرها بالسؤال والكره يظهر في تلكما العينين:

- ما الذي جعلك تفعلين هذا بنا؟ لماذا قتلتنا ولأجل من؟ هل كان هناك شيء يستحق أن تطعنينا هكذا وبهذه الطريقة الرخيصة؟
- أنت لا تعلم شيئًا، تتكلم فقط دون معرفة الحقيقة ودون أن تفهم من وراء كل هذا.
- ما الذي سيبرر فعلتك هذه؟ وكيف تعيشين بهذا الذنب؟

ونظر إلى الفتاة الصغيرة، وعاد للسؤال من جديد:

- وهل هذه خطيئة فعلتك تمشي على الأرض؟ إن لم تفكري بنا كان يجب أن تفكّري بهذه الصغيرة التي حرمتها أبسط حقوقها، حرمتها من نسب واسم وبدل أن تصبح ابنة فلان، أصبح اسمها اللقيطة.

كان الناس من حولهما مصدومين من كل هذا الأمر، فكيف طوال هذه السنوات كانت تكذب عليهم وتقول إنّ والدها مسافر؟ ووجهت ندى كلامها لمن يمسك أخاها:

- هل ممكن أن يخرج الجميع وتدعوني معه على انفراد؟

وانسحب الجميع من الغرفة والبعض ينظر إليها بقرف وكره، والبعض الآخر بشفقة وعطف، وظلّت وأخاها الذي وقف ينتظر كلامها والنيران ما زالت تتأجج في داخله ويريد أن يهجم عليها من جديد، ولكنّه توقف ليسمع ما لديها قبل أن يقتلها، وبدأت كلامها وهي تنظر في الفراغ وفتاتها في أحضانها ترتجف خوفًا ممّا رأته:

— عندما ذهبت أمي إلى الحفلة في إحدى المرات وأصبحت بمفردي، غافلني النعاس في مكاني ونمت ولم أشعر إلا بجسد فوق جسدي يتكلم بصوت مألوف ومعروف، ظننته بداية كابوس وسينتهي، ولكن كان الأمر أكبر من الوصف والكلام، وازداد الأمر سوءًا عندما علِمت من هذا هو رغم عدم رؤيتي له، انتزع منّي الحياة قبل أن ينتزع ما يُسمّى بالشرف، وذهب تاركًا وراءه جثة مهمّشة روحيًّا، سارقًا معه ما حافظت عليه لسنوات (الشرف).

صمتت ندى لحظات وهي تبتسم بسخرية قبل أن تعاود الكلام من جديد:

— كيف ستُفهم الناس هذه الحقيقة؟ وكيف ستبرر لهم أنه لا يد لك فيما حدث، من سيصدق أنّ هذه المصيبة كانت عبارة عن جريمة واغتصاب روح قبل جسد؟ ومرضت كما رأيت أنت لأيام وأيام ولم يكتفِ عديم الشرف بما سبّبه من دمار وقهر وسرقة، فعاود الكرة مرة ثانية، وأتى إليّ في يوم آخر وأكمل ما بدأ فيه من سلب ونهب لجسدي، وكأنّ المرة الأولى لم تكفه، قاومته هذه المرة أكثر من المرة الأولى، ولكن كان جسدي أضعف من أن يبعده عنّي، فهتك شرفي للمرة الثانية دون أن يرّف له جفن أو يرأف للحال الذي أوصلني له، ولكن هذه المرة جعل لعنته في داخلي، وجعلني بحال أسوأ من

قبل، وبعد فترة شعرت بالتعب واكتشفت حملي، وهنا دخلت في دوامة، هل أظل وأتكلم عمّا حدث ولن يصدقني أحد خاصة وإن عِلموا من الجاني؟ أم أحمل لعنته التي في داخلي وأذهب بها؟ كان الأمر أكبر من التفكير والتّحمل، واخترت كما ترى الذهاب.

— وهل يجب أن أصدق هكذا كذبة؟

أجابها وهو يكاد ينفجر من الغضب والحقد..

— هل عرفت الآن لماذا لم أتكلم آنذاك؟

— من هو؟

— لن أستطيع إخبارك أمام الفتاة.

بسخرية الألم يسألها:

— هل تخافين على ابنة حرام هذه؟ إنها ابنة زنا، لا يجب أن تقلقي عليها كثيرًا، ستموتين بعد قليل معها.

— ستعدني أنّك لن تقترب منّا بعد أن أخبرك باسمه، وإلّا لن تعرف حرفًا واحدًا منّي.

هجم عليها وهو يركلها بقدمه ويشتمها بأسوأ الألفاظ، وقد نالت رتيل نصيبًا من الضرب أيضًا، ومع ذلك قاومته ندى ولم تخبره من هو، فابتعد عنها وهو يلهث، فقد تعِب من ضربها، ولم تتعب هي من إصرارها على التكتم، وعلِم أنّها لن تنطق بحرف إلّا إذا أعطاها وعدًا، فقال لها:

— لكِ ما طلبتِ، أعدكِ بعدم الاقتراب منكما إذا أخبرتني.

— لا لن أخبرك الآن، سأجمع أغراضي وأغراض ابنتي وحين أصعد في سيارة أجرة ستعلم من هو.

كان ينظر إليها والغضب ينطق في عينيه، ولكنّه يريد أن يعلم من الفاعل، الأمر أكبر من مجرد غسل عار أحدثته، هناك فتاة صغيرة ويجب معرفة من والدها، فوافق مُكرهًا على ما شرطته عليه، وبعد أن حزمت أمتعتها وباقي أغراض رتيل، خرجت إلى صاحب المنزل لتعطيه المفتاح، وأخبرته وهي تشكره أنّها ستذهب للمخيمات لتعيش فيها مع ابنتها لعلها تجد بعضًا من السلام، فأخذ المفتاح منها مشمئزًا وهو يقول لها:

— لو علِمت حقيقة أمرك ما جعلتك تنثري وساختك في منزلي، اذهبي إلى الجحيم لا أريد أن أعرف إلى أين تذهبين.

لم تكن هي الأخرى تريد أن يعرف أحد مكانها، ولكن كان لا بد أن تخبر هذا الرجل لعلّ الأيام تجمعها وريتال، وقبل أن تنطلق بها سيارة الأجرة نظرت إلى عينيّ أخيها وهي تقول له بثبات الصادق:

— لن تصدقني ولكن الذي فعل هذا الأمر هو الذي يحمل دمائنا، إنّه عمّنا أخُ أبينا، لا جعله الله مباركًا وحلّت عليه لعنات السماء والأرض وابتلعته نيران الآخرة، ولا عفا الله عنه وأدخله أسفل السافلين.

نزل الكلام عليه كالصاعقة، فخرّ على ركبتيه وهو يرى السيارة تذهب بعيدًا، وألجمته الصدمة ومنعته عن الكلام والحركة لدقائق قبل أن يفيق ويركض وراء السيارة التي لم يبقَ منها إلّا الدخان الذي خلفته وراءها، كان يركض ويركض حتى شعر أنّ رئتيه ستنفجرا، ومنذ ذلك اليوم وأنا بعيدة عن الجميع هنا في هذا المكان البائس.

وقفت ميرال وهي تتراجع بخطواتها، كان الأمر أكبر من استيعابها، كيف في دين الإسلام من يفعل هذا؟ ليس مجرد تحرش من شخص

غريب، المصيبة أعظم، من يجب عليه أن يحمي عرضه هو الذي فرّط فيه، ومن هو بمثابة الأب سرق من ابنة أخيه أعزّ ما تملك، ترتبط كلمة الشرف عند الفتاة بهذا الأمر، وها هو سلبها شرفها وحملّه خطيئته في توأم من البنات إحداهما وإن كانت تعيش حياة كريمة ما تزال لقيطة ولا تعرف كيف تخبرها بفظاعة الأمر، والأخرى عانت ما عانته وما زالت تعاني إلى اليوم، من أعطاه الحق أن يفعل فعلته تلك؟ وكيف استطاع أن ينظر إلى ابنة أخيه بنظرة الشهوة؟

ما تزال مصدومة وتبكي وهي ترى معاناة فتاة عذراء، نعم عذراء الروح والجسد، حتى وإن كان لديها ابنتان، فهذا لم يكن بموافقتها، كانت لديها قناعة الفتاة التي تتزوج غير حبيبها تظلّ عذراء حتى وإن أنجبت قبيلة، فكيف بمن مثل حال ندى؟ هتك روحها وجسدها عمّها، لن تستطيع إخبار جولي بأيّ كلمة، لن تكسر روحها بهذا الأمر، ولكن ماذا ستفعل مع شقيق زوجها؟ وماذا ستفعل لأجل مداوة جرح ندى الذي أعادت فتحه من جديد؟ اقتربت ميرال من ندى واحتضنتها وهي تفكر ماذا عليها أن تفعل الآن.

❀❀❀

وفي اللحظة التي تقرر فيها التخلي عن البحث، تجد أجوبة
كل ما كان صعب أن تفهمه أساسًا.

جلس في مكان بعيد عن الأعين وهو يحاول أن يرتب أفكاره بعد أحداث هذا اليوم الطويل، والتي لم تنتهِ بعد، كانت أنفاسه متسارعة وقلبه ينبض بشدة بعد محاولته اللحاق بتلك السيارة التي أخذت من يظنّ أنّها حبيبته.

ما هذا الذي يحدث بعد كل هذا الوقت وجدها والآن اخُتطفت من أمام عينيه ودون أن يستطيع فعل شيء، كان في حيرته غارقًا حين سمع صوت أنثى توجّه كلامها إليه:

— أنا أعلم من الذي كان وراء هذا الاختطاف، وأظنّ من لهفتك التي رأيتها منذ قليل أنّ الفتاة تهمّك.

نظر إليها فارس باستغراب وقلق وهو يسألها:

— من الذي فعل هذا الأمر؟ ولماذا تخبريني أنا؟

— أمّا جواب سؤالك الأول هناك امرأة معنا في المخيم تعمل مع إحدى العصابات وبسبب إدمانها على المخدرات يبدو أنهم قطعوا علاقتهم بها، وقد رأيتها منذ فترة تقف مع جولي وتهددها إن لم تعطها المال ستحدث لها المشاكل وتسبب لها المصاعب، ويبدو أنّها نفذّت تهديدها والدليل ما حدث اليوم، وأما لماذا أخبرك أنت بالذات؛ بسبب نظراتك الدائمة لها، أشعر بذلك الحب الذي في داخلك، وأعلم أن جولي فتاة صالحة وتحاول أن تساعدنا في كل الأمور، لذلك أريد أن تساعدها.

عاود النظر في الفراغ، ما يزال الجميع يناديها جولي، وهو الوحيد الذي يعرفها باسم رتيل، لقد كان يحاول ألا يشعر أحدًا بما في داخله من مشاعر، ها قد كُشِف أمره، سمع كثيرًا المثل الشعبي الذي يقول: "هناك ثلاثة أمور لا تستطيع تخبئتها طويلًا: الحب والغيرة والحمل". وها هو اليوم يتأكد من هذا الكلام، عاود سؤالها من جديد:

— وما الذي تهدده بها؟

بدأت تروي له ما كانت تراه دون أن يراها أحد، وأخبرته جميع ما حدث منذ مجيء جولي للفتاة الصغيرة وأخذها لتحميها ورؤية تلك المرأة لجوليا أثناء أخذ الفتاة وتهديد المرأة لجولي إن لم تعطها المال، وختمت كلامها:

— هذه المرأة خطيرة ولا أحد يحتّك بها أو يسبب لها المشاكل لكثرة الأمور التي تستطيع فعلها ولأعمالها الإجرامية.

تشكَّرها فارس بعد ما أرته مكان المرأة وشكلها وذهبت وهي تترجاه أن يعيد جولي، وفي كل مرة تذكر تنادي اسم محبوبته بجوليا يشعر بالقهر والاستغفال، كيف خدعته كلّ هذه السنوات باسم مزيف ومعلومات غير صحيحة؟ ولماذا فعلت ذلك؟ وما غايتها من كسره وتركه في هذه الحالة؟ بماذا يفكر هو الآن يجب عليه أن يضع خطة لإنقاذها، وبعد ذلك يأتي الحساب ويفهم كل شيء.

وعاد مرة أخرى للتفكير من جديد، كيف سيجعل تلك المرأة تتكلم عن الخاطفين؟ رغم أنّه يعلم بكذبها عليه وإخفاء اسمها الحقيقي وباقي معلوماتها واختفائها المفاجئ، ولكنّ قلبه لا يزال ينبض لها، يريد أن يجدها ويعلم لماذا فعلت كل هذه الأمور. وبينما هو يفكر اقتربت منه ندى وهي ترمي السلام وتجلس بجواره:

— السلام عليك، أراك وحيدًا دون صديقك!

— وعليكِ السلام.

صَمَتَ قليلًا وهو مستغرب من تواجدها ومن كلامها وكأنّها تعرفه منذ فترة طويلة، نظر إليها نظرة متفحصة، فرأى بعض الدموع ما تزال عالقة على أهدابها، والسواد تحت عينيها، ويبدو أن الزمان قد تغذّى على جسدها حتى بانت عظامها، ورغم ذلك لا تزال تحتفظ بسحرها، رغم القلق الظاهر على محياها ورغم الفقر الذي بدا واضحًا على ملابسها، كانت لا تزال جميلة.

— لقد رأيتك عدّة مرات تتجول بين الخيم وتساعد المرضى، ورأيت أيضًا كيف ركضت وراء تلك السيارة التي خطفت ابنتي.

التفت إليها مسرعًا وهو يعيد كلمتها مستغربًا:

— ابنتك؟

— هذا ما علمته منذ قليل، هذه ابنتي التوأم أسميتها ريتال، ومن تبناها اسماها جولي.

يا إله السماوات والأرض ما هذا اليوم الذي يعيشه؟ في البداية ظنّه بأنّ محبوبته متواجدة بقربه، وفيما بعد تظهر سلسلة من الأحداث التي تجعل العقل يتوه، وتبادر إلى ذهنه مباشرة، وكأنّه يريد أن يشفع لمحبوبته عند قلبه فسألها:

— وهل ابنتك الثانية هي رتيل؟

— نعم، ولكن من أين تعرف كلتا ابنتيّ؟

— لا أعرف سوى رتيل، أمّا جولي فقد شبّهتها بها واعتقدت أنّها حبي...

وبتر كلمته دون أن يستطيع إكمال الكلمة، مهما يكن فالتي أمامه أمّها، وربما لم تخبرها رتيل عنه، لا يجب أن يضعها بهذا الموقف، إن كان ولا بدّ حين يجدها هي تخبرها بنفسها عن حبّهما، وعاد للسؤال وقد شعر أنّ الأمور قد تحسنت، فها هي محبوبة القلب لم تكذب واسمها بالفعل رتيل، ولكن لماذا أخفت عنه أنّ لديها أخت توأم؟

— أريد أن أفهم ما الذي يحدث؟ وكيف ابنتك الثانية أصبحت متبناة؟ ولماذا؟

— قبل أن أجيبك، أريد أن أسألك هل اسمك فارس؟

— نعم، أنا فارس، كيف تعرفين اسمي؟

— ليس اسمك فقط أعلم الكثير حولك، لقد أخبرتني رتيل عنّك.

— هل أخبرتك عنّي؟

قالها والفرحة تغمر قلبه، إذَن معشوقة الروح لم تكذب بمشاعرها تجاهها، ولكن لماذا اختفت؟ وما حقيقة أختها التوأم؟ ولماذا كانت أختها متبناة؟

— أعلم أنّه لديك الكثير من الأسئلة، سأخبرك بجميع الأجوبة، ولكن يجب أن تعدني بأمر قبل ذلك.

— ماذا؟

— ما ستعلمه اليوم لن يعرف به أحد سواك، ستكتم سرّ ابنتيّ حتى عنهما، يجب أن أخبرهما بنفسي عن والدهما الحقيقي.

— أعدّك بذلك.

— إذَن اسمع وامسك نفسك عن الغضب والألم.

بدأت تروي له كلّ الحكاية منذ أن اغتصبها الشيطان إلى لقائها منذ قليل مع ميرال وإخبارها أنّ جولي رفضت مرافقتها إلى بلدها، ويبدو أن ميرال لا تعرف أنّ جولي تعمل هنا كمتطوعة، ولا تعلم أنّها أُختطِفت منذ قليل قبل مجيئها، وختمت كلامها وهي تمسح دموعها التي تأبى أن تبقى في مقلتيها:

- نعم يا بني هذه حقيقة الأمر كلّه، ولذلك كانت رتيل تسعى للانتقام وكسر قلوب كل من كُتِب في هويته ذكر، دون معرفتها من الجاني الحقيقي، ومن الذي تسبّب في جعلها لقيطة دون حسب ونسب.

رمش عدة مرات، يريد أن يكذّب أذنيه، لا يريد أن يصدق أنّ في هذه الأرض من يرتكب هكذا جريمة بحق النفس البشرية، الاغتصاب بحد ذاته جريمة شنعاء، فكيف باغتصاب المحارم؟ لا يريد أن يفكر حتى بهذا الأمر، هزّ رأسه عدة مرات وهو يقول:

- لا لا يمكن هذا الأمر، لا يُعقل أنّ هناك من يجرؤ على فعل هكذا عار، لا يمكن أن يكون هناك وحشية بهذه الصورة الإنسيّة، الوحوش بحد ذاتها لا تفعل ذلك.

ابتسمت ندى بسخرية، وهي تقول:

- الوحوش تقتل لتعيش والإنسان يعيش ليقتل، هكذا هو الأمر وهذه هي الحقيقة، من كان عليه أن يحميني هتك عرضي وسلب منّي ما يسمّى الشرف، وأصبحت بحكمة إلهية لا أعلمها أمًّا لفتاتين يطلق عليهما المجتمع لقيطتين.

– ولكن ما ذنبك؟ وما ذنبهما أن يعيشا هكذا حياة؟ ما الحكمة من أن تعيشين معذّبة هكذا؟ آه يا رتيل اليوم عرفت سرّ حزنك الدائم الذي جاهدتِ أن تخفيه مرارًا وتكرارًا عنّي، وهل يمكن أن يخفى الجرح وإن شُفي؟ تظلّ هناك ندبة دائمة تذكرك بهذا الجرح كلما نظرت إليه.

– نعم، ولكنّ رتيل لم تشفَ أبدًا من هذا الجرح، ما تزال عالقة به إلى اليوم، ولا أظنّ هناك شفاء لما هي فيه الآن.

– وأين هي الآن؟ وكيف أجدها؟

– أيّ حب هذا الذي تمتلكه لها يا فارس؟ بعد كلّ تلك الحقائق لا تزال متمسّكًا بها؟ ظننتك بعد معرفتك حقيقة أمرها ستتركها وتمضي.

عاد فارس للشرود من جديد، ماذا سيحدث الآن بعد أن علِم حقيقة محبوبة قلبه؟ هل سيستطيع الزواج منها؟ وهل ستتقبل عائلته حقيقة أمرها؟ والأهم من ذلك كلّه ماذا عن المشاعر التي في داخله وداخلها؟ هل كانت تسعى فقط للانتقام؟ أم أنّها بالفعل أحبّته؟ الكثير من الحيرة تجعله متخبّطًا تائهًا لا يستطيع أن يجد جوابًا واحدًا يجبر ما حدث في داخله من شروخ وكسور.

– قبل كلّ شيء يجب أن نعيد جولي إليكِ، وبعد ذلك سأجلس وأتحدث معك عن رتيل، ولكن أريد أن أفهم أين هي الآن!

– لقد ذهبت ساعية إلى الانتقام من جديد، منذ أن علِمت نصف الحقيقة ولديها هدف كسر قلب كل من كُتب على هويته ذكر، ولكن

الغريب أنّها منذ أن تعرفت عليك تغيّر حالها ولم تعد بذلك الحقد والكره الذي عهدتها عليه من قبل، شيء ما تغير حين التقيتك.

— أراكِ هادئة مستسلمة لأمر جولي، كيف يمكنك أن تكونين بهذا الحال وابنتك تمّ اختطافها منذ قليل؟

كان يحاول أن يبعد تفكيره عن رتيل، لا يريد الآن أن يعطي أيّ قرار أو يتكلم حول أمرها، يجب عليه الابتعاد والتفكير من جديد في هذا الوضع الذي حدث.

— هادئة فقط من الخارج ولكن القلب مشتعل، فأنا محاطة بالنيران من كل جانب، هناك رتيل التي ذهبت منذ فترة ولم أعد أعلم عنها شيئًا، وهناك ريتال التي حُرِمت منها لسنوات وسنوات وفي اليوم الذي تأكدت أنها ابنتي اُختطفت من أمام عينيّ، والجانب الأكبر هو ما عشته في الماضي وما زلت أعيشه إلى اليوم من معاناة وقهر وإذلال، يا بني هذا الهدوء الذي تراه أمامك ما هو إلّا عاصفة تهبّ كل حين وتعصف في داخلي وتقتلع جذور قلبي يومًا بعد يوم، لا يغريك كل صامت مبتسم، فوراء ذلك الصمت روايات وقصص تدمع لها القلوب.

نظر إليها فارس وقد قرر أن يساعدها ويبدأ البحث عن جولي، خاصة وأنّه علِم رأس الخيط الذي يمكن البدء منه. وضع يده فوق يدها وهو يقول لها بثبات:

— سأحاول بكلّ ما أوتيت من جهد أن أجد لكِ ابنتك وأعيدها وأجعل بعضًا من حقوقكم يعود ولو كلّفني ذلك حياتي.

❀❀❀

أنت من يضع التاريخ، فلا تقبل أن تعيش بعادات وتقاليدٍ
أكل عليها الدهر، واعلم أنّ كسر بعض الأعراف أشرف من
اتباعها، كن أنت التاريخ بحدّ ذاتك ولا تعش في أوهام
الماضي وصرامته.

كانت تمشي في متجرها وهي تجمع ما تحتاجه للذهاب مرة أخرى إلى المخيم وتفعل ما يأمره به واجبها الإنساني، وما لبثت أن سمعت رنين هاتفها فأجابت وهي تعلم مَن المتصل:

— مرحبًا عزيزتي، هل انتهيتِ ممّا تريدين أن تأخذيه؟

— أهلًا بك، أشعر وكأنّه ليس بالكثير ويحتاجون أمورًا أخرى.

— لا بأس، فقد أخذت معي من المواد الغذائية الكثير، ولن تكون هذه المرة هي الأخيرة التي نذهب بها، سيكون لنا مرات قادمة كثيرة وسنأخذ أيضًا.

— إذَن تعالى، أنا بانتظارك.

أقفلت منه وهي تعلم أنّه بعد انتهاء مشوارهما سيفتح معها الموضوع من جديد وسيسألها عن ردها الأخير، وهي التي ما تزال مترددة من قرارها، خائفة منه رغم صحته في نظرها، وبالفعل ما هي إلا لحظات وكان بسيارته أمام المتجر أخبر بعض العمال ليحملا ما جمعته من أغراض إلى سيارته، وقد ارتدت ملابس بسيطة، ورغم ذلك كان جمالها البدوي ما يزال يشع، بعد أن ألقت عليه السلام وأخبرته المكان انطلقت السيّارة بهما بصمت كامل، وقد شعرت بالراحة لأجل ذلك، لا تريد أن يتكلم معها الآن بأي شيء، ربما يعطيها ذلك القليل من

الوقت لتستجمع أفكارها مرة أخرى، ووصلا إلى المكان المنشود بعد فترة ليست بقصيرة.

كان الجو يميل إلى البرودة أكثر من قبل، أو أنّها شعرت بذلك بسبب الصحراء التي يعيش بها أولئك الناس، لا تعلم لماذا تشعر بهذا الكمّ من الحسرة حين تأتي إلى هنا أو تسمع الأخبار، وتتمنى لو أنّ لها عصًا سحرية تعيد ما سرق الزمان من أولئك الناس، تعيد لهم منازلهم وأحلامهم ومدارسهم وراحة البال التي وإن كانت تغيب في الكثير من الأيام تحضر، لقد سرقت الحرب منهم حتى رغيف الخبز وأسقتهم كأس العلقم بالغصب ودون أيّ رحمة.

بدأت تعطي الأغراض ومديرها يوزّع المواد الغذائية عليهم، ونظرت إلى الخيمة التي مات فيها ذلك الطفل بردًا ومرضًا، ونزلت منها دمعات حاولت أن تكتمهم، لكن دون فائدة، تذكرت منظر الأم وكيف خطف الموت صغيرها ودمعات الرجل على وحيده، وما أصعب دمعة الرجال وهم الذين لا يبكون إلّا بعد وجع لا يُحتمل! وذهبت باتجاههم وهي تحمل ما كانت تحضره لهم منذ أن خرجت، وبعد أن ألقت السلام ترددت قليلًا وتنحنحت وهي تحاول أن ترتب كلامها كي لا تعيد نزف قلوبهم:

— أنا أعلم أن مصابكم كبير وجرحكم عميق، ولكن كي يبقى هذا الطفل حيًّا في قلوبنا صنعت له شاهدة لأجل قبره، رغم عدم معرفتي باسمه، كتبت بدلًا من ذلك عصفور الجنة، أتمنى ألّا أكون فعلت شيئًا سيئًا.

نظرت إليها المرأة وهي تلبس الأسود والدمع لا يزال يترقرق على وجنتيها وأجهشت ببكاء طويل قبل أن تتوقف من جديد وتقول:

- كنت قاسية معكِ المرة الماضية، ولكن لا تعلمين ما عانيته لأجل أن أحظى بلحظات من الأمومة، والحمد لله عشتها رغم أنّها لم تكتمل، أشكرك على عطفك وتفكيرك بنا رغم عدم معرفتك ولا صلة قرابة تجمعنا، لقد جعلتِ بفعلتك تلك ذكرى طيبة في قلوبنا.

اقتربت منها جمان ومسكت بيدها:

- يا خالتي ليس هناك أحد دون همّ، ولكن هي الحياة هكذا لا تعطينا كلّ ما نريده، فإن رضينا بما قسمه لنا الله أرضى قلوبنا وجبر خواطرنا، واليوم جئت ببعض الهدايا أتمنى أن تقبليها.
- شكرًا لكِ، ما زالت الدنيا بخير بأشخاص طيبين مثلك.

أعطتها ما كانت تحمله، وذهبت بعيدة لتكمل توزيع باقي الأغراض، ولكي تتركها تعيش حزنها على فقيدها الأغلى في هذه الدنيا، ولاحظت أنّ مديرها يصافح شاب بحرارة ومن ثمّ يعانقه بحرارة قبل أن يرفع يده تجاهها، وكأنه يناديها، وصلت إليه فبدأ بتعريفها إلى الشاب الذي يبدو من عمره:

- هذه جمان، كانت تعمل في ذات المصنع الذي أقوم بإدارته، وهي اليوم أكبر مصممة أزياء.

ومن ثمّ قدم الشاب إليها وهو يقول:

- وهذا الدكتور فارس صديق العمر ورفيق الدرب.

بعد أن تعارفا وشرح فارس عن أمر جولي ورتيل وما حدث لهما وطريقة البحث الذي يلجأ إليها، سأله كرم:

- هل هي رتيل ذاتها التي اختفت في ظروف غامضة؟

– نعم، وقد اكتشفت أنّه لديها توأم أيضًا، واليوم أبحث عن كلتاهما وخالد يساعدني بذلك.

– يجب علينا أن نجتمع وأرى ما يمكن أن أساعد أنا أيضًا، لقد اشتقت إلى الأيام الخوالي وسهراتنا، لا بدّ من لقاء جديد نتفق عليه على الهاتف.

– نعم بالتأكيد سنرى.

تودعا بعد ذلك ومشى كرم مع جمان وهو يخبرها عن صداقتهما وكيف كان كلّ من في الجامعة يحسدهم على هذه الصداقة التي تجمع بينه وبين خالد وفارس، وأخبرها رؤوس أقلام عن رتيل وعشق فارس لها، وهي بدورها أخبرته أنها انتهت من كلّ شيء وكتبت ما يحتاجون لتأتي به في المرة القادمة، غادرت برفق كفراشة تنقلت بين أزهار البستان ونشرت الفرحة في قلوبهم.

داخل السيارة في طريق العودة لم يكن الصمت هذه المرة حليفهم، فقد شقّ صوت أم كلثوم وهو يتناغم وكأنها تملك آلة موسيقية في حنجرتها تمارس بها العزف على سمفونية مدروسة جيدًا تجعل من يسمعها مرة يعود لسماعها من جديد دون ملل.

خفض الصوت وهو ينقل بصره بينها وبين الطريق قبل أن يقطع حاجز الصمت بينهما ويبادر بالسؤال:

– هل أنتِ بخير؟

– ربما.

صمتت جمان لبرهة بعد ما ردت على كرم قبل أن تعاود الكلام من جديد:

— هذه المرة الثانية التي آتي إلى هنا وما زلت أشعر بشيء من القهر على أبناء هذا الوطن، هم يعيشون مكرهين ولو أنّ لهم حق الاختيار لفضّلوا الموت على هذا الذلّ الذي هم فيه، لا شيء يبعث على الأمل، عندما أنظر إلى أعينهم أرى بها موت الأحلام وكسر الخاطر والكثير من التعب والوجع، ليس هناك ما يعيشون من أجله، سُلِبَت منهم بيوتهم ومدارسهم وحقّهم في العيش بكرامة وشيء من الرفاهية.

ترقرقت دمعة مسكينة على خدها وهي تصف أحوالهم وما فعلته الحرب بهم وكيف يصارعون على البقاء، ممّا جعل كرم يقف بسيارته ويلتفت إليها ممسكًا يدها يحاول أن يواسيها ببعض الكلمات، ولكن يبدو أنّها كانت بحاجة لمثل هذا العطف لتدخل بدوامة بكاء استمرت لدقائق وقد احتضن رأسها إلى صدره وهو يمسح عليه بهدوء ويربت على ظهرها، وما لبثت أن قالت له:

— لا يمكن أن نتزوج، أنا لست مؤهلة لعيش هذه المرحلة بعد، لا أريد أن أجعلك تنتظر أكثر من ذلك، يمكنك أن تجد من هي أهل لهكذا خطوة.

عصفت به المشاعر وهو يسمع رفضها، كان يتوقع أن تقبل به، خاصة وأنّه أحسّ بمشاعرها تجاهه في اللقاءات الماضية، ولكن ها قد أتى جوابها كسكين قطع عليه حبل الأمل، منذ زمن وهو يريدها، ولكنّه برفضها هذا قطعت عليه الطريق، شعر بها وهي تنسحب من حضنه وتعتدل بجلستها ترتب شعرها ثم تمسح دموعها، قائلة:

- لا أنكر أنّني أكنّ لك بعضًا من المشاعر وهناك عاطفة قوية تجاهك، ولكن لا يمكن أن أخوضَ هذه التجربة، بإمكانك عدم مساعدتي، سألجأ للقضاء لمعالجة قضيتي مع أهلي، وسيكون هذا أفضل حل.

رغم أنّ رفضها جرح كبرياءه وأحزنه، لكنّه أجابها بثبات وهو يعاود الانطلاق بسيارته:

- لم أساعدك لأجل أن تتزوجي بي، ولن أتوقف عن مساعدتك الآن بعد رفضك، سأبقى إلى جانبك وأحترم رغبتك.

ساد الصمت من جديد، فهو يفكر كيف ستسير الأمور بعد اليوم وهي تفكر بأنّها جرحته برفضها، ولكن بذات الوقت لا تريد الزواج بالوقت الحالي، لا تشعر بأنّها تستطيع القيام بهكذا خطوة.

❁❁❁

الفصل التاسع
رجفة الروح

لا أحد يدرك معركتك للبقاء على هذا الثبات الذي أنت تظهر به، ولا كيف واجهت تلك الصعوبات التي كادت تكسرك، ولا كم مسحت من دموع في غرفتك وبلحظة حزن ابتسمت فقط. لا أحد يعلم كيف تَزعزع سلامك الداخلي ومات شيءٌ منك في كل مرَّة كنت تقاوم لتستمر؛ لذلك حاول أن ترأف بنفسك قليلًا، وتمنح بعض الهدوء والطمأنينة لقلبك.

خرج من ذلك المخيم البارد بطقسه وبأهله، كان يقود سيارته وهو يفكر بكل ما حدث من أمور وبكلام تلك المرأة الغريبة التي أخبرته بمن أمر بخطف جولي، كان الأمر أشبه بكارثة حقيقية، في ذات اليوم الذي يقرر أن يواجه من أحبّها لسنوات وهجرته، يكتشف كلّ تلك الأمور دفعة واحدة، خرج من تفكيره على صوت هاتفه وهو يرن باستمرار دائم، نظر إلى المتصل وهو يجيب:

— أهلًا يا خالد، كيف الحال؟

— أين أنت يا رجل؟ وما الذي سمعته عن أمر الخطف؟

— أما عن الأمر الثاني فصحيح ما سمعت، وأما عن سؤالك الأول فأنا ذاهب لأجل البحث عن جولي وإعادتها لأمها، بالمناسبة هناك أخت لرتيل وهي من اختُطفت اليوم، ولقد تعرف على أمهما من خلال

ما حدث، هناك الكثير من الأحداث سأخبرك بها لاحقًا، الآن أنا بحالة فوضى وأريد أن أجد الفتاة قبل أن يحدث لها شيء.

— كلّ هذه الأمور في يوم واحد؟ ياللعجب وكيف لم تخبرك رتيل بهذه الأمور؟

— لا وقت للشرح الآن يجب أن أُغلق.

— انتظر، دعني آتي معك لعلّي أساعدك بأمر ما.

— ليس الآن يا خالد، فيما بعد حين أضع الخطة المناسبة سأتصل وأخبرك بحاجتي إليك، ما زلت لا أعلم أين هي، ولا كيف أجدها.

— حسنًا، ولكن عليك إخباري حين تذهب.

— إلى اللقاء.

أغلق الخطّ وهو ينظر إلى السماء وقد بدأت تشدّ قمرها إلى وسطها وترتدي ملابسها السوداء معلنة نهاية اليوم، لن يستطيع أن يفعل اليوم شيئًا، سينتظر الغد ليذهب لتلك الفتاة التي هددت وابتزت ريتال ويفهم منها كل شيء.

لم يعلم كيف مضى الليل، ولكنّه شعر بطوله، وكأنّه لن ينتهي أبدًا، ولم يغفل له جفن حتى ارتدى الصباح حلّته البيضاء وتزيّن بأشعة الشمس الذهبية، نهض من فوره وارتدى ما كان أمامه من ملابس، ومن استعجاله لم يغسل حتى وجهه، يريد أن يسابق الزمن ولا يتأخر عن وعده، يجب أن يصل إلى الخاطفين، حتى وإن كلّفه ذلك حياته.

وصل إلى المخيم، ولم يكن هناك أحد مستيقظ بعد، فالبرد يمنعهم من الخروج في ظهر اليوم، فكيف بهذا الوقت شديد البرودة والصقيع؟ كان قد علِم أيّ الخيم توجد تلك المبتّزة، فأسرع الخطى باتجاهها وهو

الذي امتلأ قلبه غيظًا لدرجة أنّه لم يشعر بشدة الهواء المثلج، كان يجب أن يتحكم بأعصابه، فمثل هذه المرأة لن تأتي بالصراخ والعناد والتهديد، يجب عليه أن يتحلى بشيء من الهدوء والمكر، وقبل أن يفكر كيف يدخل الخيمة وتجعله بموقف المعتدي عليها، رآها تخرج وكأنّها جنيّة تحت عينيها السواد نتيجة شربها للمخدرات، وشعرها أشعث أغبر وكأنّها لم تستحم منذ قرن، وتبدو متهالكة ومستهلكة ومنتهية الصلاحية. حتى البشر لهم تاريخ صلاحية، يأتي يوم وتنتهي صلاحيتهم، وهذا بادٍ على رقعة وجهها المخيفة، ويبدو من شدة نشوتها لم تره فاقترب منها أكثر وهو يسألها:

— هل أنتِ بخير؟

يبدو أنّها ارتعبت، فقد انتفضت من مكانها وهي تنظر إليه بريبة وشرّ:

— ما الذي تريده؟ ومن أنت؟

— أنا أحد المتطوعين هنا، أعتقد أنّكِ شاهدتني من قبل ألا تتذكريني؟

— اغرب من هنا لا نحتاج إلى أمثالكم، أنتم تأتون لأجل الشهرة ولتظهرون بمظهر المحسنين وأنتم أكثر المسيئين إلينا، نعم نعلم أنّ من يأتي إلى هنا من جمعيات خيرية وتطوعية يكون فقط لأجل أن يريَ العالم أعمالكم، وإلّا ما تفسيركم للكمّ الهائل من التصوير وأنتم تشفقون علينا؟

نظر إليها فارس متعجبًا من كلامها ومن الجرح الذي راح ينزف من قلبها وهي تتكلم عن الحال التي يعيشها من في المخيمات، صحيح أنّها مجرمة ومدمنة، ولكن ما أصدقه من حديث! بالفعل كلّ من يأتي

من أُناس يكون الهدف غالبًا لجمع المتابعين على صفحات الشبكة الإلكترونية أو لغايات سياسية أو لأسباب مجهولة، ما أقسى الفقر وما أشدّه وجعًا على تلك القلوب، مجبرون هم على تحمُّل هذه الإهانات لأجل رغيف خبز أو بعض فتات الطعم الذي يلقيه عليهم الآخرين، تبًّا لمن أوصلهم لهذه الحال، وعاد إلى الواقع وهو الذي لم يغادره أساسًا، كانت قد ذهبت المدمنة بضع خطوات لأجل أن تدخن، فلحق بها وهو يحاول أن يستلطفها الكلام علّها تستجيب لمطلبه:

- أنا متعب أيضًا وأريد أن أجرب ما تشربينه لعلّ الهمّ يذهب مثلما يتبخر دخان سيجارتك تلك.

نظرت إليه بسخرية وهي تقول:

- وهل تظن أنّها بالمجان، كم تعبت لأجل القليل منهم.

- إذَن هل تعطيني واحدة وبسعرها؟

نظرت بطمع وجشع كبير إلى شكله وكان يبدو على ثيابه أنّ لديه من المال الجيد ما يكفيها:

- لن أستطيع تأمين ما تريده الآن انتظر ريثما يحلّ الظلام سيأتي الذي أشتري من عنده، ولكن يجب أن تعطيني دفعة مقدمة لأتأكد من أنّك ستدفع.

أخرج من جيبه بضعة آلاف وهو يقول:

- لكِ أكثر منهم بأضعاف إن جعلتني أتواصل مع من يمتلكهم، لا أريد وسيطًا بيننا، وسيكون لكِ ما تريدين.

نظرت إلى المال وابتلعت ريقها عدة مرات، كان منظره مغريًا لها كثيرًا، خاصة أنّها محرومة وليس معها إلّا ما أخذته لقاء جولي، ثمّ قالت:

– سأحاول في المساء أن أجمعك به.

واختطفت المال من يده بسرعة مخافة أن يتراجع عن كلامه، وهو بهذه الحركة فهم أنّها ابتلعت الطعم بنجاح وسرعة، وعليه الآن أن يفكر كيف يمكنه أن يتتبعهم دون أن يلاحظوا، يجب عليه الرحيل الآن لكي يستطيع أن يؤمن المال وما يمكن أن يكون وسيلة تتبع للعصابة.

❁❁❁

"من على هذه الأرض يمتلك حياة وردية؟ فالذي يملك مالًا
يفقد راحة باله وجيد الجسد فقير المال، وجامع الاثنين
تعيس القلب ودامع العين، لذلك قالها عزّ وجلّ: {لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} [سورة البلد: 4]".

لم تتوقف عن الصراخ منذ أن حملتها تلك السيارة اللعينة وانطلقت بها مسرعة إلى المجهول، شيء ما يحجب عنها الرؤية، وهناك ما يربّط يديها وراء ظهرها، لكن قدميها محررتين، كانت تحاول أن تضرب بهما يمنة ويسرة، ولكن دون جدوى، كان الموقف يزداد رعبًا بالنسبة لها، خاصة وأنّها سمعت أحدهم يقول:

— يجب أن نخفي هذا الصوت إنّنا نقترب من الازدحام، وسيكون الأمر مريبًا إن رأى أحدهم هذا الوضع أو سمع الصراخ.

— دعنا نضع كمامة على فمّها لعلّها تصمت!

أجابه الآخر باستياء وعصبية:

— لا لن ينجح الأمر هكذا، سأفعل شيئًا أكبر من هذا.

زادت دقات قلبها أكثر وهي تفكر ماذا سيفعل بها أكثر من ذلك، الألم ينتشر بكل أنحاء جسدها، ألم نفسي، وما أدراك ما الألم النفسي! إنّه أقوى من أيّ آلام أخرى، ما الذي يمكن أن تفعله وهي بهذه الحالة؟ ولم تجد نفسها إلّا وهي تسألهم:

— من أنتم؟ ماذا تريدون منّي؟ وما الذي ستفعلونه بي؟

— لقد طال صبري كثيرًا وأنتِ تصرخين ولم يكن هناك مشكلة فنحن بالصحراء ولن يسمعك أحد، لكن يبدو أنّك ستسببين لنا الكثير من المتاعب، لذلك يجب أن أجعلك تصمتين ريثما نصل.

وبدأ يتحسس قدميها وجسدها بيدّين خشنتين، فسرت بجسدها قشعريرة خوف، ولكنّها ما لبثت أن سمعت أحدهم يزجره، قائلًا:

— ماذا أصابك؟ أبعد يديك عنها على الفور وأنا سأجعلها تصمت، ولكن ليس بطريقتك القذرة تلك.

وما لبست أن شعرت بمنديل يغطي أنفها وفمها قبل أن تشعر بدوار يلفّ بها وسواد قاتم أشد ممّا كانت تشعر به منذ قليل يأخذها إلى عالم آخر، عالم الأرواح.

رأت نفسها بشعر أقصر وملابس رثة قديمة بعض الشيء، ومكبّلة بأحبال غليظة وآثار التعب والفقر واضحان عليها، لكن دقيقة كيف هكذا؟ هل كانت في غيبوبة أم ماذا؟ حاولت أن ترفع رأسها فشعرت بالألم يحيط بها من كل جانب، أغمضت عينيها مرة أخرى وهي تحاول أن تبعد هذا الحلم عنها، وعادت مرة أخرى تفتح عينيها من جديد، كانت الرؤية ضبابية وغير واضحة، ولكن ما هذا يا رب من الذي أمامها كانت ذات الفتاة التي رأتها منذ قليل وظنّت أنها هي، ما يميزها فقط عنها قصّة الشعر والملابس، أمّا باقي التفاصيل فهي ذاتها، وحتى لون الشعر وشكل الجسد، لا يختلف سوى أنّ التي أمامها أضعف بقليل، تحاول أن تهزّ رأسها لمرات وتغلق عينيها ثم تفتحهما من جديد، ولكن دون جدوى، لا تزال الفتاة أمامها، ما هذه الكوابيس التي تعاني منها اليوم، منذ بدايته اختطاف ومن ثمّ محاولة اغتصاب والآن هذا الأمر؟ أي محنة تمرّ بها! لا بدّ من تفسير لكلّ هذا الأمور التي تعيشها.

— من أنتِ؟ وما هذا الشبه الذي بيني وبينك؟

تساءلت رتيل باستغراب شديد.

ليست تحلم بالتأكيد بعد سماعها هذا الصوت، وكأنّها تتكلم مع نفسها. نبرة الصوت لديها لا تختلف عن نبرتها، تشعر وكأن الجدران تلتف من حولها والسقف يتراقص، كيف يمكن أن تتشابه الوجوه إلى هذا الحدّ؟ والصوت كأنّه يخرج من فمها لا من فمّ الفتاة التي أمامها، لم تجد لسؤالها جوابًا سوى بعض التمتمات:

— هل من المعقول أنّكِ من أشباهي الأربعين؟ ولكن نتشابه لدرجة وكأنّنا حبة فول انقسمت نصفين.

— ما الذي تقولينه؟ لم أفهم.

— أنا جولي، أمّا الشبه فأنا مثلك متعجّبة للغاية! نحن لا نتشابه بالشكل فقط، ولكن الصوت أيضًا ذاته.

— الآن فهمت كلامهم ولماذا اختطفوني؟ يظنّوني أنتِ.

— ما الذي تقصدينه؟

بدأت الكلام وهي تخبرها بكل ما تفوه به الخاطفون منذ قدومها وما رأتّه من مجزرة بشرية داخل الغرفة المجاورة والأصوات التي سمعتها ومحاولة التحرش بها والكثير من الكلام، وبعد أن انتهت رفعت رأسها وهي تقول:

— لم أعرّفك بنفسي أنا رتيل، عمري اثنان وعشرون سنة.

صدمة أخرى، وصمت طويل هبط على أنحاء الغرفة ولم يعد هناك سوى أصوات الأنفس التي تخرج، الشبه الذي بينهما، الصوت ذاته والبحة نفسها، وحاولت ألّا تفكر بالأمر كثيرًا، لكن العمر الآن أيضًا! هناك أمر مريب حتمًا وراء هذه القصة، ويجب عليها أن تتأكد.

- يا له من اسم مميز، ولكن هل يمكن أن تخبريني مواليدك بالضبط كم؟ إن لم يكن هناك إحراج.

تساءلت جولي بخوف باطني حاولت عدم إظهاره.

- اليوم العاشر من شهر أيلول.

هدأ نفسها قليلًا بعد ما علمت أنّ تاريخ ميلادها بعيد عن تاريخ ميلادها بأشهر، وهذا جعلها تظن أنّ تفكيرها غير صحيح، وليس هناك قرابة بينهما، ضحكت بينها وبين نفسها وهي تقول كيف سيكون بيننا قرابة وأنا مولودة، ولم تجمعنا الصدف إلّا بهذا الوقت؟ لا بأس إنّها بعض الأوهام غير الموجودة.

- إذَن بسبب التشابه الذي بيننا تمّ اختطافك؟ وبسببي أنت هنا؟

حاولت جولي أن تبعد دوامة التفكير عنها وهي تفتح حديثًا مع رتيل. أجابتها رتيل:

- لا أستطيع أن أقول بسببك، ولكنّها الأقدار شاءت أن أكون هنا بين هذه الظروف، ولكن لا بأس، هذا الأمر أصغر ممّا قاسيته في حياتي، ولعلّه سحابة سوداء وتمضي.

- وهل أنتِ هنا منذ وقت كبير؟

- منذ أسبوع أو أكثر.

باستغراب كبير صرخت جولي بصوت خفيف:

- كلّ هذه المدّة وأين أهلك؟ كيف لم يكن هناك من ينقذك؟

- ليس لي سوى أمّي، ولا أظن أنّها تعلم أنّني هنا، وحتى إن تمت المتاجرة بأعضائي لا أظن أنّها ستعلم بذلك، لقد تعودت على خروجي بين الفترة والفترة بعيدًا عن ذلك المخيم اللعين.

— هل تعيشين في المخيم أيضًا؟

— نعم، ومنذ وقت طويل.

— أنا أعمل في أحد المخيمات القريبة من الحدود.

— لا بدّ أنّك التقيتِ بوالدتي إذَن، فأنا وهي نعيش هناك.

— ما اسمها؟

تساءلت جولي عن اسم والدتها.

— إنّها ندى الجابري.

— نعم نعم رأيتها، ولكن لا شبه بينكما أبدًا، كأنّك تشبيهن والدك!

وكأن هذه الكلمة قد ضربت على الوتر الحساس وأشعلت فتيل الألم من جديد، تكره أن يذكرها أحدهم بوالدها، لا تريد أن يكون هناك صلة وصل بينها وبينه ولا أن تشبهه، الجميع يصرّ على أن يكون لها صلة وصل معه، لم تعد تريد متابعة الحديث، فأشاحت بوجهها على الطرف الآخر وهي تقول بصوت خائف:

— أشعر بالنعاس، سأنام.

استغربت جولي من الأمر ولم تعلم ما سبب تقلب مزاجها فجأة ولماذا انقلب حالها هكذا دون سابق إنذار! لكنّها لم ترغب أن تكون ثقيلة الروح عليها وفضلت الصمت، أمّا رتيل كانت الدموع تنسكب على الأرض الواحدة تلوى الأخرى، وكأن عينيها غيمتان محملّتان بالأمطار يهطل الدمع منهما بغزارة ودون صوت، فقط الكثير من الوجع في كل دمعة غصة وألم يحكي ما عانته هذه الفتاة من اضطهاد وقسوة.

وفي هذه الأثناء دخل أحد الأفراد وهو ينظر باستغراب وشراسة إليهما، الشبه بينهما غريب جدًّا، يريد أن يلتهمهما بعينيه، تفحص أجسادهما من الرأس حتى أسفل القدم، يريد أن يقتنص إحداهن، ولكن لا يستطيع بسبب الأوامر المعطاة بعدم الاقتراب منهما، تقدم إلى جولي التي ابتعدت للوراء بخوف وهي تنظر إليه:

— مَن أنتم وماذا تريدون منّي؟

— ستتصلين بوالدتك ونخبرها ما الذي نريده مقابل أن تعودي سالمة إليها، سنرى كم ستكون قيمتك عندها.

في هذه اللحظة حاولت رتيل أن تمسح دموعها وتنهض بتحدٍّ وهي توجّه كلامها إليه:

— لم أكن الفتاة المنشودة فلماذا لا تدعوني وشأني؟ ها قد أتيتم بمن تظنون أنّها أنا.

التفت إليها وهو ينظر من جديد وقد احتار بينهما من شدّة الشبه:

— تتشابهان وكأنكما توأم حقيقي والغريب أنّكما لا تعرفان بعض أبدًا، هل تتظاهران بذلك أم أنكما فقط تحاولان إخفاء الحقيقة؟

— لا قرابة بيننا، دعوني وشأني ليس هناك المال لتأخذوا فدية فماذا تريدون؟

أطلق الرجل ضحكة ساخرة وهو يقترب منها ويتحسس وجهها ويضع يده على شفتيها ثم يرفع رأسها مقابل رأسه:

— أنتِ تملكين ما هو أغلى من المال بكثير.

أبعدت يده عنها بقوة وهي تنظر إليه:

- ما الذي تقصده؟ هل منظري يوحي بأنّ لدي ما يمكن أن أعطيه مقابل حريتي!
- نعم، لديكِ جسد يترامى تحت قدميه رؤوس الكبار ويُدفع مقابله الكثير من المجوهرات والأموال.

وقع قلبها من كلامه ومن نظراته التي كانت تلتهم جسدها، كان يركّز بصره على نهديها، فوضعت يديها متكتفة تحاول أن تخفيهما عن عينيه الوقحتين وما لبث أن رفع رأسه من جديد إليها، وهو يقول:

- سأكون أول من يعبث بهذا الجسد الفتيّ وينتهك كلّ ما فيه، ولو كلفني ذلك كلّ ما أملك أو حتى روحي ذاتها، يكفي أن أتذوقه قبل موتي.

رفعت يدها وأنزلت باطن كفها على وجهه بأقوى ما تملك وهي تبصق عليه:

- حافظت على نفسي سنوات عمري كلها، لن يأتي يوم ويوسخه كلب مثلك، خسئت يا عديم الشرف.

كان الأمر مفاجئًا له، فقد احتقن وتصاعد الدم لرأسه واحمرّ وجهه وهجم عليها وهو يحاول أن يقبّلها ويتفوه بأسوأ الألفاظ:

- سترين أيتها الساقطة ماذا سيفعل بكِ من وصفته بالكلب، ستصبحين اليوم امرأة وأنا الذي سأفعل ذلك يا عاهرة.

كانت جولي ما تزال تحت تأثير الصدمة وهي ترى كلّ هذا الأمر، عاشت بكنف ودلال كبير، بدأت تصرخ وهي تقول:

- ابتعد عنها من فضلك لا تفعل هذا.

كانت تحاول أن تبعده عنها، ولكنّه التفت إليها بنظرة مخيفة؛ ممّا جعل أطرافها ترتجف من الرعب.

— لا تقتربي وإلّا ستكونين التالية ولن يهمّ مال أمك تلك.

بهذه اللحظة ضربت رتيل بركبتها بين قدميه بأقوى ما تملك، فابتعد عنها وهو يتلوى من الألم ويطلق السباب والكلام الفاحش من جديد، ولكنّها لم تكتفِ بذلك، بل تقدمت منه وركلته مرة أخرى بقدمها بنفس المنطقة عدة مرات، وهو كالأفعى لا يستطيع حتى المقاومة أو الدفاع عن نفسه، لقد اختارت المكان الأكثر حساسية في جسد الرجل، وعرفت من أين تؤكل الكتف، وراحت تنهال عليه بالضرب.

— هل تأكدت الآن أنّه لا يمكن لذكر أن يلمسني دون موافقتي؟ أردت أن تسلبني شرفي وقد سلبتك ما هو أغلى منها لديك، عش بهذا الألم بقية حياتك أيّها الديوث، وليكن هذا درس لغيرك.

غاب الرجل عن الوعي، واقتربت رتيل من جولي وهي ترى وجهها مصفّرًا وترتجف في مكانها مذهولة ممّا فعلته هذه الفتاة بالرجل، أمسكت رتيل بيدها وهي تقول لها:

— أعتقد أنّه حان وقت خروجنا من هذا المكان اللعين، ويبدو أنّه لا أحد هنا، دعينا نغادر هذا السجن.

التفتت جولي إلى الرجل وهي تقول:

— ولكن لماذا لا نأخذ هاتفه معنا لأجل أن نتصل على من ينقذنا؟

عادت رتيل إليه وسحبت هاتفه وأكملت طريقها إلى الخارج وهي تسألها:

— هل تعرفين رقم أحد؟

— لماذا لا نتصل على الشرطة؟

— وهل أنتِ غريبة عن هذا الوضع؟ الشرطة تأتي بعد أن ينتهي الأمر، يجب علينا الاتصال بأحد يخاف على فقداننا.

— لا أحد هنا لي، لا يخطر لي أي رقم.

فكرت رتيل لدقيقة قبل أن تحسم رأيها وتضرب الأرقام التي حفظتها لسنوات ولم تنسها أبدًا، وكانت تردد في نفسها هل من الممكن أن يكون الرقم لا يزال فعّالًا إلى هذا الوقت؟ بعث في قلبها الأمل وهي تسمع الرنين، ولكنّه طال وطال ولم يجب أحد، وهنا بدأ الخوف يسري في جسدها مخافة ممّا سيحل بهما، خاصة وأنهما خرجتا والليل يلتفّ بالأرجاء ويبدو المكان مقطوعًا إلّا من الأشجار.

— ماذا سنفعل الآن؟

سألتها جولي.

— أنا أعرف هذه المنطقة، يجب أن نبتعد قدر الإمكان عن هذا المكان وبأسرع وقت، سينتبه الجميع لغيابنا ولن يكون هناك من ينقذنا في الوقت الحالي.

بدأتا بالمشي السريع تارة، والركض تارة أخرى، ورتيل تحاول أن تتصل بالرقم من جديد، ولكن دون فائدة، إلى أن سمعت ذاك الصوت على الهاتف.

❀❀❀

"من أين يأتينا الفرح ولوننا المفضل السواد ونفوسنا سواد
وعقولنا سواد وداخلنا سواد! حتى البياض عندنا يميل إلى
السواد. من أين يأتينا الفرح والفكر في بلادنا أرخص من
حذاء، وغاية الدنيا لدينا الجنس والنساء؟".

نزار قباني

انطلقت بالسيارة التي استأجرتها والدمع ينهمر بصوت خافت تحاول أن تنسى ما سمعته منذ قليل حين التقت بأولئك الناس القاسية قلوبهم والمتحجرة عقولهم، الكثير من الأسى والحزن يبتلع قلبها الصغير ويجعله يتقطّع، كيف لهم أن يكونوا أهلًا وهم بذلك العقل؟ عاد لها الموقف من جديد، حين ذهبت صباحًا باتجاههم وهي تفكر كيف تفتح الموضوع معهم، ومن أين تبدأ به؟ وصلت إلى العنوان بعد أن عرفته بطريقتها، وقرعت الباب، ولكن دون إجابة، عادت مرة أخرى تقرعه، فأتاها صوت جهوري:

— نعم من هناك؟

— أنا ميرال.

فُتِحَ الباب وأطل من خلفه رجل في الأربعين من عمره، جميل الهيئة أشقر الوجه، وله عينان نبت بهما الزرع، طويل القامة، صاحب أكتاف عريضة، ليس بقصير لا يُرى ولا طويل تشرئب له الأعناق، هادئ الملامح، أطالت النظر به، هناك شبه كبير، وقبل أن تسترسل في تفكيرها أتاه صوته:

— أهلًا! بماذا أساعدك؟

— هل هنا منزل أوس الجابري؟

- نعم، من أنتِ؟
- اسمي ميرال وقد أتيت بأمر هام وموضوع كبير، هل من الممكن أن ألتقي بوالديك لأجل التحدث معهما؟
- مرحبًا بكِ، إنهما بالداخل، تفضّلي.

دخلت وهي تنظر إلى عراقة هذا البيت والجمال الدمشقي والحضارة القديمة مرسومة على أركانه، يتوسطه نافورة جميلة فيها أوراق الورد الجوري منثورة والجدران تلتفّ عليه أوراق الدالية من كل جانب.

كانت مأخوذة بسحر هذا المنزل وبجماله الذي ينطق، تريد أن تغذّي بصرها وتمتّع عقلها بكل ما تراه، ولكنّها تذكرت لماذا هي هنا وما الذي جاءت به من أجله، وسارت وراء الرجل حتى دخلت غرفة كبيرة، توقعت أنّه المجلس، أخبرها أن تستريح ريثما يخبر والديه بقدومها، وغاب قليلًا، ثمّ عاد بصحبتهما، وبعد أن ألقت التحية عليهما وعرّفت عن نفسها بدأت الكلام عمّا جاءت من أجله:

- بداية يجب أن تعلموا أنّني هنا دون معرفة ابنتكم ندى وقد أتيت لأبيّن لكم الظلم الذي تعرضت له والقهر والألم الذي عانته طوال هذه المدة دون سند تلجأ له.
- ندى؟

نطقت الأم الاسم بشهقة والدموع تتجمع بمحجريها ويدها على صدرها. التفت إليها زوجها بنظرة غاضبة، وهو يقول:

- اذهبي إلى الغرفة الأخرى يا امرأة.
- لا من فضلك يا عم، أريدها أن تعلم وتسمع ما جاءت به.

سكت على مضض وهو يشتعل غضبًا، يريدها أن تنتهي ممّا أتت لأجله سريعًا، فأشار بعينيه أن تابعي ما تريدين، وبدأت ميرال تشرح لهم كامل القصة، والأب صامت دون أن يتفوه بحرف واحد، وأخوها يقف متكتّفًا عابسًا وهو يسمع الحديث كاملًا رغم معرفته السابقة به حين التقى أخته منذ سنوات، وبعد أن انتهت ميرال من كلامها كانت شهقات الأمّ تزداد وأنين قلبها يصل إلى الخارج، والغريب أنّ الأب حين انتهت ألقى بقنبلته دون أن يرفّ له جفن:

— نحن نعلم كلّ هذا الأمر، وقد انكشف الرجل الديوث بفعلته تلك مع فتاة أخرى واعترف لي بكل ما حدث، ولقد قطعت علاقتي به ولم يعد أخي منذ علمت بالأمر.
فتحت ميرال عينيها بصدمة كبيرة وهي ترمش لعدة مرات:

— هل كان لك علم بكلّ هذا ولم تحاول أن تعيد ابنتك؟

— نعم، ولن أعيدها إلى هذا البيت، وإن عادت فمصيرها محتوم ومعروف، لقد سُفِكَ دمها منذ اللحظة التي خرجت بها.

— ولكن ما ذنبها؟ ما الجرم الذي فعلته وبأيّ حق تمنعها من العودة إلى بيتها وهي التي عانت كلّ هذا بمفردها؟ أيّ قسوة في قلبك أيها الرجل؟

— كان لها أم لم يكن، ما حدث لا يمكن أن نتغاضى عنه وتستمر الحياة وكأنّها لا تزال البتول التي لم يتدنس شرفها، لا عودة لها وانتهى الكلام.
نهض من مكانه وهو ينتظرها أن تخرج، ولكنّها أصرّت أن تتمسك بأمل أن يتغير رأيه حين يعلم بالأمر الأخير:

- هل ستظل على رأيك حتى وإن علِمت بأمر أحفادك؟ الفتاتان اللتان لا ذنب لهما بشيء؟ ألن تساعدها بأن ترمّم جرحها وتضمده بعد كلّ هذه الأوجاع؟

- هــ هل لها ابنتان؟

تمسكت الأم بذراع ميرال وهي ما تزال تبكي وتشهق.

- نعم، وكلاهما يملكان ملامحكم.

حضنتها ميرال وهي الأخرى تبكي أيضًا. شدّ الأب يدّ زوجته بقوة مبعدها عن ميرال وكأنها جرثومة أو شيء قذر، صارخًا في وجهها:

- إلى غرفتك أيتها العجوز.

وكعادة نساء زمان مشت مذعنة لأوامر زوجها، ودون نقاش خرجت وهي تكفكف دموعها التي تأبى أن تتوقف، كانت تمشي على قلبها وتدعس على مشاعر الأمومة، بينما التفت الرجل العجوز مرّة أخرى إلى ميرال وهو يمدّ يده إلى الباب مشيرًا:

- لعن الله اليوم الذي أتت به هذا الفتاة وكانت ابنتي، ولا بارك الله بها إلى يوم الدين وكانت ممن رجمهم الله في الدرك الأسفل من النار، اخرجي من هنا ولا تفكري بالعودة أبدًا إلى هذا المنزل، وأخبريها لو تبقّى يومًا من عمري سأغسل ثوب العار التي ألبستنا إياه، هيا اغربي فالبيت يحتاج لتطهير بعد ذكر اسمها فيه.

تملّكتها شجاعة كبيرة وهي ترفع رأسها وتنظر بعينيه بقوة وتحدٍّ، قائلة:

- من لا يكون أبًا في كل الظروف لا يحقّ له أن يكون أبًا في شيء، فلتعلم أنّ ابنتك أطهر منك ومن قلبك الممتلئ بشتّى أنواع الحقد

والكره، وأنّها رغم أنفك وأنف المجتمع الذي أنت خائف منه عذراء القلب ولم يدنسها شيء، وقد منّ الله عليها إذا أخرجها من قوم مثلكم، لا يعلمون من الدين إلّا الصلاة والصوم، والله إنّ الإسلام متبرئ منكم إلى يوم تبعثون، فمن لم يكن قلبه رحيمًا عطوفًا يعلم واجباته تجاه أولاده فلا طاعة له ولا يستحق أن يقال له أبي، وليكن بعلمك أنّ الله قد حرمني من الخلفة، ولكن كنت خير أمّ وكان زوجي خير أب لحفيدتك، وها أنا ذا اليوم ورغم معرفتي بأن لا نسب لها ستظلّ ابنتي، حتى وإن لم أكن أمها التي ولدتها.

أنهت كلامها بثبات وثقة ودون أن يرفّ لها جفن، ومشت وهي تاركة خلفها عاصفة من المشاعر تعبث بذلك الذي يُسمّى عزّ (أب) وآخر يسمّى سند (أخ)، سمعت صراخ العجوز وهو يقول لابنه:

— كلّ هذا بسببك، لو أنّك قتلتها منذ ذلك اليوم الذي رأيتها وعلمت عنها ما علمت ما كنّا سنقع بهذه الأمور، ولكن لا فائدة منك أيها الغبي الأبله.

وسمعت ارتطام جسد على الأرض وصراخ الشاب ينادي أبي أبي، ولكنّها لم تلفت إليهما وأكملت طريقها إلى الخارج.

عادت إلى الواقع وهي تسمع صوت بوق السيارة التي خلفها عاليًا ورجل يخرج من نافذة السيارة صارخًا:

— تحركي، الإشارة مفتوحة منذ زمن.

تحركت بسيارتها والدمع يغطي مقلتيها، تلتفت لتأخذ علبة المناديل وتجفف دمعها، وقبل أن تصل إليها ترتطم بها شاحنة كبيرة جعلتها تغيب عن هذه الدنيا.

❀❀❀

البعض يكتب ليهرب من الواقع، والبعض يرسم حلمه الذي سُرِقَ منها، وآخرون لا يجيدون هذا ولا ذاك فيلجؤون للبكاء فقط.

كان يسير باتجاه سيارته وهو محبط، لم يستطيع أن يحصل على ما كان يفكر به، وقد دفع مبلغًا كبيرًا لأجل أن يكسب ثقة تجار المخدرات، ولكنّه لم يمسك بطرف خيط ليسير به، قطع عليه تفكيره تحية صديقه:

— سلام عليك، أراك شارد الذهن وكأنك ليس بهذا العالم يا عزيزي!

— وعليك سلام الله ورسوله، لا أعلم يا خالد كيف سأستطيع أن أصل لمن خطف جولي، حاولت أن التقط أيّ معلومة ولكن كلّ تعبي ذهب سُدى.

— تقصد ريتال توأم رتيل! لا عليك، سنجدهما يا فارس، ولكن يجب أن يكون لديك القليل من الصبر فقط.

— أخبرتك أننّي التقيت مع كرم هنا في المخيم!

— كرم؟ لقد مرّ فترة طويلة لم ألتقِ به، ما الذي أتى به إلى هنا؟

— يبدو بأنّ هناك من فتحت باب القلب على مصراعيه، لقد كانت برفقته فتاة كلّما نظر إليها يصلك صوت دقات قلبه إليك، رغم أنّه لم يخبرني ما الأمر ولكن لاحظت ذلك منذ رأيتهما معًا، وأعتقد أنّهما هنا لأجل عمل خير ومساعدة الناس.

فتح خالد فمه بدهشة وهو يضحك:

— هل من المعقول؟ كرم الذي لم يكن يلتفت لإحداهنّ وقع في الغرام! لا أصدق، ولكن يا لك من عاشق أنت علمت أسرار العشاق دون أن يتكلم الرجل!

— ومن قال العشق بحاجة للكلام حتى يبان! إنّ العاشق يا صديقي تفضحه نظرة عينيه ورجفة قلبه والصمت في حرم العشق جمال.

— يبدو وكأن الشوق يعصف في قلبك وأصبحت شاعرًا يا طبيب القلوب.

— أتريد الصدق؟ رغم سنوات مضت وفراق طال ومسافات وُجِدت لم يلتفت القلب لسواها.

— إذَن ما رأيك بأن نجتمع مع كرم ونتحدث عن العشق سويًّا.

— سأتصل به وأرى أين هو.

بعد لحظات جاء صوته على الهاتف:

— أهلًا يا فارس، يا له من توقيت، منذ قليل كنت أتحدث عنك وأريد لقاءك أنت وخالد.

— مرحبًا بك، أنا مع خالد، دعنا نلتقي في مكاننا القديم.

أغلق الخط وانطلق مع خالد، وكان اللقاء مع كرم به حفاوة كبيرة وشوق عظيم، ولكن لم يلبث فارس أن يجلس حتى سمع رنين هاتفه، وكان الرقم غريبًا، لم يُجب في أول مرة، وعاد الرقم من جديد بإصرار يرن، وسمع كرم يقول:

— يبدو أنّ الأمر مستعجل، أجب لعلّ هناك أمرًا طارئ.

رفع الهاتف وأجاب:

- أهلًا، مَن المتحدث؟
- فارس؟ هل هذا أنت؟

بدأ المكان يتردد بصوتها وشعر وكأن الأرض تدور من حوله، هذا الصوت الذي كان يبحث عنه لأيام وأسابيع وشهور وسنوات، هذا الصوت الذي عجز جميع الأطباء أن يحتفظوا به على شكل كبسولات تُعطى حين الحنين يهاجمنا ويفتك بأرواحنا، شعر وكأنّه في حلم لا يريد أن يفعل شيئًا أو يتحرك مخافة أن يستيقظ، يا رب إن كان حلمًا لا أريد الاستيقاظ، وإن كان واقعًا لا تجعله يختفي مرة أخرى، وعاد إليه الصوت من جديد وهو يردد:

- فارس، هل تسمعني؟

وقبل أن يجيب سمعها تقول وكأنّ أحدًا بجوارها:

- يبدو أنّ الرقم غير صحيح.

وأغلقت الهاتف وفي هذه اللحظة تدارك الوضع، وهو يردد بصوت عالٍ:

- إنّها هي، والله لا أنسى صوتها ولو مضت سنوات وسنوات.

دُهِش الصديقان وهما ينظران إلى حالة فارس، أمسكه خالد وهو يهزّ كتفه رويدًا ويسأله:

- من تقصد بأنّها هي؟ أرتيل!
- نعم هي، ويبدو صوتها متعبًا للغاية.

كان ينظر في الفراغ وهو يقول ذلك.

- وما الذي تنتظره عاود الاتصال بها من جديد، مؤكد أنّ هناك أمرًا ما لاتصالها المفاجئ هذا وبعد كل هذا الوقت!

قال كرم ذلك وهو يمسك بيده بقوة. وانتبه فارس إلى الأمر وقد عاد إليه وعيه واستيقظ من نشوة الحب والشوق وهو ينظر إلى هاتفه ويضرب الرقم من جديد بقلب مرتجف، ولكن يالخيبة الأمل، الرقم مغلق، أنزل هاتفه وهو يحاول مرة ثانية وثالثة وعاشرة، ولكن في كلّ مرة كان الرقم مغلقًا، يالسخرية القدر! بعد كلّ هذا الوقت والانتظار وحين وجدها ها هي تضيع من يده مرة أخرى، سقط على ركبتيه وهو لا يزال يحاول أن يتصل، وفجأة قال كرم:

— لدي بعض المعارف في دائرة الاتصالات سأبحث عن مالك الخط الذي اتصلت به ونحاول أن نجده.

ودبّ الأمل من جديد في روح فارس وهو ينظر إليه بامتنان، وبعد دقائق طويلة مرت على فارس كأنّها دهر أخبره كرم أنّ الرقم مسجل باسم رجل له سوابق إجرامية وهو في القائمة السوداء مطلوب لعدة جهات، وكاد قلب فارس يقف من الخوف وهو يرى تلعثم كرم وتردده في إكمال الكلام:

— سألتك بالله عليك أن تخبرني ماذا هناك أيضًا؟

— الرجل من أفراد عصابة تجار مخدرات و..

عاد للصمت من جديد وهو ينظر إلى الأرض وفارس يحثّه على الكلام من جديد:

— وماذا يا كرم؟ ماذا أخبرني.

— اسمع يا فارس هذا الرجل خطير جدًّا وله ملف كبير في تجارة الأعضاء والمخدرات والدعارة، وحسب ما فهمت أنّه يتاجر بالنساء، يعني أنّه يأخذهنّ رهائن ويبيع أجسادهن لأجل المال ويقبض على

كلّ ساعة يقضيها الرجل مع إحداهنّ، لم أكن أريد أن أخبرك بكلّ هذا، ولكن لتعلم حجم الأمر التي هي به الآن.

حلّ الكلام عليه كمطرقة حديد هشَّمت قلبه قبل رأسه، محبوبة قلبه بين مجموعة من أفراد عصابة خطيرة وبالتأكيد اتصلت به لأنّ لا أحد لها سواه، ما الذي سيفعله لأجلها وكيف يمكن أن يجدها؟ ولكن لحظة! هل من المعقول أنّها ذات العصابة خطفت أختها؟ لا بدّ له أن يتحرك سريعًا، يجب عليه أن يفعل شيئًا ما وبأسرع وقت. نهض من مكانه وهو شارد، ولكن يد خالد أمسكته سريعًا:

— إلى أين يا فارس؟

— سأذهب للبحث عنها، لا بدّ أنها بخطر وخائفة الآن.

— ولكن كيف ستجدها وأنت لا تعلم من أين ستبدأ البحث؟

— لا أعلم يا خالد، لا أعلم، فقط أشعر بالخوف يأكل بعضي، سأذهب للشرطة وأخبرهم بالوضع كله، ومن خلال ذلك سأصل إلى أيّ معلومة تساعدني.

كان الهمّ والقلق باديان على وجهه وهو يشعر بالعجز الكامل ولا يملك بيده أيّ وسيلة لمساعدة رتيل، وقبل أن يمشي قال كرم:

— لا تقلق يا فارس سأساعدك، لدي معارف كثيرة، وبالتأكيد هناك من يستطيع أن يراقب آخر نقطة كان بها الهاتف، ولكن يجب عليك أن تهدأ قليلًا أولًا، وثانيًا لا تتوقف عن محاولة الاتصال عسى أن تأتي إشارة ما ونستطيع أن نتوصل إلى طريقهم، ولكن قبل أن أجري اتصالاتي يجب أن أعرف اسم الرجل بالكامل، دقائق سأتصل على ذات الشخص الذي أخبرني بالمعلومات منذ قليل.

بعد عدة رنات أجاب الرجل، ويبدو من كلام كرم أنّه يساوم لأجل هذه المعلومة ويريد مبلغ لقاء هذه الخدمة، وبالفعل لحظات وأخبره اسمه، ولكن ما إن سمع اسم رجل العصابة حتى تجمّد في أرضه وشعر بوخزة في صدره هو يعرف هذه الكنية بشكل جيد، ولكن مع ذلك رفع الهاتف من جديد وهو يسأله:

— هل أنت متأكد من الاسم؟

— نعم، مالك الخط هو الاسم الذي أعطيتك إياه بكلّ تأكيد.

أنزل الهاتف بعد ما تشكَّر الرجل وصار ينظر في الفراغ، كان يحاول أن يساعد صديقه، ويبدو أن مصيبة حلّت على رأسه، نكزه خالد وهو يقول:

— ماذا حدث؟ من هو هذا الرجل ولماذا أصبت بالصدمة هكذا حين أخبرك عنه؟

— ها؟ لا شيء، فقط أفكر بمن سأتصل وكيف نجده.

لم يصدقه خالد، ولكن شعر بأنّه لا يرد الكلام، فلاذ بالصمت وهو ينظر إلى فارس الذي لم يكن في هذا العالم، وكأنّه غائب عن الوعي، وبدأ كرم بإجراء اتصالاته وفكره ما يزال مشغولًا، وقلبه ليس معه، وبعد قليل عاد إليهما وهو يخبرهما أنّه أخذ آخر نقطة تواجد به الهاتف، وهنا فزّ فارس من مكانه وهو يركض إلى سيارته ويلحق به كل من خالد وكرم وركب الجميع السيارة وكرم يخبرهما بأنّ الشرطة في طريقها إلى ذلك المكان أيضًا.

❀❀❀

الفصل العاشر
إسدال الستار

عبثت بنا الأيام كيفما شاءت، ولم نكن سوى حجر شطرنج
تحركنا الأقدار، فالصبر يا قلب حتى يأتيك الجبر.

كانتا تمشيان بخوف وتعب وتوتر، لا تزال رتيل تحاول الاتصال، ولكن دون فائدة، الهاتف لا شبكة به، والليل بدأ يسود ويسود، والبرد يهجم عليهما ويفترس أجسادهما، وبدأت جولي بالبكاء وهي ترتجف، قبل أن تسأل رتيل:

— ماذا سنفعل الآن ونحن في هذا المكان المقطوع؟ إنّنا نسير منذ ساعة وبدأت أشعر بقدميّ تتجمد من شدّة البرد والتعب، والهاتف يبدو أنّ الإرسال به متوقف عدا عن ذلك حلقي جاف وأنا عطشى جدًّا.

توقفت رتيل عن السير وهي تلفت إليها وتسير باتجاهها، فقط كانت متقدمة عليها بضع خطوات، وحين وصلت إليها حضنتها وهي تمسح على ظهرها لعلها تبثّ لها بعض الدفء، وتحاول أن تطمئنها ببعض الكلمات وتبعث في قلبها الأمل:

— اسمعيني، تعارفنا منذ قليل وبفترة قصيرة، ولكن لا أعلم سبب تعلقي بكِ وسرّ محبتي لكِ، وكأنّني أعرفك منذ وقت طويل، ولهذا لنتفق على أمر في حين خروجنا من هنا سنظل نتواصل مع بعض، ولا تخافي لقد شارفنا على الوصول إلى الطريق العام، وبكل تأكيد ستكون هناك سيارات تقف لنا ونخرج من هذا الأمر.

هدأت جولي بعد هذا الكلام وهي تشعر بالدفء من حضن رتيل، ولكنّها لا تزال تشعر بالعطش الشديد، ومع ذلك ابتعدت عن حضنها وبدأت تسير من جديد، وهي تقول:

— وأنا أيضًا أشعر بذات الشعور، وكأنّ الله قذف حبك في قلبي، ولكن بما أنّ الطريق لا يزال طويلًا والليل أطول، هل يمكنني أن أعرف سبب صمتك حين كنا نتكلم وبكاءك المفاجئ؟

لم تجب رتيل، وتابعت هي بدورها المشي، وتحاول أن تتصنع الانشغال بالاتصال وغيّرت السيرة وهي تنزل الهاتف:

— يبدو أنّ هذه المنطقة لا تغطية بها، سأحاول للمرة الأخيرة.

فهمت جولي أنّها لا تريد التكلم فالتزمت الصمت، ولم ترد أن تجبرها على بوح ما لا تريد، وها هي دقيقة وقد سمعت رتيل تقول:

— فارس.. فارس.. هل تسمعني؟

— رتيل؟ أهذه أنتِ إننّي أحاول الاتصال بكِ منذ متى ولكن..

واختفى الصوت من جديد، وضربت رتيل قدميها بالأرض بغضب وهي تتذمر:

— لماذا لا يكتمل معي أمر واحد في هذه الحياة؟ ما الذنب الذي ارتكبته حتى أعاني إلى هذه الدرجة؟ لمرّة واحدة فقط يا إله السماوات أغثني وكن بقربي، ساعدني حتى أعلم أنّك تسمعني.

وأجهشت ببكاء طويل يرقّ له قلب العدو والشهقات تتزايد، ركضت جولي باتجاهها وهي تحضنها في هذه المرة وتحاول أن تواسيها وتمسح على رأسها، ولكن رتيل لم تكن بوعيها، دخلت في دوامة بكاء وكلام متقطّع:

- حُكِمَ عليَّ أن أولد دون رغبتي، وأن أعيش بلا نسب ولا أب ويصبح اسمي اللقيطة، ما ذنبي إن كان هناك وحوش لا يعرفون من هذه الحياة إلا غرائزهم وشهوتهم! ولماذا يجب أن أُحرم من لذة الحب مع شخص لا يوجد مثله اثنان؟ وفوق كلّ هذه المصائب هناك من يختطفني مقابل فدية وحين يعلم أنّه لا أهل لي يقرر أن يتاجر بجسدي، متى سيكون لي حقّ الاختيار وفرض القرار؟

جلست على ركبتيها بعد ما تمزّق صدرها وهي لأول مرة تخبر أحدًا بحقيقة أمرها وتلجأ للبكاء على صدر إنسان بالنسبة لها غريب، وظلّت تبكي حتى شعرت بأنّ دموعها جفت، وهدأت قليلًا من حزنها الكبير، كانت جولي تبكي معها وهي مصدومة من كلّ هذا الكلام الذي سمعته للتو، وفهمت سبب صمتها وبكائها في تلك الغرفة، يالهذا القلب كيف يتحمل كلّ هذا الوجع وهو في حجم قبضة اليد! تركتها تبكي دون أن تتكلم، فهي تعلم أنّ البكاء يخفف من حدة وجع القلب ويزيل من الهمّ قليلًا.

بعد أن تكلمت رتيل بكلّ هذا شعرت بوجعها أخفّ من ذي قبل، وكأن الكلام أزاح شيئًا من الهم عنّها، نهضت من مكانها وهي تتأسف من جولي عمّا سببته من توتر وحزن، ولم تعلم كيف تجعلها تنسى ما سمعته منها للتو، ولكنّها وجدت نفسها تقول:

- هل من الممكن أن يبقى ما سمعتيه منذ قليل بيننا فقط إلى يوم الدين؟

فهمت جولي خوفها وكيف ستكون نظرة المجتمع لها لذلك طمأنتها:

- لم أسمع شيئًا، فقط البكاء المتواصل ولم يكن كلامك مفهوم بتاتًا.

ابتسمت رتيل وهي تشكر الله على تفهم جولي لها، وأمسكت بيدها وهي تكمل السير، ولكن لحظة، هناك صوت من الخلف يأتي:

- لا أعتقد أنهما ابتعدتا كثيرًا، لا بدّ أنهما هنا ولكن تبًّا، يبدو وكأنّ الليل ابتلعهما بين سواده لا أرى أيّ أثر.

أجابه صوتٌ آخر:

- كلّ هذا بسبب غبائك، لا تهتم إلّا للجنس والنساء، يا لك من أحمق معتوه.

- وهل هناك أجمل من هذين الأمرين على الأرض؟

- ما زلت تتكلم بعد كلّ هذا! سحقًا لك يا رجل.

كتمت جولي شهقتها وهي تهمس بأذن رتيل:

- إنهما يطاردونا، كيف سنكمل؟

بذات الهمس أجابتها رتيل:

- سنتوقف هنا خلف الأشجار ريثما يسيران بعيدًا عن المكان وبعدها نتابع السير.

وقبل أن تكمل كلامها كان رنين الهاتف يشقّ صمت الليل، وحاولت أن تسرع رتيل وتطفئه، ولكن يبدو أنّ الرجلين انتبها، فقد سمِعت صوت أحدهما يقول:

- هل سمعت ذلك؟ دعنا نسرع إنهما بالقرب من هنا، وإن لم نرجعهما سنكون في ورطة كبيرة وسنقع في المتاعب.

وسمعتا اقتراب خطواتهما، وكان الخوف يسيطر على قلوبهما، ممّا جعل رتيل وجولي يحبسانِ أنفاسهما وهن يشعرن بوقع أقدامها على الأرض المغطاة بالطين والمطر.

❀❀❀

وتشعر بالبكاء الطويل في لحظة ما، دون سبب، فقط الكثير من الوجع، لا تفهم ما الذي يؤلمك، فقط تذرف الدموع دون توقف، وربما يمتدّ الأمر لساعة أو ساعات، لا تستطيع أن تشرح ما يعتريك من تبعثر، ويحترق القلب للحظات ممتدة، وتنهار جدران القلب من كثرة التراكمات.

فتحت عينيها وهي تشعر بألم في رأسها وصعوبة في الرؤية، كلّ ما حولها أبيض وهي مستلقية على فراش أبيض، للحظة لم تعرف ما حدث، ولكن بعد ذلك تذكرت ارتطام سيارتها وغيابها عن الوعي، وفي هذه اللحظة دخلت الممرضة وعلى وجهها ابتسامة اطمئنان:

- الحمد لله على سلامتك سيدة ميرال، يبدو أنّك اليوم أفضل!
- شكرًا على لطفك، ولكن منذ متى أنا هنا؟
- منذ يومين، كانت إصابتك كبيرة إلى حدٍّ ما، واليوم استقرّت الأمور لديكِ.
- حمدًا لله، ولكن لا أشعر بقدمي اليسار أبدًا.

توترت الممرضة قليلًا، وقد بان ذلك على وجهها، ولكنّها لم تبُح بشيء، فقط أخبرتها أنّ الطبيب المشرف على حالتها سيأتي في الحال، وبالفعل ما هي إلّا لحظات حتى دخل الطبيب، وبعد أن تحمد لها على سلامتها وسألها كيف تشعر، أخبرته الممرضة بما سمعته منذ قليل، اتجه إلى القدم وفحصها وهو يسألها:

- هل تشعرين بوخز رأس القلم؟
- لا أبدًا! ماذا يحدث يا دكتور؟ هل هناك ما يقلق؟

– يبدو أنّ الأعصاب قد تأذت للأسف الشديد، وهذا نتيجة الضربة القوية التي تلقيتها فجأة.

– ماذا يعني هذا الكلام؟ لن أستطيع السير من جديد؟

– ليس تمامًا، ولكن ستحتاجين إلى عكاز يا سيدتي، وذلك بسبب ما حدث لقدمك، إنّ خروجك من ذلك الحادث وبقاؤك على قيد الحياة معجزة كبيرة.

على عكس التوقع لم تبدأ البكاء أو تدخل في دوامة الحزن والتشاؤم، بل كان جوابها في منتهى التفويض لأمر الله:

– الحمد لله على هذا الأمر، أتمنى أن يكتب لي الله الأجر على ما وقع عليّ من مصيبة، إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي.

ابتسم الطبيب بتعجب وهو ينظر إلى وضعها النفسي وقد أُعجب بقوة إيمانها كثيرًا، لذلك بادر بالسؤال:

– يبدو أنّك لم تنزعجي كثيرا لما حصل معك على عكس ما يحدث عادة حين تلقي مثل هكذا خبر!

– قد أكون لست بعربية، ولكنّي دخلت الإسلام وأنا مقتنعة به كدين سماوي وتفقهت في أحكامه وكلّ هذا بفضل زوجي الذي كان معي لحظة بلحظة، وتعلمت أنّ وراء كلّ مصيبة نراها خيرًا يُخفى بين طياتها، فالحمد على كل حال.

أومأ الدكتور برأسه وهو يستعجب أكثر فأكثر بينه وبين نفسه من هذه الشخصية الغريبة أمامه، لم يعهد أحدًا هكذا، خاصة وأنّ ملفها يؤكد أنّها ليست بعربية. تنحنح وهو يسألها مرة أخرى:

— هل هناك من يمكنه المجيء لأجل أوراق المستشفى؟ وأيضًا لمرافقتك في هذه الليلة؟

— لدي ابنة ولكنّها تظنّ أنني مسافرة، سأتصل بها.

اتصلت عدة مرات ولكن لا مجيب، بدأت تشعر بالقلق والخوف، ما الذي يمنعها من الإجابة وأين هي؟ وأتى على فكرها ندى، جولي تعمل في ذات المخيم لعلّها رأتها أو تعلم ما الأمر، ولكن كيف ستتواصل معها؟ ليس لها إلّا أن تتصل على الجمعية المشرفة عليهم، وما هي إلّا لحظات حتى وجدت الرقم، اتصلت وبعد السلام طلبت التحدث إلى ندى، حين سمعت صوتها سألتها بلهفة:

— هل رأيتِ جولي اليوم؟ أحاول التواصل معها ولكنّ هاتفها مغلق!

— أهلًا وسهلًا، يبدو صوتك متعبًا، ما الذي حدث؟

رغم صعوبة الموقف وقلقها على ريتال، لكنّها لا تريد أن تخبرها وتحاول الحفاظ على رابطة جأشها قدر المستطاع، أجابتها ميرال:

— فكري مشغول وعقلي تائه، ربما بسبب الحادث الذي عانيته، لا أعلم، ولكن أريد التحدث مع جولي لأمر مستعجل، وليس هناك أحد يستطيع أن يساعدني.

— حادث؟ سآتي إليكِ الآن، فقط أخبريني بمكانك.

بعد ما أخبرتها انطلقت ندى إليها وهي تفكر في الطريق، هذا أقلّ ما يمكن أن تفعله لأجل من احتضنت طفلتها وجعلتها شابة يُفتخر بها وأنشأتها على دين الإسلام وكانت خير والدة لها، يجب أن تقف بجوارها، خاصة وأنّ ريتال قد اختطفت من أمام عينيها، وفي هذا الأثناء

رفعت هاتفها القديم وهي تتذكر في آخر لقاء أعطاها فارس رقمه في حال أردت شيئًا ما، وما هي لحظات حتى أتى صوته:

— أهلًا يا خالتي.

— مرحبًا بك، أريد أن أعرف ماذا حدث معك؟ أخبرتني بعدم الذهاب إلى الشرطة، ولكن يبدو أنّ الوقت يمضي وأنت لم تخبرني إلى الآن ما المستجد معك؟ يجب أن نجد ريتال، خاصة وأنّ من ربتها في حاجة إليها، وأعتقد أنّ الوقت حان لتعرف هي ورتيل حقيقة الأمر كامل، وقد وعدتني أيضًا أن تجد رتيل، وإلى الآن لم تتصل وتخبرني شيئًا.

— خالتي، أنا في هذا الوقت ذاهب إلى رتيل، من فضلك ثقي بي، وفقط أعطيني بعض الوقت سأفي بوعدي لكِ.

— فقط للغد، إن لم أجد ما يطمئن قلبي سألجأ إلى الشرطة ليكن بعلمك.

أغلقت الهاتف وهي تعيد التفكير من جديد، كانت قاسية عليه بعض الشيء، ولكن هو من منعها من الاتصال وإخبار السلطات العليا، وها قد مضى وقت طويل على اختفاءِ رتيل واختطافِ ريتال، ويجب أن تجدهما.

وصلت إلى المستشفى، وذهبت إلى غرفتها وهي تستأذن بالدخول، ومن ثمّ دخلت وهي تتحمد لها على سلامتها وتتمنى لها الشفاء العاجل، وجلست بجوارها وهي تسألها عن أحوالها، ولكنّ ميرال عادت للسؤال من جديد:

- هل هناك ما يجب أن أعرفه بخصوص جو.. (وبترت الكلمة وهي تصحّح الاسم بخصوص) ريتال؟
- لم يعتد لسانك سوى على اسم جولي، لا بأس لتكن كذلك، أنتِ كنتِ لها أمًّا منذ أن كانت في أشهرها الأولى ويحقّ لكِ أن تسميها بما تريدين.
- لا تتهربي من سؤالي، فهذا يقلقني أكثر، أين هي؟

أطرقت ندى رأسها بتنهيدة صغيرة وهي تسمح للدموع تتساقط على وجنتيها، فوضعت ميرال يدها فوق يد ندى وقد شعرت بأنّ هناك أمرًا كبيرًا حدث، وقبل أن تعيد سؤالها أخبرتها ندى أنّ المكان غير مناسب وستخبرها فيما بعد، وبعد إصرار كبير أخبرتها بكلّ ما حدث في المخيم من لحظة خروجها إلى اختطاف ابنتيهما إلى كلامها مع فارس ووعده بالبحث عنها، وأنّها واثقة من أنّه سيفي بوعده لها إلى اتصالها منذ قليل معه، وكانت ميرال تسمع كلّ هذا بصدمة ودون أن تقاطعها أبدًا، وعندما انتهت ندى من كلامها صرخت ميرال بصوت خافت:

- ماذا هل تمّ اختطافها؟ كلّ هذه الأحداث وأنا لا علم لي بها!
- نعم هذا ما حدث، ولكن لا تقلقي فارس يبحث عنها وسيجدها بعون الله قريبًا.

بدأت تبكي ميرال وهي تنظر إلى حالة الضعف التي كانت عليها ندى، ومع ذلك تحاول أن تطمئنها وتشعرها بأنّها ابنتها الحقيقية، وهي التي بأحوج ما يمكن لمن يربّت على قلبها ويعيد لها ابنتها بعد حرمان دام لسنوات وسنوات.

بعد هدوء عاصفة المشاعر والبكاء الصامت، سألتها ندى:

– والآن أخبريني ما وضعك أنتِ وكيف حدث معك هكذا؟

– لقد كنت شاردة لبعض الوقت ولم أنتبه للشاحنة، ومن ثمّ لم أستيقظ إلّا وأنا هنا، ولقد علِمتُ منذ قليل أنّ قدمي قد تضررت ولن أستطيع السير عليها من جديد، عدا عن ذلك فأنا بخير لله الحمد، فقط أريد الاطمئنان على جولي.

لا تعلم لماذا لم تخبرها بكلّ ما جرى مع أهلها من أحداث والكلام الذي سمعته من والدها وموقفه الكبير من ندى رغم معرفته بأنّها مظلومة، لعلها لا تريد أن تزيد همومها، ستكتفي بمحاولتها تلك، كما أنّه هناك أمر أكبر من ذلك؛ وهو اختطاف جولي، واستفاقت من تفكيرها على صوت ندى:

– الحمد لله على ما أعطى وما أخذ، عوضّك الله وأخلفك خيرًا في مصيبتك، أمّا عن ابنتنا ستكون بخير بإذن الله عمّا قريب.

❀❀❀

لا بدّ من أن يأتي يومًا وترى الوقائع، حتى وإن طال
الوقت، سيكون هناك دائمًا بعد الظلام ضوء وبعد الليل
فجر.

كانت السيارة تسير بسرعة كبيرة، ولكنّه يشعر بأنّها كسلحفاة تسير على قلبه، يريد أن يسابق الزمان ويصل قبل أن يفقدها من جديد وتضيع هذه المرة إلى الأبد، صرخ وهو يشعر بأنّ كلّ ما فيه تهالك على بعضه:

— أسرع يا رجل بالتأكيد هما في مأزق كبير، يجب علينا أن نصل قبل أن تحلّ كارثة ولا نستطيع أن نفعل بوقتها شيئًا.

— لقد تجاوزنا السرعة المحددة يا فارس، ولكن يجب عليك أن تهدأ لن تسير الأمور هكذا.

أجابه خالد بهدوء وهو ينظر إلى كرم الذي ينطلق بسرعة تتجاوز 200 كم في الساعة.

وبالفعل ما هي إلّا فترة وكانا قد وصلا إلى الموقع المذكور ونزل فارس بسرعة، ولكن لحق به خالد ممسكًا إياه، وهو يحذره:

— نحن وصلنا قبل الشرطة وهذه عصابة كبيرة لا يجب علينا أن نكون بهذا الاندفاع، الحذر يجعلنا أقوى منهم، ولا تنسَ رتيل بين أيديهم، يجب أن نرى كلّ خطوة قبل أن نضعها.

توقف فارس وهو ينظر إلى كرم الذي همس:

— المكان مظلم، ويجب علينا أن نفترق ونبحث كلّ شخص من جهة، ولكن بهدوء ودون صوت كي لا نكشف الأمر.

اتفقا على ذلك، وذهب كل منهما باتجاه، وبعد دقائق سمع خالد صوت رجل ما يتحدث إلى صديقه:

- إنّني متأكد أنهما هنا، لقد سمعت رنين الهاتف، لا تخطئ أذني أبدًا، لا بدّ أن نجدهما قبل الصباح وإلّا سنكون في ورطة كبيرة.
- ولكن كيف وهذ الليل اللعين يخفي كلّ شيء، حتى أصابعي لا أراها!
- لنفترق ونرى ما يمكن أن نفعله، اذهب من هذا الاتجاه، وأنا بالاتجاه المعاكس، هيّا.

نظر خالد إليهما وهو يرى أحدهما يسير باتجاهه، وانتظر إلى أن رأى الآخر ابتعد بما فيه الكفاية وانقضّ على صديقه وهو يضربه على رأسه بحجر التقطه أثناء سيره، وما هي إلّا دقيقة والرجل يقع كأنّه جثة هامدة، ممّا أصدر صوتًا كبيرًا وضجة.

انتبه الرجل الآخر إلى الصوت والتفت وهو يصرخ:

- من هناك؟ هل أنت بخير؟

لم يسمع أيّ إجابة، فعاد باتجاه صديقه وهو ما زال يصرخ وينادي عليه، إلى أن وصل ورأى صديقه ممدد على التراب، وأطلق قدميه للرياح، ولكن كرم كان له بالمرصاد وأمسكه بقوة وهو يلكمه، متسائلًا:

- كم عددكم أيّها المجرم؟

ويبدو أنّ الرجل لا يريد الكلام، فلكمه هذه المرة بقوة أكبر؛ ممّا جعل المجرم ينطق:

- أنا وصديقي فقط هنا أمّا الآخرون ما يزالون هناك في المقرّ.
- وأين المقرّ؟

لم يجِبه، ولكن يبدو أنّ كرم مصرّ على سؤاله، فقد كسر أحد أصابع الرجل وهو يصرّ على أسنانه، ويقول:

— لا تفقدني صوابي وأجب سريعًا، وإلّا لن يتبقى منك شيء.

صرخ الرجل بقوة وهو يتألم، ممّا جعل خالد وفارس يأتيان سريعًا، وفي لحظة مجيئهما تكلم الرجل متألمًا:

— ليس ببعيد من هنا، على بعد كيلو متر أو أكثر بقليل.

— ماذا عن الفتاتين؟

— لقد هربتا ولا يعلم أحد في المقرّ، فقط أنا وصديقي، ونحن هنا للبحث عنهما.

هجم عليه فارس وهو يضربه بقوة ويتكلم بغضب:

— سأجعلكم تندمون وتدفعون الثمن غاليًا يا حقير.

ورغم قوة كرم وخالد، لكنّهما لم يستطيعا أن يبعدانه، إلّا بعد أن فقد الرجل وعيه وما زال فارس يقاوم يريد أن يضربه أكثر، ولكن صوت خالد جعله يتوقف:

— توقف يا فارس، علينا أن نجدهما قبل أن يأتوا آخرون، خاصة وأنّ الرجل الآخر أفقدته وعيه أيضًا منذ قليل.

وبالفعل انتشروا وفارس يصرخ:

— رتيل، أين أنتِ؟

وبعد لحظات سمعوا صوتًا:

— هل أتيت؟ أنا هنا.

التفت فارس إلى الصوت، وكانت تقف رتيل وريتال معًا، ورغم الليل والإرهاق الذي هما فيه بدت كأنّها نجمة في وسط المساء تلمع، أو

هكذا تخيّلها، تقدم إليها ببطء وهو ينظر إلى عينيها، وهي تتقدم إليه، إلّا أنّ ريتال لم تتحرك، كانت تشعر بغرابة الموقف، وعندما وصلا رفع يده وهو يتحسس وجهها وشعرها قبل أن يعانقها بقوة وهو يهمس:

— أنتِ هنا؟ لا أصدّق وجودك بعد هذه السنوات.

كان يتمتم والدموع تتساقط منه، ولم تكن رتيل بأقلّ منه مشاعر، ولكن في لحظة ما صرخت ريتال بقوة وهي تركض باتجاه رتيل، وتفجّرت الدماء في كلّ مكان، وقبل أن يستوعب الجميع ما حدث انطلقت رصاصة أخرى، وسقطت رتيل وريتال في نفس اللحظة والدماء تخرج وتغرقهما، وبسرعة التفتا كرم وخالد إلى اتجاه الرصاص، وقبل أن يطلق رصاصته الثالثة انقضا عليه، كان الرجل الأول الذي أفقده خالد وعيه، وبمحاولة يأس منه أطلق الرصاص، ولكن هذه المرة في الهواء، وبضربة واحدة أفقده كرم المسدس وثبته خالد، وهما ينظران إلى فارس الذي لم يتحرك من الصدمة، وفي هذه اللحظة انطلقت أبواق سيارات الشرطة تملأ المكان، والشُرطي يقول:

— الجميع في مكانه، لا يتحرك أحد.

وكأنّ صوت الشرطي صفعة جاءت على خدّ فارس ونظر إلى الأرض وهو يرى محبوبة قلبه قد بلّل الدمّ ثيابها وجسدها وفوقها ريتال التي أيضًا كانت مغطاة بالدماء، تحرك بسرعة وهو يصرخ:

— رتيل لا، لا تذهبي ليس بعد أن وجدتك.

اقترب رجال الشرطة وهم يبعدونه عنهما، ومن ثمّ يحملانهما إلى سيارة الإسعاف التي انطلقت بعيدًا.

❀❀❀

"دع الأيام تفعل ما تشاء ** وطب نفسًا بما حكم القضاء
ولا تجزع لحادثة الليالي ** فما لحوادث الدنيا بقاء".
الشافعي

شعرت بنغزة في صدرها، وهي جالسة إلى جوار ميرال النائمة، تقرأ القرآن ولم تعلم ما سببها، ولكن بدا وكأن قلبها غُرِزَ به سكين، أغلقت القرآن وهي تنهض بتوتر، لا تعلم لماذا ذهب تفكيرها إلى ابنتيها! ينتابها شعور ليس بجيد، تعوذت من الشيطان كثيرًا، ولكن لا يزال قلبها مقبوض، خرجت تمشي في أروقة المستشفى وسمعت أصواتًا كثيرة وهي في الممر، دفعها فضولها لترى ما الأمر، وقعت عيناها على السريرين، ولم تستطع أن تلمح الوجهين، فقد تغطّى أحدهما بالأبيض، والثاني يغطيه الدماء، وشعرت بالغصة تزيد في قلبها، وقبل أن تعود أدراجها لمحت فارس وهو يركض باتجاههما وهو يصرخ:

- رتيل رتيل، أرجوكم أريد فقط أن أراها.

وهنا هبط قلب ندى، ابنتيها إحداهن يبدو أنّها تبرعت بعمرها لأختها، والثانية تبدو مصابة، فالدماء غطت جسدها، وترنحت في مشيتها وهي تذهب إليهما، ولكن الممرضة أبعدتها وهي تقول:

- من فضلك يجب أن نرى وضع الفتاة لا تعيقي طريقنا.

وأسرعت النقالتان إحداهما إلى المشرحة والأخرى إلى غرفة الإنعاش، لم تستفق من صدمتها بعد، تنظر إلى فارس الذي وقف بالمنتصف، هل يذهب إلى المشرحة أم ينتظر خارج غرفة المعالجة، مشت باتجاهه وانهالت بصفعة قوية على وجهه:

- لقد وعدتني أن تعيدهن إليّ، ولكن لم تقل إنّني سأفقد إحداهن، بئس الرجل أنت.

لم تهطل دمعة واحدة منها، لا تريد أن تصدّق ما رأته، هذا فقط كابوس وسيذهب، بعد قليل ستستيقظ ولن يكون كلّ هذا حدث، أمّا عن فارس فقد جلس على الأرض وهو يتكور على نفسه كطفل صغير تيتم فجأة، كان يبكي بصمت وهو ينظر إلى حالة ندى وقد جلست إلى جواره تنظر في الفراغ، ما الذي ستتحمله هذه المرأة أكثر؟

بعد أن مضى وقت قليل خرج الطبيب وهو يتجه إليهما، ونهض فارس مسرعًا، ولكن ندى لا تزال على وضعيتها، فقط رفعت رأسها تنظر ماذا سيتكلم، أنزل رأسه بأسى وهو يقول:

- فقدنا إحداهن للأسف، ولكن الحمد لله لا تزال الثانية بخير ولم يصبها أيّ مكروه، أعتذر لفقدانكم.

- من؟ من الذي توفت يا دكتور؟

سأل فارس بخوف ولهفة.

- لا أعلم فالفتاة التي في الداخل نتيجة ما حدث فقدت وعيها، وهذا الدم الذي عليها من الفتاة التي ماتت.

ماتت ماتت! كانت الكلمة تتردد في عقلها، فوضعت يديها على رأسها وهي تحاول أن تخفي الصوت، وحين رآها الطبيب أنّها ليست بخير أمر الممرضة أن تعطيها إبرة مهدئة، والتفت فارس إليها وهو يراها تسير مع الممرضة بكل هدوء، وقد أخرسها الخبر وشلّ قدرتها على الكلام، ثم التفت مرة أخرى إلى الطبيب وهو يسأله:

- هل بإمكاني أن أدخل وأرى الفتاة؟

- ما صلة القرابة بينكما؟

تلعثم فارس قبل أن يجيب:

- أنا خطيبها، من فضلك فقط خمس دقائق.
- لا بأس يمكنك أن تدخل، ولكن ليس لوقت طويل.

هرع نحو الغرفة، ولكن ما أن وصل إلى الباب تجمدت يده لدقيقة وهو يفكر ماذا لو أنّها ليست محبوبة القلب؟ وكيف لو أنّ من ماتت هي رتيل؟ شعر بالأرض تموج من تحته والجدران تلتف وتلتف حتى شعر وكأنّها كبست على صدره ومنعت عنه الهواء، ولكن يجب عليه أن يواجه حقيقة الأمر إن كانت رتيل بالداخل لن يتردد للحظة بعد وسيتزوجها، حتى وإن كانت بلا نسب، لن يقف هذا عائق بين قلبه وحبّه، ولكن الآن عليه أن يواجه الأمر ويدخل ليتأكد من التي بالداخل.

فتح الباب رويدًا رويدًا وهو مطرق الرأس، يسير بخطى ثقيلة، وكأنه يسير على قلبه ليس على قدميه، وصل إلى السرير وما زال يحدق بالأرض، يتكلم مع نفسه، يا إله السماوات، امنحني القدرة على النظر إليها، ولتكن رتيل هنا، لا أستطيع أن أتحمل فقدانها مرة أخرى، أنا يا رب ضاعت هويتي وجغرافيتي وكلّ تاريخي حين ضاعت منّي، واليوم لا أرجو سواك أجب دعائي، فهي أمنيتي وأمنّي واستقرار قلبي وكلّ ما أملك، لا تمتحنّي فيها يا رب.

رفع بصره وبنظرة خاطفة نظر وخرّ على الأرض متصدّعًا يكاد يغشى عليه من فرط الفرح، لم تمت، ها هي أمامه حيّة تُرزق ليس بها أذى رغم الضعف الذي بدا واضحًا عليها، ولكنّها لا تزال هنا، حمدًا وشكرًا لك يا رب لم تردّ يديّ خائبتين.

يالهذا الحب الذي يتملّك أوردة قلبك يا فارس أيّ عشق بك أنت؟ تجلس كطفل صغير متكور على نفسك تنظر إليها بعين من أخبروه أنّه تيتم وبعد برهة يعتذرون منه للخطأ الذي ارتكبوه، بعد أن استعاد شيئًا من أنفاسه وقف مترنّحًا ينظر إليها، رغم أنّه منذ زمن طويل لم يلقها، عرفها من تلك الشامة أعلى شفتيها ومن خفقة قلبه حين نظر إليها، يالفرحة قلبه وهو يراها.

اقترب منها وهو يمدّ يده بخوف وحذر أن يزعجها أو يجعلها تستيقظ، وضع يده فوق يدها وهو لا يزال ينظر إليها، قبل أن ينزل رأسه إلى أذنيها ويهمس:

— أنا هنا يا جميلتي، وسأكون دائمًا هنا بجوار قلبك، لكن هذه المرة لن تذهبي بعيدًا عني، فلا حياة لي دونك.

لم تتحرك رتيل وظلّت على ما هي عليه، ولم يكن يريد فارس أن يذهب ويتركها بمفردها، ولكنّها أوامر الطبيب، يجب عليه أن يخرج حفاظًا على راحتها وسيعود إليها حين تستيقظ، الآن يجب عليه أن يرى والدتها ويقف إلى جانبها في هذه المحنة الكبيرة، وصل إلى الغرفة الأخرى، وكانت ندى لم تستيقظ من المهدئ بعد، وقرّر أن يحلّ بعض الأمور ريثما تستيقظ من إجراءات المستشفى ودفع الفواتير، وبعد ما انتهى عاد ونظر إلى رتيل، وكانت لا تزال نائمة، ومن ثمّ عاد إلى ندى التي قد استيقظت منذ فترة قصيرة، تنحنح قبل أن يبدأ الكلام:

— أنا أعلم أنّ مصيبتك كبيرة، وأنّ قلبك ينزف منذ زمن طويل، وزاد اليوم جراحك جراح بموت إحدى ابنتيكِ، ولكن لله ما أعطى ولله ما أخذ، إنّها أمانة الله وقد استردها اليوم.

- هل تعلم، رغم مرارة الفقد وشدّة الوجع، ولكنّني سعيدة أنّها ذهبت دون أن تعلم حقيقة أمرها، وأنّها بلا نسب، لعلّ الله لم يرد أن يفجعني بوجعها حين تكتشف أنّني والدتها الحقيقية وأنّها مجرد لقي..

صمتت عند هذه اللحظة وهي تجهش بالبكاء والنحيب الصامت، اقترب منها فارس وهو يحتضنها ويربّت على ظهرها، وقد توجّع على ما تعيشه هذه المرأة من آلام ومصائب، بعد فترة مسحت دموعها وهي تقول:

- أعتقد أنّ رتيل بخير، أليس كذلك؟
- ربما ليس من المناسب أن أسألكِ، ولكن كيف عرفتِ من التي توفت؟
- من هدوئك واطمئنان وجهك علمت ذلك، هل تستطيع أن تأخذني إلى ريتال؟ أريد أن أودعها.

اقترب منها وهو يسندها ذاهبًا بها إلى المشرحة، ومثل الذي يسير على زجاج مكسور حافي القدمين كانت تسير ندى هكذا، وحين وصلت طلبت منه أن يبقى في الخارج، ودخلت مع الممرض فقط، وحين كشف عن وجهها كان أزرق وشاحبًا، أمسكت بيدها وهي تقترب منها وتقبّلها والدموع تنسكب على وجهها، بدأت تتكلم معها:

- هل تعلمين من أنا؟ إنّني المرأة التي ولدتك، ولكنّي لست بوالدتك الفعلية، ميرال هي التي كانت أمًّا لك، قامت بتربيتك وتنشئتك، أعتذر لكِ فقد تركتك مجبرة، وأعتذر لأنني لم أستطع أن أجدك قبل اليوم.

قبلت جبينها وانسحبت من الغرفة، وقلبها ينسحب نصفه إلى تلك التي فارقت الحياة دون أن ترى تفاصيلها، تفاصيل أيامها وحياتها وكيف كبرت يومًا بعد يوم، كانت تسير باتجاه ميرال وتفكر كيف ستخبرها بهكذا نبأ، ولكن لا بدّ لها أن تعلم، فهذا حقها، وحين وصلت وجدتها جالسة على سريرها، ومنذ أن دخلت شعرت ميرال بأنّ هناك مصيبة وأمر كبير، تساءلت:

- هل جولي بخير؟

صمتت ندى وأطرقت برأسها ودون أن تنبس بحرف، قالت ميرال:

- يبدو أن القدر لا يريد أن يجعلني أمًّا، سأظل عقيمة هكذا للأبد.

رمت نفسها بحضن ندى ودخلت بنوبة بكاء، وفجأة رفعت رأسها وهي تسألها:

- ماذا عن ابنتك الثانية؟ أين هي وكيف حالها؟

- إنّها بخير على ما يبدو، ولكنّها لم تستيقظ إلى الآن، يبدو أنّها تشعر بألم الفقد، ولذلك لا تريد العودة للواقع.

أمسكت ميرال بيد ندى وهي تنظر بعينيها:

- جولي لم تمت والذي ماتت هي رتيل، هذا ما حدث أتفهمين؟

لوهلة شعرت ندى بأنّ ميرال قد جنّت، ولكن ميرال أكملت كلامها:

- يجب أن نفعل ذلك ولن يستطيع أحد أن يُفرق بينهما، دعينا نعطي هذا النسب لرتيل ونجعلها تعيش مرتاحة، يكفيها ما قاسته من أوجاع ونبذ في الماضي، لماذا نفكر كثيرًا والحل أمامنا؟

❁❁❁

النهاية

بعد مرور فترة ليست بقليلة كانت رتيل وفارس، كرم وجمان، خالد وزوجته، ميرال وندى يجلسون على مائدة وصوت الضحكات تعمّ المكان، وقد أصبحت رتيل بالأوراق الرسمية جولي وائل شرف، وبعد أيام ستصبح حرم فارس، بعد ما جلست مدة في المستشفى وتحسنت، ومن ثمّ أخبرتها والدتها بكلّ شيء منذ اغتصبها عمّها إلى لحظة وفاة جولي واقتراح ميرال. كان الأمر صعبًا جدًّا عليها، ولكن بإشراف طبيب نفسي بدأت تتحسن وتتقبل الحياة وتحاول أن تسير في مركب العمر، وكان الفضل الأكبر والدائم لتشجيع فارس لها ووقوفه بجانبها، فليس فقط وراء كل رجل عظيم امرأة، أيضًا وراء كل امرأة ناجحة رجل محبّ ومخلص بمشاعره وقلبه.

أمّا جمان فقد اكتشف كرم بأنّ أخوها وأبناء أعمامها من أعضاء المافيا، وذلك في اليوم الذي كان يبحث عن رتيل مع فارس، ولكنّه لم يتكلم إلّا بعد أن تأكد من وجودهم جميعًا في السجن، وأخبر جمان بكلّ شيء، كانت صدمة كبيرة لها، ولكن شعرت بأنّ الله انتصر لها على ما عاشته معهم من أوجاع وقهر، وإلى الآن ما يزال كرم يحاول معها لتبدأ معه حياة جديدة.

ميرال كانت رغم ما فعلتها لرتيل وندى تشعر بفقدانها الكبير لجولي، وعلِمت منذ فترة من مصادرها أنّ الشيطان مَن هو عمّ ندى بصلة الدم فقط، مصاب بسرطان الدم وليس له أيّ أحد يستقبله؛

فالجميع عِلِم حقيقة أمره، ولكنّها لم تخبر ندى بشيء حفاظًا على عدم فتح جرحها مرة أخرى، وشعرت بأنّ ما حدث له قليل جرَّاء ما اقترفته يده من أثم عظيم وفعل ديوث، واحتضنت الفتاة التي وجدتها بشقة جولي وتقوم اليوم على رعايتها وتكفلّت بأمورها كلّها، ومن ثمّ أنهت الأمور مع شقيق زوجها ولم تعد خائفة منه بعد اليوم، فقد أخبرته أنها صارحت جولي بالحقيقة كاملة، وكانت تقصد رتيل، ولكن لم تخبره عن هذا الأمر أبدًا.

ندى رغم حصول رتيل على اسم ونسب ولكن فقدانها لريتال جعل الحياة أصعب عليها بكثير من قبل، وبعد إقناع من فارس بدأت تذهب ورتيل لعيادة خالد، ومن خلال جلساتها للمعالجة النفسية عنده كانت تسجّل كل يوم جزءًا من قصتها وتبوح بأسرار أخفتها لفترة طويلة من العمر، لتوجّه رسالة لجميع نساء العالم ألا يقبلوا بمثل هذا النوع من الظلم، وأن يطالبوا بالقصاص تجاه من يحاول أن يُقدم على مثل هذه الأفعال، وتعلمت مما حدث معها أن الصمت يولّد قهرًا وحرمانًا، وأنّ الحياة لا ترضى بالضعيف، فكلّ من يرضى أن يكون مع قطيع الخرفان، ستأكله الذئاب يومًا ما.